تاريخ مصر الاجتماعي

احمد زكي بدوي



تاريخ مصر الاجتماعي

احمد زكي بدوي

مطبعة صلاح الدين الكبرى

الى الذين ضحوا فى سبيل مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن أغلب ما كتب حتى اليوم عن تاريخ مصر ليس إلا تدويناً لحوادثها السياسية ، وذلك لأن أكثر مؤرخيها اقتصروا فى تواريخهم على ذكر الملوك والحكام ، وما قاموا به من حروب وفتوحات . أما ماعدا ذلك فقد أهملوه ، فاذا عثر المؤرخ السياسى الحديث على بغيته من هذه الصحائف ، فان المؤرخ الاجتماعى يجد صعوبة عظيمة فى تدوين احدى نواحى النشاط الأخرى ، فيصبح هذا التراث اقصر ما يكون عن تحقيق بغيته .

لم يكتب اغلب المؤرخين عن تاريخ مصر بقدر ما اسهبوا فى الكتابة عن تاريخ حكامها وملوكها ، والواقع أن المؤرخين المصريين الذين عاشوا فى العصور المختلفة لم يجدوا فى نظرهم ما هو أعظم أو أرفع من الملوك حتى يكتبوا عنه ، فالملك ظل الله فى أرضه ، وهو حامى الدين ، والمدافع عن الوطن ، والسيد المطلق فى جميع نواحى الحياة .

ولولا بعض المؤرخين الأجانب الذين زاروا مصر بين عهد وآخر ، لما امكننا أن نجد ما يدون عن تاريخ مصر ، وذلك لأن المؤرخ الوطنى يهتم بالملوك ونزاعهم واعمالهم ، أما ما

يسترعى انتباه المؤرخ الاجنبى فعادات البلاد ودينها ونظمها مما لايجد له شبيها ببلاده ، إلا أنه كثيرا ما يخطىء فى وصف هذه النواحى فيحيطها بسياج خفى ، ويبتكر لها من القصص الخرافية مايزيدها غرابة فى نظر القارىء .

فاذا نظرنا الى المؤرخين اليونانيين مثلا وجدنا أن كثيراً منهم اعتمد على القصص المصرية التاريخية الخرافية ، وخصوصاً هيرودوتس ، فى انشاء تاريخ مصر القديم ، ولم تصل هذه القصص لسوء الحظ الى اسماع هؤلاء المؤرخين كما وضعت ، لأن اغلبهم ، إن لم يكن كلهم ، كانوا يجهلون اللغة الهيروغليفية ، لذلك تلقفوا رواياتهم عن التجار والعامة ، الذين كانت بينهم وبين اليونانيين معاملات تجارية أو خلافها ، ولهذا كان الكذب فى تواريخهم أكثر من الصدق .

ولما أراد المؤرخون فى العصور الاخرى الكتابة عن الماضى ، لم يتحروا فى صحة ما تركه قدماء المؤرخين ، فنهجوا نهجهم مع التغيير الممكن فى سرد رواياتهم حتى تنسجم مع اسلوب عصرهم .

لذلك كله كان من العسير استنباط الوقائع الحقيقية خلال كتابات هؤلاء المؤرخين فكل ما سردوه من الحوادث وما قصوه من تاريخ الافراد اشبه شىء بالفهارس لانهم لم يعنوا بوجهة خاصة ، ولم يدونوا تواريخهم على نحو ما ، يمكن العلماء الحديثين من معرفة سلسلة الحوادث وارتباطها ببعض . كل ذلك جعل مهمة المؤرخ الحديث فى استنباط ما تتطلبه ابحاثه من

أصعب الامور وأدقها . ولعـــل قدماء المؤرخين معذورون في هذا ، إذ لم يكن لهم علم بطرق الابحاث التاريخية واغراضهـا التي لم تكن قد ظهرت في أيامهم .

ظل تدوين التـاريخ على هذه الصورة ، لا في مصر وحدها بل في العـالم اجمع ، معتبرا احد الفنون حتى أواسط القرن الثامن عشر ، فلمـــا جاء كنت وسبنسر كان لهما فضل عظيم في اعتبار التـاريخ احد العلوم المتفرعة من علم الاجتماع والتي غرضها دراســـة المجتمع الانساني من جميع نواحيه المختلفة (الجنسية والجغرافية والاقتصــــادية) ثم جاء الدكتور برى في أوائل القرن التاسع عشر فأعلن أن التاريخ علم لا أقل ولا اكثر .

والواقع أن الدين والحرب والسياسة كانت أهم ما شغل عقول الأولين في العصور المختلفة . فكتبوا التاريخ متأثرين بها ، وطبيعي أن التاريخ حينذاك سد حاجة ، سواء أكانت نصرة دين أم رفعـــة عصبية أم تعضيد ملك ، ولكن لم يعد اليوم لأحد هذه المظاهر السلطة المطلقة في حياتنا ، فكلها تكاد تشغل حيزا متساوياً من تفكيرنا ، وبجانب هذا فان التاريخ بعد أن أصبح علماً صار غرضه الاول تدوين جميع الحقائق التاريخية وترتيبها تحت مدلولاتها المختلفة ، فلم تعد الهيئة الاجتماعية في نظر التاريخ العلمي مجرد حروب دينيـــة أو غزوات سياسية ، انما اصبحت كياناً حياً يخضع لقوانين ثابتة في نشوئه وتطوره .

اقتضت الحالة اذاً تدوين تاريخ عن مصر تحقيقا لهـــذه

الفكرة ، فوضعت هـــذا الكتاب .

اذا ظهر للقارىء اقتضاب أو اختصار زمنى فى بعض فصول هذا الكتاب وتطويل فى البعض الآخر فذلك لانى أردت بحث الحقائق التاريخيةمن الوجهة الاجتماعية فجاءت فى بعض الاحيان أشبه ماتكون علماً اجتماعياً تطورياً عن مصر Dynamic Socialogy لا تاريخاً اجتماعياً Social History كما أنى قصدت من هـــذا الكتاب أثبات الحيوية المصرية مع تقديم الحقائق التاريخية التى تبين أن مصر مصدر الثقافة فى العالم ، ولما كان من الصعب تتبع تاريخ هذه الثقافة ومكانتها من النواحى الاجتماعية المختلفة توسعت قليلا فى الناحية الدينية لأنها أعظم المظاهر الاجتماعية وابقاها أثراً .

وصعوبة تتبع تاريخ الثقافة المصرية ترجع إلى أن أديم مصر كان مسرحاً كبيراً لأغلب الأمم التى عرفهـــا التاريخ ، مثلت فيه كل واحـــدة دورها ، وصرعت عليه أمة بعد أمة . وقد تركت كل أمة من هذه الأمم على هذا الأديم أثرا من ثقافتها وأثراً من نفسيتها ، إن كان كبـــيراً أو ضئيلا . لذلك كانت مصر وحـدها أجدر دول التاريخ بالدراسة ، فضلا عن أنها المصدر الأول للمدنيات جميعاً .

كانت مصر دائمـا محط أنظار الأمم الفتية وموطن العقائد الحديثة ، وذلك لحسن مركزها وجودة أرضها وأعتدال جوها ، ولـكن طبيعة مصر هذه لا تلبث أن تطبع كل من يستوطن بهـا بطابعها الخاص .

ويظهر ذلك منذ استقر البطالسة فى مصر وكانوا يحملون

إليها أهم ما أمتازت به الحضارة اليونانية وهى الفلسفة اليونانية التى أخذت تتطور حتى كونت مدرسة جديدة هى مدرسة الأسكندرية .

وامتاز عصر الرومان بالديانة المسيحية ، وكان لمصر فيها شأن عظيم وأبت شخصيتها إلا أن تجعل للمسيحية مذهباً خاصاً هو مذهب اليعاقبة وأصبحت الديانة القبطية فى مصر غير مسيحية بيزنطة .

ودخل الاسلام مصر وكان أهلها أقلية ، ملوا حكم الروم فاكرموا وفادة العرب ، فاخذ هؤلاء يفدون إلى مصر بكثرة لسهولة العيش ووفرة الخير ، حتى فاق عددهم عدد الأقباط ، ولكن مصر رغم ذلك صبغتهم بصبغتها وأحالتهم مصريين بعد جيل أو جيلين .

وأتى المماليك مصر فدانو بدينها ، واعتادوا عاداتها ، ولكن أغلبيتهم لم تختلط بالمصريين بالمصاهرة ، فكان مصير هذه الأغلبية الفناء .

وكذلك العثمانيون استقروا بمصر ردحاً من الزمن فاستقل ولاتها عن الاستانة ، ونفر المصريون من طبيعة العثمانيين المغولية .

كانت العناصر الثلاثة الأخيرة أقل مدنية وحضارة من مصر فاكتسبت الكثير من علم مصر وحضارتها وأخلاقها ولم تكتسب مصر منها الا القليل . لذلك لم تصل مصر إلى آخر هذه العهود حتى أصابها من التقهقر ما دفعها إلى الأخذ بأصول الحضارة الأوربية وصبغ ما أمكن منها بالصبغة المصرية .

إلا أن هذه الحضارات والأجيال التى تعاقبت على مصر ، لم تغير من وحدتها ، وكل حدود وضعها المؤرخون ، ليستخرجوا من تاريخ مصر عصوراً يرتبونها فى مراحل مختلفة ، كانت وهمية فى الغالب أو تقريبية على الأكثر ، فمنذ أبتدأ المؤرخون الأوربيون يكتبون عن مصر أخذوا يقسمون تاريخها وفقاً للتغير السياسى الذى طرأ عليها فى العصور المختلفة ، يرمون بذلك الى تحقيق أغراض استعمارية .

لقد تعاقبت على مصر دول وحضارات وأديان عدة ، ولكن هل نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة قاطعة بين مصر الفرعونية ومصر اليونانية ومصر الرومانية ومصر العربية ، وهل نستطيع أن نضع مثل هذه الحدود بين مصر الوثنية ومصر النصرانية ومصر الاسلامية . إن الفتوحات المتعاقبة لا تعين من تاريخ مصر غير مراحله السياسية والدولية . أما المراحل الاجتماعية فانها تشتبك وتمتزج فى معترك لا نهاية له من التطور والتماثل ، وقد نلمس فى العادات والتقاليد والمعتقدات التى تسود المجتمع المصرى الحالى كثيراً من آثار مصر الوسطى أو مصر الوثنية أو مصر الفرعونية . وقد كان البحث يقف بهذه العادات والتقاليد عند مصر الاسلامية ، وكانت صور المجتمع المصرى الحديث كلها تعتبر أثراً اسلامياً خالصاً ، وكان الفتح الاسلامى يعتبر كأنه أسدل حجاباً أبدياً على مصر القديمة وعلى رسومها وعاداتها وتقاليدها وكل تراثها الفكرى والاجتماعى ، ولكن مباحث علماء الآثار المصرية القديمة كشفت عن

حقيقة هامة هى أن تراث مصر الفرعونيــة مازال يتسرب إلى تقاليــد المجتمع المصرى المعاصر وإلى عاداته ورسومه ومعتقداته ، وان هـذا التراث لم ينقطع عن المثول فى تطورات مصر الاجتماعيــة ، فى عصورها ومراحلها المختلفة ، وكل ما هنالك أنه كان يتخذ لكل عصر صورة . لذلك عمدت إلى تقسيم تاريخ مصر فى هذا الكتاب إلى أربعة عصور أرى أنها أقرب إلى الحقيقة وأدنى إلى الصواب من التقاسيم التى أتبعت فيما مضى ، ثم قسمت كل من هذه العصــور الى عدة نواح اجتماعيــة وتكلمت عن كل منها باختصار . إلا أن طول العصور واختلاف الظروف والملابسات جعــل هذه النواحى لا تســير غالباً فى تطورها بنسبة واحدة ، فبينما ينمو أحد الجوانب ويزدهر ويسرع فى التقدم ، إذ بالجانب الآخر فى جمود وثبات ، مما سبب صعوبة إدماج هذه النواحى الاجتماعية معاً حتى يكون الموضوع أقوى لشــدة الصلة الطبيعية التى تربطها جميعاً ، فبينما تكون الحركة السياسية مثلا على أتم ما تكون من النشاط فى أحد العصور نجد بجانبها النشــاط الدينى ضعيفاً لا نكاد نشعر به ، فاذا ما تكلمنا عن هـذه النواحى معــاً يصعب على القارىء تلمس أثر كل منها ، بينما إذا تحدثنا عن كل منها على حدة رغم اتحادها الطبيعى فان ذلك يزيد من إظهار قيمة كل منها ومقدار الأثر الذى تركه فى كل عصر .

ولذلك سنتحدث عن العهود المختلفه بما يستحقه الجانب

الاجتماعي الممتاز فى كل منها من اهتمام ، واضعين نصب أعيننا المكان اللائق بكل ناحية .

وقبل أن نختم هذه المقدمة نكرر القول بأننا كتبنا هذا التاريخ مجردين عن أى غرض واضعين الحقيقة فقط صوب أعيننا ، فلم نتعصب فى كتابته للحضارة الفرعونية أو للحضارة الاسلامية أو لغيرها من الحضارات . بل تحدثنا عن البيئة المصرية بما لها من مميزات وخواص وظروف . ونحن نؤمن فى الواقع أن مصر عاشت وفقاً لبيئتها التى طبعت حضارات مختلفة وأديان عدة بطابعها . لذلك كان ماضيها هو تاريخ منف وطيبة والاسكندرية والفسطاط والقاهرة ، لا تاريخ من حكموا هذه العواصم ؟

العصـــر القـــديم

البيئة والسكان

أوجد النيل كل ما فى مصر وحده ، من الأرض إلى الحاصلات . ومن الأنواع الحيوانية الى اعمـال الناس ، ومن الأخلاق الى النظم السياسية والاجتماعية .

اقتطع النيـــل مصر من جسم الصحراء ، فليست مصر فى الحقيقة الا واحة طويلة يبلغ طولها ما يزيد على مائتى فرسخ بقليل ، وعرض يختلف من كيـــلو متر الى عشرين ، أما الدلتـا المثلثة الشكل فعظيمة الخصب ، لم يقتطعها النيـــل من الصحراء وانما اقتطعها من البحر فجاء بها ذرة فذرة فى مئات القرون .

وكل ما فى مصر متوقف على فيضان النيـل ، ولذا عزا اليه قدماء المصريون انتظام فيضـــانه فألهوه ، واعتقدوا أن فيضـــانه المبارك تولد من دمـــوع الربة ايزيس وهي تبكى زوجها اوزيريس .

وبالرغم من أن النيل المعول الأول فى حيـاة مصر إلا أنه لا يستغنى عن اليد البشرية تعينه على إكساب مصر الخصوبة ، فطغيان فيضانه وتحاريقه يضران بالأرض على السواء ، لهـــذا عولج النهر باقامة الجسور وحفر القنوات التى توزع الماء بالقسط على مختلف الأراضى ، وانشئت الخزانات لخزن المـاء

اذا زاد لحين قلة ماء النهـــر واشتداد الحاجة اليه فى الأراضى العالية ، وقد كانت هـــذه الأعمال تجرى من أول تاريخ مصر فى مجموع مجرى النيل بنظام ، ومن أجل ذلك كان الرى محتاجا فى ادارته لسلطة مركزية ، وفى كل وقت حدث فيه أن جزئت هذه السلطة أو نقصت بسبب الفتن أو العدوان ، تأثرت البلاد برمتها فى أمور معاشها وتفشى الضنك والمجاعات . فكانت الملكية المطلقة ، المظهر الوحيـــد للحكومة الممكنة فى مصر ، وكانت الوحدة الوطنية الكبرى الاولى التى عرفت فى تاريخ الحضـــارة البشرية ، والتى كانت أول معين على ظهور أقدم الحضارات على وجه الأرض .

أوجد النيل الزراعة فى مصر فأجبرت المصرى على أن يعرف صناعة البناء ، وتدجين الحيوان ، والتوقيت ثم الكتابة ، وبوجود الزراعة بمصر وجدت هيئة اجتماعية منظمة رئيسية للبلاد ووجد نظام للكهنة وأوقاف للمعابد وصار الدين عقائد ثابتـــة لا تتغير ، لهـــذا كانت مصر أول قطر عرف الحضارة فى العالم .

والجنس الذى ينتسب اليه المصريون كان فى عصور ما قبل التاريخ عبارة عن أقوام من الجنس الافريقى الأبيض أو من جنس البحر الأبيض المتوسط . كانوا غالباً صيادين يقتاتون بما تناله رماحهم وتصيبه سهامهم ، لم يزاولوا الزراعة ولم تتوجه اليها أفكارهم .

ومن زمن بعيد لا يبلغه التصور نزح الى وادى النيل

أقوام من أصل أسيوى ، حاميون ساميون ، وفدوا على الوادى فى عدة مرات متعاقبـــة ، وعمد هؤلاء المغيرون الاسيويون الى دفع السكان الأصليين أمامهم ، أو استغراقهم ، ولـكن لابد من وجود مخالطة حدثت بين الطرفين فخرج منهـــا المثال المصرى السوى .

اعتبر المصريون أنفسهم أصلاء الجنس . وكان فى روعهم أن الآلهة أوجدت جنسهم من القدم بوادى النيل ، وبعد ذلك حكم أولئك الآلهة البلاد وعلموهم إدارة أمر النيل وجغرافيته وسنوا لهم النظم والقوانين ، فعاش أجداد المصريين ســـعداء تحت رعاية الآلهة ، صدر عنهم كل ما فى مصر من حسن جميـل فـكان عهدهم عهد بركة وسلام ورخاء .

إن أقدم الآثار التى وصلتنا عن النشوء الاجتماعى فى مصر هي الصور التى وجدت على جوانب الأوعية المدفونة فى الأرض وعلى جدران المقابر ، وكانت لصقور وأفيال وشموس واسهم متقاطعة وجبال وغيرها ، وترجع كلها الى عصور ما قبل التاريخ ، وليست هـــذه الصور إلا رموز وثنية تثبت وجود جماعات بشرية تميزها كل من هذه الصور .

كانت مصر حينذاك معرضة لغزوات البدو الفجائية ، فكان السكان الملازمون للأرض لا يقطنون اكواخا مشـتتة ، انما كانوا يجتمعون خـلال الليل خلف جدران القرى القوية ، وكانوا يتركون فيهـــا عائلاتهم ومقتنياتهم حينما يذهبون الى الحقول ، وكانت كل قرية تنصب على أبوابها علامة حيوان

أو تميمة أو رمزا آخـــر للجماعة ، وكان يجتمع فى هذه القرى الصيادون والفلاحون لغرض الدفاع والمســاعدة المشتركة والامن العـــام .

وليس هناك شـــك أنهم لم يخضعوا لزعماء امتازوا بينهم بالقوة أو الذكاء أو الثروة أو المعرفة السحرية ، انما خضعوا لمجالس كونت من هؤلاء الاشخاص كانت تسمى (السارو) .

وعلى توالى الزمن تجمعت هذه القرى أو العشائر لتكون دولا ثم لتصبح دولة واحدة ، فكانت نتيجة هذا التطور انقلاب الطلاسم آلهة ، وتطور السحر الى الدين ، والرؤساء السحرة ، الى ملوك كهنوتيين (rois-prêtres) . أما القوة السياسية التى كانت مقسمة ومنتشرة فى كل عشـــيرة ، فقد ركزت أولا فى ملكية اقليمية ثم امتدت .

كان العامل الأول فى توحيد مصر تلك الحروب التى قام بها حكام الأقاليم ضد البدو الذين كانوا يغيرون على مصر بين حين وآخر ، وكان العامل الدينى يسير فى نفس الوقت نحو توحيد مصر أيضـــاً ، فقد أخذت تتلاشى جميع التصورات المحلية عن خلق العـــالم ، والتى لم تكن واسعة الانتشار ، وحل محلهـــا صورة واحدة لكيفية تركيب العـــالم والمخلوقات Cosmogonie . ولكن ذلك لم يزل تماما الاسماء القديمة لآلهة الأقاليم المحلية ، فان هذه الأسماء ظلت حية فى شكل آخر فبدلا من اسمى آمون ورع ظهر اسم آخـــر هو آمون ـ رع . وبفضل هـــذا التوحيد والتسامى الدينى عرفت مصر الوحدة

ممثـــلة فى شخص الملك .

ومن العسير معرفة التاريخ الذى ابتدأ فيه توحيد مصر وقيام أول أسرة مالكة على يد مينا . وقد وضع المؤرخون عدة جداول عن حساب ابتداء تاريخ الاسرات الفرعونية ، فيبتدىء جدول شامبليون ســـنة ٥٨٦٧ ق . م ، وليبلين وليزبوس وبنش سنة ٣٨٩٢ ق . م وبوخ سنة ٥٧٠٢ وماريت سنة ٥٠٠٤ ق . م وبروكش سنة ٤٤٠٠ ق . م

الحالة السياسية

كانت مصر مكونة من عدة أقاليم ، كثيراً ما كانت تتحارب فيتغلب أقليم على آخر فيضمه اليه واسفرت نتيجة تلك الحروب عن تكوين مملكتين عظيمتين احداهمـــا فى الشمال والأخرى فى الجنوب وحوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م ضم مينا الأقليمين الى بعض فكان رأس اسرات الفراعنة ومؤسس أول مملكة عرفها التاريخ .

لمس المصريون منافع الوحدة الوطنيـــة فكان هم خلفاء مينا من ملوك الاسرتين الأولى والثانية ، تثبيت دعائمها والتمكين لها ، وظل التقدم حليف البـــلاد حتى أواخر الأسرة الخامسة فلما جاءت الأسرة السادسة بدأ الضعف يدب فى سلطة الملك . فاختلت أحوال البلاد ، واستقل حكام المقاطعات ، وصاروا يتنازعون فيما بينهم وعادت مصر الى الانقسام والفوضى أيام الأسرتين السابعة والثامنة . وفى أيام الأسرتين التاســـعة والعاشرة انحصر النزاع بين مدينتي هرقليوبوليس ومدينة طيبة ،

وانتهى بسقوط هرقليوبوليس وانتصار طيبة ، فوحد أمراؤها القطر من جـــديد ، غير أن تلك الوحدة تأسست على نظام جديد ، هو نظام الاقطاع ، ولـكن لم يدم هـــذا النظام طويلا فعادت الفوضى والانقسام والحروب الداخلية فى أواخر عهد الاسرة الثانيـــة عشرة .

وزاد الحالة سوءا دخول الهكسوس مصر فظلوا بها من الاسرة الرابعة عشرة حتى الاسرة السابعة عشر غير أن المدنية المصرية غمرتهم على توالى الزمن فتحضروا بعد أن كانوا همجا . واندمجوا فى المصريين وقلدوهم وعبدوا آلهـــة مصر، وفى آخر أيامهم استطاعت عدة ولايات فى الوجه القبلى أن تنفصل عنهم ، وكانت أهم هـــذه الولايات طيبة ، التى ظل ملوكها فى حروب مستمرة معهم ، حتى تم خروجهم على يد أحمس مؤسس الاسرة الثامنة عشر وظل تاريخ مصر بعد هذا الاستقلال فى دور فتح عظيم ، فتوغل المصريون فى الفتوحات ، فزادت ثروة مصر ، واستفاد منهـــا المصريون وخصوصا طبقة الاشراف وحكام الأقاليم الذين وجدوا من مصلحتهم الانصراف عن مشاغبة الملك ، والالتفاف حوله حتى يكون لهـــم نصيب من الثروة العائدة على مصر من الفتوحات الخارجية ، فارتفع بذلك شأن الملكيـة فى مصر ، وتكونت أول امبراطورية فى الارض ، وكان تأسيسها خلقا جديداً لمصر ، إذ تغيرت حالتها من جميـــع النواحى ، وأصبحت الدولة حربية بكل معانى الكلمة ، وصارت الجندية هى الطريق الوحيد لكسب المال والشرف ، وكان

فى مصر طوال عهد الامبراطورية ثلاث احزاب قوية ، حزب الكهنة ، والحزب العسكرى ، وحزب المحافظين ، أو حزب الوراثة الشرعية . وكانت هذه الاحزاب تدفع مرشحيها الى العرش .

ولما تولى اخناتون العرش ، انقلب قديساً نبياً ، وركز جهوده وعبقريته لخدمة دينه الجديد ، ولم يكترث لعرض الدنيا فلما أدرك أعداء مصر ذلك ، امتنعت المستعمرات عن دفع الجزية واغاروا على املاك الامبراطورية فى الشمال ، ولكن اخناتون لم يتحرك ، وفى عهد الاسرة التاسعة عشر حاول سيتى الاول أن يسترد الامبراطورية فلم ينجح ، ولما أتى رمسيس الثانى أصاب القصد ، ثم أخذ بعد ذلك الفراعنة فى الضعف حتى قوى شأن الكهنة وكونوا الاسرة الحادية والعشرين وظلت البلاد فى انقسام حتى دخلها الاشوريون ، ثم استقل امراء الدلتا المصريون وكونوا الاسرة السادسة والعشرين . إلا أن الفرس أخذوا منذ الاسرة السابعة والعشرين يغزون البلاد حينا وتقهرهم حينا آخر حتى تم جلاؤهم عنها على يد الاسكندر .

النظام الادارى

مرت حكومة مصر فى الأدوار التى تجتازها جميع الحكومات عادة ، فقد كانت أولا تيوقراطية ثم اقطاعية ثم أصبحت فى العصر الحربى ملكية استبدادية .

واسطورة الحكومة الأولية للآلهـــة فى وادى النيل تدل على أن السلطة كانت أولا فى هيئة الكهنة ، ثم أن الاعتقاد بأن قوانينهم القديمة كانت منزلة عليهم من السماء جعـــل المصريين يغالون فى احترام اساطير هذه القوانين حتى عدوا ملوكهم خلفاء للآلهة فعبدوهم فى حياتهم وفى مماتهم .

وصلت سلطة الآلهة الذين حكموا مصر الى الكهنة فتكلموا باسمهم وهكذا نشأ الحكم التيوقراطى فى مصر . وظل هذا الحكم طويلا ، فتأثرت به مصر حتى فى عصور الملكيـــة المطلقة ولم يتحرر الفراعنة قط عن نظام الكهنة .

وكانت مصر فى عهد التيوقراطية الأولى مقسمة الى أقاليم صغـــيرة ، وكان لكل اقليم عاصمته وحاكمه ومعبده وآلهته ، وكثيراً ماكانت تقوم منافسات تتحول غالباً الى عداء بين امهات العواصم فى مصر وتدوم فترة عظيمة ، فتتصدع وحدة البلاد وتنفك لحمتها .

ولما وحد مصر مينا ابتدأ عهـــد الاسرات ، إلا أن النظام الاقطاعى ظل سائداً ، وكان الملك تحت هذا النظام الرئيس الأعلى للجيش يهرع الى ندائه أمراء الاقاليم . لأن من واجبهم للملك الخدمة الحربيـــة والقيام باتمـــام الأعمـــال العمومية ، التى يقوم بهـــا رعاياهم .

كان بيد حكام الأقاليم جميع السلطات الادارية والدينية ، فاخذت تقوى شوكتهم على توالى الايام ، واجتهـد كل واحد منهم فى الحصول على كل ما ينمى ثروته ويوسع دائرة نفوذه

وكان من نتائج ذلك ان الفلاحين بعد أن كانوا يعملون للملك مباشرة ويقدمون اليه جميع محصولات الأراضى التى يزرعونها أصبحوا يقدمونها الى حاكم أقليمهم ، فيقدم منهـا الضرائب المطلوبة بعد أن يأخذ منهـا لنفسه كل ما تصل اليه يداه لينمى ثروته ويضعف ثروة الملك أو الحكومة .

استمر الحكام يهتمون بتكوين جيوشهم ليستخدموها فى الدفاع عن أنفسهم ومحاربة ملوكهم عند الحاجة حتى أصبحت الاقاليم شبه ممالك صغيرة مستقلة ، ولكن لم يدم هـذا الحال طويلا ، فانه لم يكد يجلس امنحتب الأول على العرش حتى شرع فى استرداد ما اغتصبه هؤلاء الحكام من أسلافه وجال فى انحاء المملكة واستعمل الشدة المتناهية ، وكبح جماح أغلبهم ووضع حدودا جديدة للاقاليم وبين لكل اقليم ما يخصه من الاطيان والترع جاعلا قاعدة التقسيم التى سار عليها وفقاً لما وجد مدوناً فى السجلات والاوراق القديمة الرسمية .

ولما انقرضت الدولة الوسطى وقامت على أثرها الدولة الحديثة كان الحكم فى أيدى الملك وكبار موظفيه والكهنة وصار الكل متضامنين فى قهر كل سلطة غريبة وطرد العنصر الاجنبى الذى وجد بينهم منذ احتلال الملوك الرعاة للبلاد .

كان العرش فى مصر وِراثياً ، فاذا لم يكن للملك ولد تبوأه ابن الأخ أو ابن العم أو الادنى من ذوى القربى ويشمل هـذا النساء أيضا ، فكن يحملن التاج كالرجال ويحظن بأكبر حظ من التكريم والاحترام .

كان من مهام الملك الادارة العليا للجيش وللقضاء وللاشغال العمومية وكان أيضا رأس الديانة ، يقيم صلاة القداس بالنيابة عن القس الأكبر ويحل محله فى اتمام بعض المراسيم. وقد قال ديودور (لم يكن الملوك يعيشون عيشة حرة كغيرهم من ملوك الامم الاخرى اذ لم يكن فى وسعهم قط أن ينصرفوا حسب أهوائهم ، فكل شيء كان محدوداً بالقوانين لا فى حياتهم العامة فحسب بل فى حياتهم الخاصة كذلك)

كان الوزير (mer nut thati) يلى فرعون فى المنزلة ، وكان يجمع القاباً ووظائف عديدة دلتنا عليها بعض النقوش والرسوم التى وجدت فى مقبرة رخمارا أحد وزراء الاسرة الثامنة عشرة ، كان الوزير ينوب عن الفرعون حال تغيبه فى الغزوات واعمال الفتح ، ويخلفه فى المظاهر الكبرى كرئاسة الاعياد الدينية ، كما كان يشترك مع الملك فى اختصاصات شتى ، واعمال متنوعة ، كمراجعة الاعمال الحسابية التى يقدمها الخبراء وحضور حفلات افتتاح الجسور ، واعمال الرى ، ومواسم الحصاد فى الاقاليم ، ولما كثرت اعمال الوزير فى الاسرة الثامنة عشرة استوجب ذلك وجود وزيرين أحدهما بطيبة فى الجنوب والآخر فى الشمال ليقوم باعمال الدلتا ومصر الوسطى .

ويلى منصب الوزير فى الاحترام عند الملك من يلقب بأمين الدولة وحافظ البيت المزدوج للذهب والفضة ، والمكلف بمراقبة الموارد والمصارف ، وافتقاد مفرداتها ، وتقرير وسائل نموها ، وتوازن الايرادات والمصروفات ، فكان صاحب هذا

المنصب على اتصال دائم مع الملك والوزير ، ويكون منهم شبه مجلس ينظر فى تقرير موارد الثروة والجمارك ، والغلال واعداد مخازن لها ، وتقسيم هذه الاعمال بين من يقومون بها تحت رياسة الامين المذكور .

كانت مصر مقسمة اداريا الى ثلاثة أقسام : الدلتا ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا وكل قسم منها مقسم الى عدة اقاليم كان عددها يختلف بحسب العصور فكانت تارة ستة وثلاثين أقليما وأخرى أربعين وقد وصلت فى أحد العصور الى خمسين ، وقد نقشت اسماؤها فى كثير من المعابد مثل معبد الكلابشة ومعبد جزيرة بلاق والكرنك والعرابة المدفونة .

ويؤخذ عن ديدور أن الملك لم يكن يستطيع أن يحكم مباشرة بلاده الكثيرة فى مصر اذ ذاك ، فكان يولى عليها حكاما من عظماء الجهات تجمعهم رابطة دم الاسرة المالكة ، وهؤلاء الحكام مسئولون عن أقاليمهم ، يتلقون الأوامر من الملك ، وكانت سلطة هؤلاء الحكام تزداد وتضعف وفقاً لقوة وضعف السلطة الملكية ، وكان على العموم الجزء العظيم من اعمال الحكومة متروكا للادارات المحلية ، لذلك لم تكن الحكومة المركزية قوية وكانت الادارات المحلية على استعداد دائم لتسير دون أى اعتماد على السلطة المركزية .

كان يخضع للحاكم مباشرة أربعة مبلغين ، ينقلون اليه التقارير من المدن المختلفة ، كما كان ينوب عن الحكام نواب (qenbti) فى جميع انحاء الأقاليم ، وهم بمثابة نظار يقدمون

تقاريرهم الى الحاكم رأسا ، أما فى المدن فكانت الادارة فى يد محافظ ، ينظر فى صالح المدينـــة ، وكان هنالك كتاب يدونون مســـاحات الاراضى ومقدار ضرائبهـــا ، وقاض رئيسى ، ورئيس للبوليس .

أما الجيش فكان نفوذه عظيما فى العصر الحديث ، فكان له شيء من الاستقلال الذاتى ، وكان يرأسه أفراد (تنو) يجمعون بين وظيفتى رئيس القواد والأمين الأول للجيش ، وكانت هذه الوظيفة أكبر أنواعها فى سلسلة الوظائف العسكرية المصرية ، يصبح من يتقلدها من كبار العظماء .

وكان الكهنة طبقات لكل منها رئيس يدعى كبير الكهنة أو النبي الأول ، وله سلطة على الباقين تشـــابه سلطة الوزير فى الادارة المدنية ، وتتفاوت منزلته وفقا لمكانة الآله الموقوفة له الاطيان القائم بادارتها ، ومن بين أولئك الرؤساء رئيس كهنة اوزوريس ومركزه ايدوس ، ورئيس كهنة رع ومركزه هليوبوليس ، وكان لهما نفوذ عظيم فى الدولة ،وكان لكل عاصمة مدرستها الكهنوتية والسلطة فيها درجات رئيسها المطلق هو كبير الكهنة ، يشرف على ادارة الاملاك الدينية ويحصل على الدخل وينفقه فى لوازم العبادة ويليـــه الآباء الآلهيون والمطهرون والموسيقيون والمنشدون وحملة البخور .

كثيرا من المناصب التى ذكرناها كانت تجتمع فى شـــخص واحد ، فكانت تقرن باسمه القاب عديدة ، الا أن اغلبها كانت تمنح لذويها كعناوين شرف وافتخار ، تقديرا لمكانتهم ووسيلة

لشهرتهم ومكافأة لخدمات جليلة أدوها ، ولما كانوا اصحاب اقطاعات فى العصور القديمة ، لذلك يصعب التمييز بين ما يكون قد منح من هذه الالقاب منحاً حقيقياً فعلياً له أثره فى الهيئة الحكومية ، وبين ما يكون قد منح للاعتبار والشرف والافتخار .

كانت ايرادات الدولة تتكون من اصناف المحاصيل والزراعات ، بتقدير القيم لأنواعها ، فتدخر بالمخازن الخاصة بها لتصرف حسب اقتضاء الأحوال ، ولم تقدر هذه الايرادات بكميات قطعية مضطردة فى كل عام ، بل كانت تقدر بنسبة المحاصيل المرتبطة بأحوال النيل وفيضانه ، فالسنوات التى يكون فيها مستكمل الفيض ، تعتبر من سنوات السعة والرغد ، وعلى هذا الاساس ترد الى خزائن الحكومة المقادير النسبية من المحاصيل وغيرها . فكانوا يقدرون حالة النيل مقدما فى كل سنة ، ويجعلون لها حكمها فى الريع والصرف .

فالحكومة فى تقديراتها المالية والسير على هذا الترتيب كانت تراعى منتهى العدالة ، وتجتنب ارهاق الاهالى ، وتبعث المندوبين لمعاينة الأراضى ، فمن يستحق الضريبة قررتها عليه ، ومن يستحق الاعفاء لا تطلب منه شيئاً .

ويستعان فى ذلك بعمال التعداد لاحصاء المزارعين والصناع والأراضى الزراعية ، والمواشى الكبيرة والصغيرة ويقرر ربط الضرائب على مقتضى هذا الاحصاء للأنفس والحاصلات .

لا يجوز أن نتحدث عن الضرائب ونهمل الملكية العقارية التى كان لطبيعة مصر شأن عظيم فى تكوينها ، فقد كانت فى أول

الأمر على هيئة النظام الاقطاعى، القائم على السلطة الزمنية والروحية théocratique وفقاً للعقيدة الدينية.

فلما توحدت البلاد حل الملك محل الحكام فى حقوقه المطلقة على الأراضى التى يحكمها، فكان أغلب الشعب فى خدمة الملك من فلاحين وكهنة ونبلاء، وكان الملك يحصل على موارده مما يدفعه الفلاحون عيناً، وكان هؤلاء ملزمين أيضا بضيافة رسل الملك وجنوده، ولكن النظام الاقطاعى ظل محتفظا بوجوده خلال النظام الملكى، فقد كان الملك يقتطع الاراضى ويمنحها للحكام، وكان لهؤلاء كما للملك السلطة المدنية والدينية، كان كل منهم حاكما ورئيسا دينيا، يطيع الأوامر، ويرفع الضرائب ويزرع جزءا من أرضه ويؤجر الجزء الآخر، له جيش صغير تحت امرته ولكنه فى نفس الوقت كان ملزما بواجبات نحو الملك، يدفع له ضريبة ويساعده حربياً، ويقدم له الرجال للاعمال العمومية، وللمبانى الملكية.

وعلى توالى الزمن اكتسب الفلاحون واولادهم حق ملكيتهم للأرض عملياً لا نظرياً، ثم سار هذا النظام فى طريقه الطبيعى الذى انتهى بحلول الملكية الفردية محل ملكية الاسرة.

الحالة الاقتصادية

كانت الزراعة ولا تزال الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم، ولذلك كانوا يشرفون بأنفسهم على الزراع ويعملون بأيديهم كل ما يؤدى الى طيب الزرع وخصب التربة.

ولم تكن طرق الزراعة تختلف كثيراً عما هى عليه الآن ، وكان أهم ما يزرع القمح ثم الكتان والذرة وبعض الحبوب الاخرى ، وكانوا يعنون بالحدائق والبساتين .

وكان المصريون يحسنون كثيراً من الصناعات مثل صناعة نسج الكتان وصناعة الأنسجة والخزف والزجاج وسبك المعادن من النحاس والبرنز والفضة والذهب ، وقد برع المصريون بنوع خاص فى صناعة النجارة وبناء السفن والقوارب .

وقد تعود المصريون التجارة من أقدم أزمانهم ، فكان النيل والترع فى عهد الامبراطورية القديمة غاصة بالقوارب والصنادل والزوارق التى تحمل الحاصلات المختلفة الى خزائن فرعون أو الى الاسواق الخاصة بها ، وكانت المقايضة وسيلة التبادل ، فلم يعرفوا استعمال النقود فى بادىء الأمر ، بل كانوا يستبدلون بعض السلع ببعض ، ثم اتخذوا من الذهب والنحاس حلقات وسبائك وقضباناً يتعاملون بها فى تبادل الأشياء الكبيرة ، وكانت الفضة نادرة ، لذلك كانت أثمن من الذهب ، فكانت هذه العملة أول نوع استعمله الانسان من النقود .

وما زالت تجارتهم فى نمو حتى سلكوا البحار ، ونظموا سير القوافل ، ووصلوا النيل بالبحر الأحمر ، وبعثوا البعوث البحرية للاستكشاف عن البلاد المجهولة ، حتى صارت سفنهم تسلك البحار من المحيط الهندى حتى بحر ايجه . كانوا يجلبون من النوبة والسودان الذهب وريش النعام والابنوس والعاج والجلود ، ومن بلاد بنت وما وراءها المر وانواع الصموغ

العطرية والاخشاب ذات الرائحة الذكية . ومن الشـــام خشب الارز ومن طورسينا المعادن وبعض الاحجار الكريمة .

ويحملون الى الممالك المجاورة لهـــم مصنوعاتهم من خزف وزجاج وكتان وورق ، وقد وجدت آثارها فى جزيرتى قبرص ورودس ، وارتقوا فى التجارة الى استنباط طرق مسك الدفاتر وضبط المحاسبات ، وكتابة العقود والمشارطات والايصالات والصكوك ، وغير ذلك من ضروريات التجارة الراقية ، وكان لكل نبيل هيئة مكونة من الكتبة والسكرتيريين ، وكان تبادل الخطابات والمستندات الادارية بينه وبين زملائه لا ينقطع .

وفى عهد الملك زوسر فى الاسرة الرابعة فتحت التجارة مع الشمال ، فارسل اسطولا تجارياً مكوناً من أربعين سفينة الى سواحل فينيقيا للحصول على خشب الارز ، وكانت هذه أول بعثة تجارية الى اعالى البحار ، ولم تنته الامبراطورية القديمة حتى كانت التجارة ممتـــدة من مدخل المحيـــط الهندى جنوباً والى غابات سوريا وجزائر اليونان شمالا .

وفى عهد امنحتب الثالث اتسعت التجارة بين مصر والشرق بطريق البحر الاحمر وبواسطة قوافل سيناء ، وبينها وبين ممالك البحر الابيض والمتوســـط ، فكانت سفن الصومال والبنت تحمل اليها الاخشاب والعاج والافاوية والطيوب وكانت القصير (ليكوس) والسويس ودميـــاط (تامهيت) موانىء عامرة تزدحم على ارصفتها انواع المتاجر ، لاسيما دمياط التى كانت أكبر فرضة مصرية على البحر الابيض ، حيث ترسو السفن الفينيقية

واليونانية وسفن قبرص ورودس وسائر جزر الارخبيل جالبة حاصلات بلادها من فاكهة وآنية ومعادن .

وفى عهـــد رمسيس زاد الاهتمام بتجـارة مصر ، وعلى الخصوص بعد أن انتهى رمسيس من حروبه ، وكان أول ملك مصرى شعر بأهميـــة القوة البحرية لمصر ، فاستخدم اسطولا تجاريا عظيما بين مصر وسواحل فينيفيا ، واسطولا آخر للبحر الاحمـــر ، وكانت بعض سفنه مختصة بنقل النحاس من مناجم سيناء ، والبعض لاستجلاب محاصيل بنت وجنوب بلاد العرب الى ميناء القصـــير ، حيث تفرغ ثم تنقل على ظهور الدواب الى مدينـــة قفط على النيل ، ومنها كانت القوافل تحملهـــا الى الغرب والجنوب .

الدين

يعتـــبر الدين أهم عناصر الحضـارة المصرية ولم يخطىء هيرودوت حينما قال « المصريون قوم يخافون الله أكثر من أى شعب آخر » ولا غرو فى أنه لم يكن هناك أقوى من الدين فى حياة المصرى القديم ، لقد شمل تأثيره جميع نواحى النشاط حيث غذى خيال الانسان بما قدمه من صـــور عن العـالم ، وحكمه بالمخاوف التى أوجدها ، وكان مرشداً لتصرفاته ، وتقويماً لزمنه بمـا نظمه من أعياد ، وكذلك أوجدت تقاليـــد الدين التعليم وكانت الدافع نحو التطور التدريجى للفن والأدب والعلم .

من الراجح أن عبادة الأسـلاف كانت أول مظاهر الدين

عنـــد قدماء المصريين ، وعندما ارتقى التفكير المصرى مسح على هذه العبادة شـــكلا روحيا ـ كانت عبادة المومياء شائعة فى مصر سواء كانت لقريب مات منذ زمن أو للملك بعيد القدم لذلك كان الآله غالباً هو الملك الميت ، والملك هو الآله الحى ، وقد ظل المصريون يحتفظون بأجساد موتاهم ويعبدونها تحت عناية الكهنة ، متخذين لذلك مراسيم مختلفة لا حصر لها .

والصبغة الأساسية لسواد الآلهة المصرية أنها كانت آلهة محليـــة بحتة ، فكل مديرية وكل مدينة كان لها آلهتها . وأهمية الآله تتبع أهمية المدينة التى يعبد فيها .

كانت الآلهة فى الغالب تكون ثالوثا (زوج وزوجة وولد) فاذا مات الاثنان الأولان بقى الثالث واتخذ له من المعبودات الأخرى زوجة وأنتج منهـــا ولداً وهلم جرا ، وبذلك صارت سلطة الآله متنقلة من معبود الى آخر حتى لا تضيع ، وعلى كثير من الآثار عبارة صريحة تدل على ذلك وهى « هو يخلق أعضاءه وكل عضو منها آله » وبهذه الطريقة كثر عدد الآلهة .

وللآلهـــة مراتب بعضها فوق بعض . وكان المفترض أنها تعمل أحياناً معاً تبعاً للظروف واختصاصاتها ، فكان الناس يدعونها معاً أو يخلطون بين أسمائها ، غـــير أنه لم تكن كثرة الآلهة دليلا على أنها كانت موضع عبادة من الجميـــع ، لأنه لم يكن لكثير منهـــا وجود إلا فى الأساطير ، كان المصريون يعتقدون بقلة الفروق بين البشرية والألوهية ، لذلك كانت بشرية جميع الآلهة من الأمور العادية جداً عند الكهنة والشعب .

كانت مهمـــة كل معبود من المعبودات المحليـة تنحصر فى الأصل فى حماية بلدته ، فلا سلطان له خارج حدودها ، بيد أننا نجد أن طائفة كبيرة من هذه المعبودات كان لهـا مزايا خاصة ما لبثت أن مدت نفوذها وراء مناطقها ، مثال ذلك أن آمون آله طيبة كان أيضاً آله الخصب والنماء فى مصر كلها . والمعبود « من » آله قفط كان من مميزاته حماية أسراب الماشـيـة والسبل والقوافل وكذلك المعبودة « سخمت » آلهـــة منف تعتبر آلهة الحرب التى تنـكل بالعدو وتسحقه ، والآلهة « هاتور » معبودة « دندره » كانت تمثل آلهة الحب والفرح .

وفى كثير من الأحيان عزيت لهذه الآلهة المحلية علاقات بقوى الطبيعة وبخاصة الأجرام السماوية ، فالمعبود تحوت آله الأشمونيين كان يعتـــبر آله القمر وكان الاعتقاد السائد إنه هو الذى حدد فصول السنة ووضع نظام الطبيعة ، ولهـــذا أعتبر أيضـــاً مخترع الكتابة واللغـة وخالق المواقيت والمقاييس وآله العلم والعرفان

وهناك ظاهرة لها أهميتها فى الديانة المصرية القديمة وهى أن أغلب حيوانات مصر كانت مقدسة بالنسبة لـكل آله ، وكان الحيوان المختار كرمز ، يمتاز ببعض مظاهر وظيفة الآله أو يشبهه . فـكان الصقر رمزاً لآلهة الشمس وكانت البقرة مقدسة للآلهة هاتور والقط للآله باست والضفدع للآله هكت . وكانت الآلهة تمثل أحياناً بالأجسام البشرية ورأس حيوانها المقدس ، وتمثـل أحيانا بالحيوان كلـــه . وقد نشأ هذا التقديس عن العقيدة

الطوطمية التي سادت جميـــع عصور ما قبل التاريخ فرغم أن كثيراً من المدن كانت تقوم بعبادة الاسلاف ، إلا أنها ظلت تعتقد فى انتســـابها الى أحد الحيوانات كالصقر أو العقرب ، فكانت فى أول الأمر تستأنس وتدلل وتحترم هذه الحيوانات لتضحيها على قبور اسلافها ، ثم تطورت مكانة هذه الحيوانات بسبب فوضى الأفكار وانتقلت من التقديس الى التأليه ، حتى أصبحت تشارك أرواح الأسلاف والآلهـــة الناشئة عنهم فى العبادات المقدسة التي تؤدى اليهم .

وكان هناك نوع ثالث من المخلوقات المقدسة أو شبه المقدسة ، وهى آلهة العناصر ، أى آلهة الطبيعة واهم هذه الآلهة الشمس « رع » ومنها شو وتفنت ونوت وسب ، إلا أنه لم يكن لها دور مهم فى عبادة الشعب ، غير أنها لعبت دوراً عظيما فى جميع الأساطير المتعلقة بخلق العالم .

وتتلخص أسطورة المصريين عن نشوء العالم فى أن الكون كان فى أول الأمر لجة من المياه يحيط بها الظلام وكانت الشمس مختفية فى وسطها . ثم ظهرت الشمس فخرجت الأرض والسماء من الماء مختلطين بعضهما ببعض وممتدة أحدهما على الأخرى ، فكان رع الآله الأول وقد صدرت منه أشارة فتولد عنها زوج من الآلهة وهما شو وتفنوت فدخلا فيما بين الأرض والسماء وفتقا رتقهما ثم رفعا السماء على أذرعهما وأبقاها معلقة فى الفراغ وبذلك ظهر زوج ثان من الآلهة وهما سيبو أى الأرض ونوت أى السماء .

وكانت الدنيا التي أوجدها هؤلاء الآلهة الخمسة أشبه بصندوق رباعي الشكل يكتنفه المساء ، قاعدته الأرض وغطاؤه السماء وجدرانه الجبال الشامخة التي تتكيء عليها السماء . ويجري نهر عظيم على طول هذه الجدران تحت السقف السماوي بقليل ويتراءى هذا النهر للأبصار في جهة الجنوب ثم يسيل فيما بين الجبال وينساب في مجرى طويل تحت الأرض ويسبح فيه على الدوام زورق فيه الشمس ويخرج هذا الزورق في كل صباح من المشرق إلى الجنوب وترسل الشمس الأنوار إلى مصر ، وتدخل كل مساء في الجبل من جهة الغرب ، ثم تولد من الأرض والسماء أربعة آلهة أولها أوزوريس وأيزيس ، أتما تكوين العالم وجاءا بالحضارة والمدنية وثانيهما ست ونفتيس ، أتيا بالشر والموت .

كان المصريون يرون الحياة بعد الموت أهم بكثير من الحياة الدنيوية ، حتى أنهم كانوا يقومون بمعدات لا حصر لها نحو أمواتهم ، مشيدين لذلك مقابر خالدة على غرار مساكنهم حيث تقضي المومياء الجزء الأعظم من وجودها ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن لكل انسان قرينا (كا) فاذا مات يخلفه قرينه في حياته . وكان القبر يدعى قديما بيت القرين ، فاذا انفصلت الروح عن الجسد تلحق باوزوريس تحت الأرض حيث تغيب الشمس كل يوم . هناك يتصدر أوزوريس في محكمته وقد أحاط به الآلهة ، فيؤتى بالروح أمامهم ، تحاسب عما اقترفته في الحياة ، وتوزن اعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب ،

فالنفس الشريرة تعذب قرونا ثم تهلك والنفس الطيبـــة تطير احقابا ، وبعد محن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتفنى فيهم .

وتستطيع الروح فى خلال هـــذه المدة الدخول فى الجسد لتستريح ، ولذا اقتضى أن يظل الجسم سليما ، ومن أجل ذلك كان التحنيط ، وكانت التماثيل الكثيرة المملوء بهـا القبر ، حتى أنه فى حالة فناء المومياء يمكن الروح أن تجد مأوى فيها .

وكان يوضع بجانب المومياء كتاب الموتى ، وهـــو أعظم وأول كتاب عرفه التاريخ ويحوى على ما ينبغي للروح أن تقوله فى العـالم الثانى دفاعا عن نفسها أمام محكمة أوزوريس . إلا أن ترجمة هذا الكتاب من الصعوبة بمكان ، والفقرات التى ترجمت بدقة منه على درجة رائعة من الجمال اذا قورنت بأقوال الاديان الاخرى . ولـكن الجزء الكبير من الكتاب مبهم ، والقليل الذى تمكنا من معرفته عن نفسية المصريين الدينية يعتبر اشوق جانب فى دراســة الديانة المصرية ، ومع ذلك فليس فيـــه الكفاية لمن يريد تنسيقه تحت نظام محدود .

قلنا أن الأموات كانت تحت حماية اوزوريس ولـكن سلطته لم تكن مطلقة فى أول الأمر ، فقد كان كوكاريس آله الموتى بمنفيس وروب ـ وات باسيوط، إلا أنهذه الآلهة أخذت تفسح مكانها لأوزوريس على توالى الزمن .

كان أوزوريس أعظم الآلهة على الاطلاق ، وكانت ديانته عامة فى وادى النيـل ، وقد كان على الارجح ملكا قديماً جـداً تحول الى آله محلى ببـلدة نيس أو تينيس ولما كان مينا ينتسب

لهـــذه المدينة فان حكمه لم يقتصر على توحيد مصر فحسب بل على توحيـــد آلهتها أيضاً . وبعبارة أخرى عظم اوزوريس بارتقاء مينا ، وتتلخص أهم أسطورة عنه ، والتي كان يعتقد بها أغلب المصريون ، أنه كان متزوجا باختـــه ايزيس وحاكما على وادى النيل ، أوجد جميع الاختراعات التي جعلت الانسان قادرا على احتمال الحيـــاة . نظم حقوق الملكية ورتب العائلة ووضع الشرائع وعلم فنون الصناعة والزراعة ، ثم قتله أخوه سيت أو تيفون كما سماه الاغريق ، وقطع جثته الى اشـــلاء القاها بانحاء مصر المختلفة ، فجمعتها ايزيس وحنطتها فكانت أول مومياء ، ثم تولى سيت مكانه ، ولكن لم يمض عليه سنون قليلة حتى هاجمه ابن أخيه هورس واضطره لأن يتنازل له عن أرض الدلتا وان يبقى لنفسه الوادى الكائن فيما بين ضواحى منف ومدينة اسوان ، ومن ذلك الوقت لم يبق العالم دولة واحـــدة ، ولما انقسمت مصر الى مملكتين بارحها أولياء سيت واشياعه وانتشروا فى البلاد المحيطة بها ، ثم حكم بعد هورس عائلتان آلهيتان من طبقة ثانية ، وبعد ذلك صعد الآله الى السماء وقام الناس مقامهم فى ولاية الأحكام ، فجاء مينـــا وأسس أول دولة بشرية .

وفى قصة اوزوريس وايزيس تفسير لكثير من مظاهر الحيـــاة كما تصورها قدماء المصريين ، فاوزوريس هو آله العالم الأخروى الاســـفل وآله المحصول والنهر الواهب الحياة والخصب ، يرمز فى موته وبعثه الى الزرع الذى تدفن بذرته

فى الأرض ثم تنمو وتحصد، ويفسرون تقطيع جسم اوزوريس ودفن أجزائه فى انحاء البلاد يبعثرة الحبوب وزرعها فى التربة ، أما ست آله الظلام فيرمز أيضـــا الى الصحراء القاحلة عدوة الخصب والنماء، وصراعه مع ايزيس هو الصراع بين الخير والشر.

والآن بعـــد أن ألممنا بنشوء وتطور الديانة المصرية نلقى بنظرة سريعة على الصلة العظيمة التى كانت بينها وبين السياسية .

كان رع آلها محليا بعين شمس فلمـا اتحدت مصر سياسياً ، أصبح رع أعظم الآلهـــة وظل ملقبا فى اثناء الاسر الست القديمة « بأبى الآلهة جميعا » وفى الاسرة الرابعة وصل الى درجة عظيمة من الاهمية والنفوذ أصبح معها ملوك الاسرة الرابعة ينسبون أنفسهم اليـــه ، كما يتجلى ذلك فى اسمائهم مثل خفرع ومنقرع وذلك بالطبع اشارة الى الطبقة الآلهية التى كان يتمتع بهـا ملوك مصر .

وظل نفوذ رع عظيما فى الاسرة الخامسة ثم سادت الفوضى بعد الاسرة السادســـة وخرج امراء الأقاليم على سلطة الملك ، واستقلوا بالشأن فى اقاليمهم ، مما أثر فى مركز رع . واستمر الحال على ذلك حتى الأسرة الحادية عشرة ، التى أصبح فيهـا امراء طيبة ملوكا لمصر ، فصار آمون آله طيبة المحلى أقوى آلهة مصر واكثرهم مجداً ، وظلت عظمته فى ازدياد حتى تولى الملك فى عهد الاسرة الثامنة عشر امنحتب الرابع .

كان امنحتب الرابع شـــديد الولع بالمسـائل الفلسفية والدينية ، أراد أن يعتنق المصريون دينا واحـــدا وآلها واحدا

غير الشمس ، وهو ماوراء الشمس من قوة هائلة مختفية عن الانظار ، إلا أن الدافع الحقيقي الذى جعل امنحتب الرابع يقوم بتلك الثورة الدينية هو رغبته فى التخلص من نفوذ كهنة آمون الذى أخذ يطغى على نفوذ الفراعنة ، حتى أصبحت الأموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تؤثر فى الايراد الذى يجبى لخزانة الدولة .

يضاف الى ذلك أن صيرورة مصر امبراطورية يمتد حكمها الى شعوب مختلفة لا يلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات بل الذى يلائمها ويوحد بينها جميعاً هو ان يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد ، ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير القوة التى وراء الشمس والتى يصدر عنها النور والحرارة والحياة الى جميع أنحاء العالم فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعاً .

حاول امنحتب أن يقطع كل صلة تربطه بالعبادة القديمة فغير اسمه من امنحتب الى اخناتون ، ومسح اسم أبيه من المعابد المصرية حتى لايرى كلمة آمون على جدرانها ، كما أنه جعل يكافىء كل من اتبع دينه من ضباط الجيش وموظفى الحكومة بشتى الهدايا ويخلع عليهم أرفع الرتب .

فشلت الثورة الدينية التى قام بها اخناتون فى نهاية الأمر لسياسة العنف والشدة التى اتبعها ولم تكن العقول مستعدة لقبولها ، كما أن هذه الثورة لم ترتكز إلا على شخص الملك . وعلى ذلك فلم تذهب سدآ ، فقدكان لها أثر كبير فى نبذ القديم

فى الدين ، وتوخى الحرية فى الاعتقاد ، مما ساعد على عودة أهمية رع ولو أنه كان أقل شـــأنا من آمون ، فظهر اسمه بجانب اسم آمون باعتبارهما آله واحد (آمون ـ رع) إلا أن اسم رع كان يتبع اسم آمون لا يسبقه .

وفى أواخر عهد الدولة الحديثة ، حينما كانت البلاد المصرية على اتصـــال بغربى آسيا ، دخل البلاد طائفة كبيرة من الآلهة الأجنبية وقد وجدوا مكاناً سهلا وصدراً رحباً من الاجانب الذين كانوا يقطنون مصر إذ ذاك بل من المصريين أنفســـهم أيضـاً ، ومن أهم هذه الآلهة بعل الذى اعتبر محل ست ، وعبد فى شكل الحيوان الهائل الذى يمثل ذلك المعبود . وعندما اخذت عرا المودة بين مصر وسوريا وفلسطين فى الانحلال تدريجياً ، تدهورت عبادة الآله ست لأنه كان ولى الاسيويين واعتبره المصريون حامى أعدائهم ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أخذت الكهنة تصور بشكل بارز الدور المعزو اليه فى قصة اوزوريس واصبح يعتبر فى نظرهم أساس كل شر ، فانه هـــو الذى ذبح اوزوريس واشترك فى نضال عنيف مع هورس المنتقم لأبيه ومن ثم أصبح خصم آله الشمس ، وممثـــل الظلام ، ورب القحط والصحراء والمهلك لكل شىء حي ، وكذلك صار عدواً لكل خير وشيطاناً بين الآلهـــة المصرية ، ثم انتهى الامر باخراجه من بين المعبودات المصرية ، فبطلت عبادته ومحى اسمه وصورته أينما وجدا .

وكان ابعاد ست من بين المعبودات المصرية آخر مظهـــر

من مظاهر التحمس عند قدماء المصريين للمحافظة على ديانتهم التى كانت وقتئذ فى النزع الاخير ، اذ بانحطاط شأن طيبة حاضرة البلاد تدريجاً بعد طرد ملوك النوبة أخذت شهرة آمون تتلاشى باستمرار ، ثم انتقل مقر الملك الى الشمال وتحول معه كذلك محور سياسة البلاد فنتج عن ذلك أن آلهة الدلتا المحلية ، امثال المعبودة (نيت) آلهة صا الحجر (وباستت) معبودة بوبسطة والمعبود (انوبيس) وبخاصة الآله اوزوريس واسرته كل هؤلاء اخذت تعظم مكانتهم ويكبر شأنهم باستمرار .

ان ما ذكرناه عن ديانة قدماء المصريين يوحى الى القارىء بأنهم لم يعرفوا التوحيد قط ، والحقيقة أنهم اعتقدوا أن هناك آلها واحدا عظيما ولكنهم عجزوا عن وصفه ، أو عن تعيين مكانه ، وذلك لأن العقل الانسانى لم يكن يستطيع التفكير فى أى شىء مجرداً عن فكرة الزمان والمكان ، ولذلك كانت فكرة الآلهة المحلية وآلهة العناصر ملائمة لطبيعة العقل الانسانى .

تثبت أغلب النصوص الدينية التى وصلتنا من مصر القديمة أنه كان للمصريين فكرة سامية عن الله ، وقد اطلقوا عليه كلمة نيتر ، وكانت هذه الكلمة تعبر عن نفس الفكرة التى تقول بها أديان التوحيد ، كانت تعبر عن القوة التى تسير كل شىء ، لقد كانت فكرتهم خالية من أى تجسيد انسانى لله .

والواقع أن المصريين ابتدأوا منذ عصر الاسرات يكونون فكرة ضعيفة عن خالق عظيم هو الذى سموه على الارجح (بوتى) والذى كان يختلف اختلافاً عظيما عن الآلهة المحلية

وعن كل المخلوقات التى اعتبرت آلهة ، اعتقدوا أنه قادر ، خالد عادل ، بار ، ولكنهم شعروا أنه عظيم جداً وعلى مدى بعيد من هـــذا العالم لدرجة يضعف بجانبها اهتمامه باقدار الناس . لذلك كان الوصول اليـــه ميسوراً بمعونة آلهة القرية أو القبيلة لأنها كانت صديقة الناس واقرب منهم الى الآله العظيم .

وفى كثير من أناشـــيد المصريين الدينية أقوال صريحة تبرهن على توحيدهم فمنها ضمن نشـــيد للآله رع « أنت الآله الواحد الذى وجد منذ الخليقـــة » و « أنت الواحد الأحد » وضمن نشـــيد لآمون رع « أيها الواحد خالق كل شيء » ، و « يا كبير الآلهة الواحد الأحد الذى لا ثانى له » و « الملك الواحد بين الآلهة » ومنها « هو الموجد لكل ما يكون اما ما لم يكن فهو فى مكنون علمه » ومنها « الازلى الذى لا حد له » ومنها « لا تدركه الابصار سميع لمن يتضرع اليه » .

ولو أن مصر ظلت بعيدة عن الانقسامات الداخلية ودخول العناصر الأجنبية لبلغت الوحدانية فيهـا ما بلغته فى الأديان الجديدة الناشئة ، ولكن الدين كان فى مصر مرتبطا بالسياسة فلما ضعفت الوحدة السياسية ، ضعفت الآلهة وكثرت السحرة وحلت الخرافات محل الدين ، ولكن العقيدة المصرية التى كونتها آلاف السنين لم تذهب سدآ ، فقد انتقل هذا التراث الى الديانة اليهودية ومنها الى باقى الأديان .

كانت ديانة الاسرائيليين الأصليـة خليطاً من الوثنية تشمل عدة أشكال من الآلهـــة وتعتمد كباقى الأديان على عبادة

الأســـلاف العائلية والعشيرية . كان بعض الآلهة على شكل حيوانات والبعض يشبه قليلا أو كثيراً الانسان ، ولكن الأغلبية كانت تعبد فى صـــورة أحجار واشجار ومخروطات خشبية مقدسة ، ومعظم هـذه الآلهة سامية الشكل مألوفة لبنى اسرائيل وجيرانهم وأقربائهم . وكانت عبـــادة الاسرائيليين فى أول الأمر تشبه عبادة قدماء المصريين إلا أنها أخذت تتغير شيئاً فشيئاً فلمـــا طردوا من مصر (١) أدى ذلك إلى تفضيل بعض الآلهة على البعض الآخر . واختص الاسرائليون أخيراً بيهوذا أحد هذه الآلهة وأصبح آلههم الجنسى .

ولما كان اليهود قبائل رحالة كثر انتقالها بين مصر وبابل واستمدوا عقيدتهم من هاتين المملكتين ، إضطروا الى إيجاد وسيلة لوحدتهم ، فتكون مع الزمن أدبهم الممثل فى التوراة والذى كان طريقاً لاتحادهم وسبيلا لوجودهم السياسى ، لذلك كان التوراة هو الذى كون اليهـــود ، لا اليهود هم الذين كونوه .

كان بالتوراة أفكار تختلف عن افكار المعتقدين به ، أفكار ترمى الى القوة والمعونه . كتب على اليهود التعلق بها .

وكان للثقافة المصرية أكبر نصيب فى تكييف ثقافـــة العبرانيين الممثـــلة فى التوراة والتى ابتدأت تتكون منذ أن استقر يوســـف بمصر فتزوج بنت بوتوفيرة رئيس كهنـــة

---

(١) أثبتت نتائج بعثة جارستنج للتنقيب بفلسطين (سنة ١٩٣٢ م) أن اليهود رحلوا من مصر برئاسة موسى فى عهد أمنيوفيس الثانى (سنة ١٤٤٧ - سنة ١٤٢٠ ق.م)

هيليوبوليس ، ومن المعروف أن الجزء الأوفر من أدبيات المصريين الدينية نشأ فى هذه المدينة فاستطاع اليهود أن يستمدوا كثيراً من تعاليمهم من ديانة قدماء المصريين . فالعجل الذهبي الذى عبده اليهود باعتباره يمثل يا هوذا كان أصله عجل أبيس الذى كان يعبده المصريون . وفكرة الشيطان « سيت المصرى » هى فكرة مصرية لأن الرب سيت كان عدو الرب « هورس » والظاهر أن العبرانيين أخذوا اللفظ بتحريف طفيف كما أخذوا المعنى ، أما أغلب عقيدة اليهود فقد استمدوها من عقيدة إخناتون الذى عاصروه ، كان إخناتون أول من قال بأن آتون هو الخالق والمنظم والحاكم للعالم أجمع لا مصر وحدها ، ويشبه آتون آله العبرانيين شبهاً عجيباً وكثير من عبارات التوراه وجدت فى آثار إخناتون أى صلواته معنى وحرفاً .

ويزعم ويجال أن إخناتون هو الذى كتب مزمور ١٠٤ فى التوراه ، وهو فى مجمله ينطبق كل الانطباق على الفلسفة الدينية عند هذا الملك ، ففى هذا المزمور كما فى رأى إخناتون ان الله محبة ، ثم يزعم ويجال أيضاً أن هذا الملك حرم صناعة التماثيل والتعبد لها .

ويمكن رد كثير من الفكرات التى تضمنها التوراة إلى أصولها المصرية القديمة ، ولا يقتصر الأمر على الفكرة فقط ولكن أسلوب التعبير عنها أيضاً مأخوذ من قدماء المصريين ، وحديثا اكتشف العلماء أن كتاب أمينيموب فى فلسفة الأخلاق هو الأصل الذى نقل عنه جزء كامل من سفر الأمثال ،

وقد وجدوا أن النقل فى بعض الاحوال يكاد يكون حرفياً ، كذلك اكتشف المسيو ليففر سنة ١٩٢٠ م . معبداً للآله توت فى منطقة هرموبوليس تحتوى نقوشه الهيروغليفية على أمثال لها شبه عجيب بأمثال سليمان الحكيم وهي تشبه من جهة أخرى أمثال قا قمنه وفتاح حتب وآنى .

كذلك أثبت إليوت سميث أن قصة الطوفان المذكورة فى التوراة لها شبيه بما وجد فى مقبرة سيتى الأول من نقوش تروى كيف هلك البشر ليعدوا أكسير الحياة للملك حتى يصل إلى الخلود وسبب هلاكهم هى خطاياهم وعصيانهم ، ثم اختلطت قصة ذبح البشر مع قصة فيضان النيل ، وشبهوا إحمرار مياه الفيضان بدماء القتلى ، وانتشرت عناصر القصة إلى البلاد الأجنبية ودخلها خلط ومزج ، فأصبح هلاك البشر سببه فيضان الماء ، كما أن إثم العصيان الذى أهلك البشر أصبح المبدأ الذى يسميه اللاهوتيون (بالخطيئة الأصلية) وتظهر هذه الفكرة بشكل آخر فى سفر التكوين من التوراة .

والسفينة المقدسة الجديدة التى ذكرها موسى ليست إلا نموذجاً من السفن المصرية التي نجدها بالمقصورة التى كان يحفظ فيها تمثال الآله ، فالسفن التى استعملها بنو إسرائيل للعبادة فى الصحراء هى تلك السفن المقدسة التى كانت تستعمل فى النيل عند قدماء المصريين .

ومن الأشياء التى حرمها المصريون بدافع الدين ، الخنزير فكان فى نظرهم نجساً وكان من قوانينهم الا يختلط رعاة

الخنازير بالناس أو يتعاملوا معهم ، وانتقلت هـذه العقيدة إلى الاسرائيليين فاعتبروا الخنزير حيوانا نجساً وحرموا أكل لحمه .

كذلك استعمل اليهود التحنيط كما استعمله المصريون وقد ذكر التوراة أن يوسف حنط جثة أبيه يعقوب . وكان المصريون يحتقرون فئة المحنطين فقلدهم اليهود واعتبروا أن من يغسل ميتاً يصبح نجساً سبعة أيام لا يصلى فيها .

إذا انتقلنا من تعاليم الدين الى أمكنة العبادة وجدنا أن معابد الاسرائيليين لم تختلف عن معابد المصريين فقد قسمت مثلها الى ثلاثة أقسام المذبح والمحراب والمكان المقدس .

كانت المخيلة المصرية هى الاولى التي صورت الجنة والجحيم فى العالم الآخر ، وهم أول من قال بالبعث والنشور والثواب والعقاب ، وأول من اعتقد بالتوحيد وبخلود النفس وبعقيدة التقمص ، فانتقل هذا التراث الى موسى وبوذا وافلاطون وغيرهم من الانبياء والفلاسفة .

التشريع والقانون

من الميسور تصور الأفكار التشريعية لقدماء المصريين خلال عقيدتهم الدينية . اعتقد المصريون أن الانسان يظهر بعد الموت أمام محكمة اوزوريس لمحاسبته عما فعل من الحسنات واقترف من السيئات ليلقى الجزاء العادل ، فيقف الميت على باب قاعة العدل ثم يسجد أمام اوزوريس ويحييه ويتلو دعاء

محفوظاً يبرىء فيه نفسه من اثنين واربعين خطيئة قائلا : « أتيت إليك يا إلهى متحليا بالحق متخليا عن كل خطيئة ، فانى لم أظلم أحداً ، ولم أسلك طريق الشر ، ولم احنث فى يمين ، ولم أشته امرأة قريبى ولا مال غيرى ، ولم أكذب قط ، ولم أخالف الأوامر الآلهية ، ولم اسع فى ضرر عبد عند سيده ، ولم أجوع أحداً ، ولم أسبب بكاء لأحد ، ولم أقتل أبداً ، ولم أسرق خبز المعابد ، ولم أحرز مالا حراماً ، ولم أنتهك حرمة جثث الأموات ولم أرتكب الفحشاء ، ولم أدنس الأشياء المقدسة ، ولم أبع القمح بثمن باهظ ، ولم أطفف الكيل ، ولم أغتصب اللبن من فم الرضيع ، ولم أقتنص طيور الآلهة ، ولم أطارد حيواناتها ولم أتصيد الأسماك المقدسة من بحيراتها ، ولم أخالف نظام الرى ولم أقطع قناة فى ممرها ، ولم أتلف الأراضى الزراعية ، ولم أطفىء النار الموقدة فى المعابد والطرق العامة ، ولم أخالف إرشاد الكتب المنزلة ، ولم أمنع احتفالات الآلهة ، ولم أحل بين الحيوانات ومرعاها ، ولم أهزأ بالحق ، ولم أخدع أحداً ولم أفعل شراً ، ولم أحمل عاملا فوق طاقته ، ولم أكن قوالا ولا نماماً ، ولم أهن الملك ولا كاهن قريتى المقدسة ، ولم أرفع صوتى مع أحد ، أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر » .

فاذا إنتهى من هذه البراءة صمت أوزوريس وصمتت الآلهة وساد السكوت المكان فيؤخذ عندئذ قلب الميت إلى الميزان فاذا فاز حمل إلى الفردوس وإذا ظهر للآلهة اثمه التهمته الشياطين أوسلختهالآلهةخنزيراً أسود فيرسل إلىمكانالعقاب والاعدام .

كانت القوانين المصرية على درجـــة عظيمة من الرقى ، إلا انه من العسير تتبع تطوراتها وسنذكر هنـــا أهمها وهو قانون العقوبات المصرى فنثبت ماذكره ديردور عنه .

كان عقاب اليمين الكاذبة الموت لأنها تجمع بين جريمتين كبيرتين ضد الآلهة وضد الناس ، ومن يرى على الطريق رجلا ممسكا بقاتل أو واقعاً تحت جبروت من هو أقوى منه ولا يسعفه مع قدرته على الاسعاف يقضى عليـــه بالموت وإذا لم يستطع الاسعاف فهو مكلف بالارشاد إلى قطاع الطـــرق وتسليمهم إلى المحكمة ، وإذا لم يفعل هـــذا عوقب بعدد معين من العصى ويقطع الطعام عنه ثلاثة أيام ، ومن يتهم غـــيره تهمة باطلة (بلاغ كاذب) يعاقب بمثل ما يعاقب به النمام . وكل مصرى مكلف بأن يضع عنـــد القضاة بياناً يدل على وسائل معاشه فمن يزور فى ورقته أو يكسب معيشته بطرق غير شرعية يكون جزاؤه الموت . وكل من يقتل عمداً رجلا حراً أو عبـداً يقتل مثله لأن القوانين لا تفصل على قاعدة الفروق بـــين الناس ثروة وجاهاً وإنما على قاعدة نية المجرم . وبمقتضى هذه الرعاية التى تبذل للعبيد كانوا لا يعتـدون على الأحـــرار والسادة ، ولا يحكم بالقتـل على الآباء الذين يقتلون أولادهم ولـكن يلزمونهم بالبقـــاء بجانب الجثـــة ثلاثة أيام وثلاث ليـال تحت رقابة أحـــد الحراس العموميين ، لأنه ليس من العدل أن ينزعوا الحياة عمن بثوها فيهـــم ولأن العقوبة بهذا الشكل تنزل فى قلوبهـم الحزن والنـدامة فلا يعودون إلى

مثل هذا الجرم . أما الأولاد الذين يقتلون آباءهم فلهم عقاب شديد إذ يشد بهم الخيزران ويحرقون أحياء على الأشواك ، لأن قتل الآباء أكبر جريمة يقترفها الانسان .

ولا ينفذ جزاء القتل فى الحوامل إلا بعد أن يضعن ، لأنه من الظلم أن يقع العقاب أيضاً على جنين المجرمة وهو ملك لأمه وأبيه ، والقضاة الذين يحكمون بالموت على برىء يكونون كمن برأوا القاتل وأخلوا سبيله .

وفى القوانين الخاصة بالجند قانون يقضى بالفضيحة لا بالموت على من يفر من الصفوف ولم ينفذ أوامر رؤسائه ، فاذا محا بعد ذلك فضيحته بعمل مجيد أعيد إلى مكانته الأولى وهكذا أعتبر التشريع التجريد من الشرف عقوبة أشد هولا من الموت ليشعر رجال الحرب بأن الذل مصيبة أهول من القتل . ثم أن الابقاء على المقضى فيهم بالفضيحة من شأنه أن يفسح لهم فرصة العمل لمحو الاهانة واسترداد المكانة فتستفيد الحكومة من ذلك فائدة كانت لا تتأتى إذا حكم عليهم بالقتل ، ويعاقب الجاسوس الذى يسلم الأعداء سر الخطط بقطع لسانه ، ويحكم بقطع اليد على مزيفى النقود ومطففى الكيل والوزن ومزورى الأختام ، ومحررى العقود المزيفة والمزورين فى الأوراق الرسمية ، وكذلك تكون العقوبة قاصرة على العضو الذى فعل الجريمة فيزال بالقطع ويبقى مكانه الخالى أمام أعين الناس عظة ومردعة حتى لا يكون تطاول على القوانين..

وكانت القوانين الخاصة بالنساء غاية فى القسوة ، فمن

ينتهك عرض امرأة حرة عنوة يعاقب بالسجن الشاق لاعتبار الجريمةذات ثلاث مضار كبيرة : الاهانة ، والعدوان على الأخلاق وإيقاع الاختلاط فى النسل ، أما الزنى المقترف بلا عنف فيحكم على الرجل فيه بألف ضربة بالعصا وبقطع أنف المرأة ، ومراد الشارع بهذا حرمانها جمالها الذى استخدمته فى التغرير بالرجال » .

وإذا كنا نشك فى بعض الحقائق التى ذكرها ديودور إلا أننا إذا قارناها بالاعتراف السلبي للروح أمام محكمة أوزوريس ، أمكننا أن نكون فكرة صادقة عن الدستور الأدبى عند قدماء المصريين ، ومبدأ الواجب فى نظرهم ، والواقع أن هذا الدستور كان بعيداً عن مبدأ أخذ العين بالعين والسن بالسن كما هو الأساس فى جميع القوانين الأولية ، فقد حلت فى مصر الجمعية محل الفرد فى عقوبات الجرائم التى تقع على كل الأفراد فكان القانون غاية فى الانسانية لأنه يأمر بالاحسان إلى العبيد ويعاقب من يقتل منهم بمثل ما يعاقب به القاتل من الأحرار . ثم ان هذا الدستور الادبى الخلقى غاية فى الرقة لأنه يعتبر الشرف أثمن من الحياة ، ويرى أن الكذب جريمة ، وهو بعد ذلك غاية فى العدالة لأنه لا يعترف بطبقة المجرم فيناله بالعقاب على جريمته مهما كان محله من علو الجاه وكثرة الحطام .

أما القانون المدنى فيلاحظ من أوراق البردى الكثيرة أنه زيد تركيباً وتعقيداً شيئاً فشيئاً . كانت العقود بين الأهالى

فى بدء الأمر شفوية أمام الشـــهود وضمانتها القسم . ثم جاء بوكوريس من الأسرة الرابعة والعشرين فوحد جميع القوانين المستعملة ونظمها وحتم كـتابة العقود ، ومن ثم كثر التعاقـــد وضوعف شيئاً فشيئاً ، ونشأت أهميـــة الـكتبة والمسجلين وعظمت ، ثم انتهى الأمر بوجوب تسجيل العقود فى السجل الملكى لاثبات صحتهـــا . وتحتم مرور العقـــود أمام المسجل موقعـــاً عليها بعدد معين من التوقيعات تبعاً لطبيعتها ، وأن تـكون مكتوبة بأكملهـــا على ســـجلات التسجيل ، ولا تقبـــل على هـذه السجلات الا اذا كانت خالصـــة الرسم ، مستوفاة الحقوق ، ولا يكون هذا إلا اذا دونت من قبل فى ثلاثة سجلات أخرى ، وقد كان هنـاك سجلات دقيقة للضرائب والمساحة وحقوق المعابد ، تستشار اذا اقتضى الأمر بيع العقارات .

خلف لنا هذا التسجيل المتعدد الاجراءات آلافا من المستندات ، اســـتطعنا أن نعرف منها كثيراً عن أهم القوانين المدنية ، فقد ورد فى هـــذه القوانين أنه اذا انـكر المدين بقسم منه ديناً غير مقيد بمكاتبة فالدين معدوم ولا يستطيع الدائن ضده شـيئاً ، وهذا النص هو الذى تذرع به بوكوريس ليرغم المصريين على كتابة عقودهم ، على أنه يدلنا من وجهـة أخرى على مقدار ما كان عليه القسم فى مصر .

وجاء أن ملك الاسرة اجماعى فجميع أفرادها يتضـامنون فى التكاليف . والعقود التى تعقد بينهم تعقد بصيغة وتوقيع خاصين .

ولا يعطى إيصال بدين مدفوع وانما ترد الوثيقة الدالة على الدين الى من يدفع ، والتحكم فى شخص المدين لم يكن موجوداً بمصر ، فلا يحجز الا على أملاكه فقط .

وكانت هناك أنواع عديدة من الرهون ، فالمدين المماطل يرهن أشياء ثمينة ، وتقبل فى الرهون مومياء الأب ، واذا لم تخلص قبل أن يموت من يرهنها ، حرم هذا الراهن من مميزات الدفن وحفلاته .

وبائنة المرأة وصداقها الذى تأخذه من زوجها وقت زواجه يعتبر كقرض بحق لها حق الرهن مدى حياتها على أملاك الزوج .

ووجدت أيضاً بين العقود المصرية عقود إيجارات تعقد لمدة اثنى عشر شهراً وتجدد كل سنة .

وينتخب المصريون قضاتهم من عظماء الأهالى ، وكان المتبع فى القضايا أن يكتب الشاكى تفصيلات شكواه ثم يطلع عليها المدعى عليه ، ويجيب كتابة على كل تهمة ، فينكر أو يعترف ، ثم تترك للمدعى فرصة أخرى للرد على المدعى عليه ، وتترك لهذا أيضاً فرصة للرد على المدعى ، وكل ذلك كتابة ، ثم يتفاوض القضاة ، ويصدرون حكما يعلنه الرئيس ، فكانت القضايا تباشر بهذه الكيفية لأنه كان من رأى المصريين أن المحامين يجعلون القضايا غامضة بخطبهم ، وأن الخطابة وسحر الحركة ودموع المتهمين من شأنها أن تذهب بالقاضى الى الاغضاء عن القانون والحق .

الفن

من أروع مظاهر الحضارة المصرية، الفن المصرى، فقد كانت مصر مهد الفنون، ولولا بقاء آثارها الأولى حتي يومنا هذا، لقامت معلوماتنا عن التاريخ الأول للفنون على الحدس والتخمين، وكلما زدنا علما بأعمالها الجليلة تبين لنا ما تدين به الفنون المتأخرة لمصر.

كان الفن المصرى اعرابا صادقاً عن روح الشعب، ولا عجب فقد كان هم المصريين كل خالد أبدى من الأشياء، فالحياة الأرضية أقل أهمية من الخلود، والجسم أقل أهمية من الروح، فالقبر ابقى من المنزل، لذلك كانت منتجات العمارة المصرية أكبر وأبقى ما خلفه الأقدمون فى الدنيا.

كان ولا يزال فن العمارة اكثر الفنون تعبيراً وأبقاها أثراً وكان فى مصر فى أول أمره بدائياً ينقصه التناسق، ولكنه كان فائقاً فى التعبير عن المواقف والحركات، وكان الحفار المصرى يهيم بالطبيعة ويحاكيها ولا يحيد عنها، وهو إن أهمل اظهار العواطف المختلفة فقد كان رائده إيجاد العظمة والرزانة وطلب الخلود.

وفى العصر الطينى، أى عصر الاسرات الاولى تقدم الفن المصرى تقدماً عظيماً، ارتقى الذوق والصنعة، الا أن الاشكال والنسب ظل يعتورها شيء من عدم مراعاة التناسق.

وفى عهد اسرات ممفيس ابتدأ يكون للفن المصرى شخصية

مميزة ، غنية بالملاحظة والعاطفة .

وظل الفن المصرى فى طيبة منـــذ عصر الاسرة السادسة حتى السابعة عشر محافظاً ولكنه أخذ منذ عصر الاسرة الثامنة عشر يسير سريعاً نحو الكمال . فجعل النقاشون همهم فى العمل للأثر لا للقبور ، وللزينة لا للدين .

تعتبر المعابد والقبور أعظم منتجات الفن المصرى القديم ، رغب المصريون الدوام فى بنائها فالأولى بمثابة صلاة من الصخر وصيغ سحرية واعمال خالدة دالة على العبـــادة يدوم بدوامها رضى الآله الذى اقيمت له ، والمقابر تحمى المومياء ، فهى مساكن الارواح وملجأها على الأرض ، فنزيلها الصامت لا يدركه الدمار ما بقيت بقاياه مصونة فى عمـــق الجدث ، أما منازل الأحياء فغير عظيمة ولا ذات شأن حتى تكون ضخمة خالدة ولهـــذا قلت العناية بها .

كان المعبد قبل الاسرات عبارة عن كوخ صغير مقام من الخشب أو من خصى القصب ، وكان أمام هذا الكوخ عمودان ، وعلى وجهـــة بابه لوحان مائلان من الخشب للرونق ، وكانت البقعة المقدسة فى المعبد تحاط بسياج حتى لا يدخلها الا من كان عنـــده جواز بذلك . وبابتداء عصر الدولة القديمة كان شكل المعبد المصرى قد تدرج نحو الرقى بدرجة محسوسة تميزه عما كان عليه فى العهد الفطرى ، فاصبح يشاد من اللبن ومن مواد أخرى أشد صلابة كالحجر الجيرى بل الجرانيت أيضاً ، وكان يزين داخله بالعمد وتحلى جدرانه بالنقوش البارزة ، أما المعابد العظيمة

التي شيدت فى عهـــد الدولة الوسطى فكان تصميمها فى جملته يشبه بيت المصرى القديم ، اذ كان الأخير يقسم الى ثلاثة أقسام يلى الواحد منهـــا الآخر ، فالأول للاستقبال وهو ما يقابل فى المعبد بهو العمد ، والثانى للولائم ، والثالث خاص بصاحب البيت ، وبالنظر لهذا التشابه بين المعبد والبيت ، كان المصريون محقين كل الحق فى تســـمية المعبد (بيت الآله) ، وكما كان نبلاء المصريين لا يكتفون بثلاث حجرات فى منازلهم كذلك جرت العادة أن تشاد فى معبد الآله حجر أكثر ممـا ذكرنا ، فكان بهو العمـــد عادة مفصولا عن قدس الاقداس بقاعات أخرى أضافية ، وكان يبنى حوله كذلك عدة حجرات صغيرة قد تبلغ الاثنتى عشرة ، وكانت المعابد فى العصـــور المتأخرة خاصة ، تشتمل علي محراب مبنى أمام قدس الأقداس خصيصاً للقـارب المقدس الذى كان يوضع فيه تمثال الآله .

وكان يوجد خارج المعابد الكبيرة (فى دائرة جدران السياج العام) عدة مقاصير ومساكن للكهنة ، ومبان شاسعة خاصة بالفلاحة ومخـازن للغلال ، وحظائر وحدائق وبرك . فكان المعبد ومرفقاته شبيها بمدينة صغيرة .

وكانت المسطحات الملساء للمعابد ، كسطوح جدران البوابات والساحات والقاعات وغيرها من الأجزاء المخصصـــة للعبادة ، مغطاة بالصور والنقوش الهيروغليفية ، فكان ينقش على الجدران الخارجيـــة كجدران البيلونات والساحات مفاخر فرعون الدنيوية ، كالشجاعة التى أظهرها فى ســـاحة الوغي

ضـــد عدوه ، وتخليد الاعياد العظيمة التى أقامها ، وغير ذلك من الحوادث الهامة فى تاريخ حياته .

أما جدران المعبـــد الداخلية فكانت موقوفة على تمثيل الاحتفالات الدينية التى تقام داخله ، فيرى عليها الملك مرسوماً بزيه الرسمى ماثلا أمام الآله ، يقدم له البخور أو يصب الماء أو يهدى اليه نبيذاً أو لبنـــاً أو فطيراً أو أطواقا من الازهار ، وفى مقابل ذلك يكافئه الآله بالحياة فى شكل اشارة هيروغليفية مدلولها الحياة ، وكثير من هـــذه المناظر لم يرسم إلا لمجرد الزخرف ، ولكن كان غيرها مرتبطا بالطقوس الدينية الخاصة بالجزء التى هى فيه من المعبد .

قد يتراءى من ذلك أن المعبد لم يشيد الا لتخليد ذكرى فرعون وأنه هو الفرد الوحيـــد الذى منح شرف التقرب من الآله ومخاطبته ، وقد كان ذلك صحيحاً نظريا .

هـــذا وقد كان يخصص أيضاً فى كل بيت مصرى حجرة تشمل على مقصورة صغيرة فيها تمثال الآله أو صورته حيث كان أفراد الاسرة يؤدون فروض العبادة ويقدمون القربان .

وكان ينصب فى الطرقات أحياناً معابد صـــغيرة ، وتمد فى الحقول موائد القربان ليضع عليها الفلاحون قرابينهم .

أما القبر فكان شكله فى عهد الاسرات الاولى مايقـــال له الآن المصطبة ، وهى على شكل أهرام مقطوعة قاعدتهـــا مستطيلة وتختلف أطوالها وأعماقها ، ولكن علوها لا يتجاوز ستة أو ثمانية من الأمتار . ووجوهها الأربعـــة مسطحة ليس

بها أى زينة ولا أى فتحة ، اللهم إلا الباب المواجـــه للشرق . وتوضع المصطبة وضعا دقيقاً من حيث التوجيه فـــكل واجهة منها تقابل نقطة من النقط الأربع الأصلية ومحـــورها الكبير فى اتجاه الشمال والجنوب ، كانت المصطبة أو القـبر تشمل من الداخل ثلاثة أجزاء رئيسية ، الهيـكل أو الجـــذع والممر أو السرداب والكهف ، فالهيكل وحـده يفتح للأحيـاء وهو أول ما يدخله المرء بعد عتبة القبر ، وقد يجتمع فيـــه أقارب الميت عند الاحتفال بذكراه لتلاوة صلاة الموتى ووضـــع القرابين والمؤن المخصصة لصنو الميت ، فالهيكل إذاً قاعة استقبال الصنو المذكور ومعناه الوسيط بـــين الجسم والروح وهو الساكن الحقيقى للقبر ويبقى به ما دامت المومياء باقية لم يلحق بها الدمار ويحتوى الهيكل على الشـــاهد ومائدة القرابين . فالشـــاهد مثبت فيما يشبه الوجار مقـــابل المدخل وعليـــه اسم الميت وأعماله وصفاته وترجمة حاله ، ومائدة القرابين عبارة عن كتلة من الغرانيت أو نحوه حفرت فى سطحها الأعلى عيون مقسمة لوضع طعام الصنو المذكور وقد يقام أحياناً على يمين هـــذه المائدة وعلى يسارها مسلتان صغيرتان .

وكانت حوائط القبور مزينة بالصور الجميلة الملونة تمثـــل حياة الميت التى كان يحياها فوق الأرض ، فـــيرى جالساً أو واقفاً وبجواره زوجه وخدمه يعملون فى أعمالهم مثل الحرث والزرع والحصاد وجنى الكروم وعصرها أو يقدمون الفواكه لسيدهم ، وفى صور أخرى يرى صاحب القبر ذاهباً للصيـــد

والقنص واللهو . وقد كان لهـــذه النقوش معنى سحرى حيث اعتقد المصريون أن تمثيل الميت بالنقش ذاهبـــاً جائياً ، آكلا عاملا من شأنه أن يعينه على هذه الأعمـال ومواصـــلاتها . فيمدون بذلك فى وجوده لأنه لما صار ظلا بعـــد الوفاة ، فانه يكتفى بالظل من الخدم والظل من الطعـام والأثاث والآلات فالنقش بمثابة ظـــلال للمنقوشات . وكذلك الصنو كان يبقى بالقبر ما دامت المومياء باقية فيه ، لأنه إذا حدث وفنى الجسم فان تماثيل الميت تقوم مقام مومياه .

لقد أدرك قدماء المصريين قصر الحيـاة وغرور الأفراح فهاموا بالأشياء الخالدة وفضلوا الموت على الحياة لأن الحيـــاة العـــوبة الزمن والموت فوز عليهـا ، عرف المصريون كيف يجعلون حيـــاتهم شعرية وكيف يحتملون الموت ، راموا بث الحيـــاة فى الأموات فنجحوا ، لأننــــا بنقوشهم ذكرناهم كما كانوا فى الحياة .

كانت الزخرفة المصرية تلى فن العمارة فى الأهميـــة ، بدأت ككل فن أشكالا بسيطة كالخطوط والدوائر ومعظمهـا يمثل زهرتى اللوتس والبردى ، ثم أخذ النقاشون رويداً رويداً يزيدون ويوازنون وينقحون فى أشـكال هاتين الزهـــرتين حتى أوجدوا مئات الأشكال الزخرفية ، وتعـد زهرة اللوتس فى الزخرفة المصرية القديمة من أهم الوحـــدات المشهورة فى هذا الفن ، وقد ظهرت هذه الزهرة فى الزخارف القـــديمة ، أى قبل الأسر الفرعونية ، ثم فى التيجان ، ورؤوس الأعمـدة .

وقد أكثر المصريون من التفنن فى أوضاعهـــا وهى مفردة أو مع ساقها ، وكانت ترسم أيضاً إلى جوار زهرة البردى بحيث تتناوبان الزينة واحدة بعد أخرى .

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة تطورت زهـــرة اللوتس إلى شيء آخر يكاد يكون إنقلاباً غير من معـــالم الزهرة كلية . إذ وجد شكل جديد منها ، بأن جعل وريقـــات الزهرة تلتف من أطرافها ، واقتصر رسمهـــا على وريقتين ملتفتي الأطراف اليمنى واليسرى ، وفى وسطهما وريقة ثالثة كأنها ترى بأصول المنظور . فكان هذا الوضع فى الزهرة أقرب إلى أن يجعلهـــا شبيهة بالزنبق . ثم زاد المصريون على هذا الوضع بأن جعلوا الوريقة الوسطى أكثر من واحـــدة ، وان مدوها إلى أطول من الأخريات وأكثروا منها حتى أخذت شكل المروحة .

وظهرت زهرة الـــبردى فى الزخارف المصرية ، بجانب اللوتس ، متمشية معهـــا فى كل أدوار تاريخها ، فهى قـــديمة ومألوفة كاللوتس سواء بسواء . ولم يقتصر الفنـــان المصرى فى وضعها على شـــكل واحد ، بل ابتـكر كثيراً فى وضع رسوماته عنها مما يشهد له بالبراعة .

ولما كانت مصر بلاد النخيل ، وكان الفنان المصرى القديم لا يفارق منظر النخيل عينيه ، فقد التفت إلى صورة النخيل وأدخلها فى زخارفه . فنحت العمود على شكل النخيل ، فـكان العمود الذى نسميه العمود النخيلى ، والذي يتـكون من جذع وينتهى بتاج فى أعلاه على شكل جريد النخـل بسعفـه محزوماً

وهو من أجمل الأعمدة المصرية شكلا . ثم استعمل الفنان المصرى جريدة النخيل فى بعض زخارفه فى أيام الدولة الحديثة ، وكذلك رسم فاكهة النخيل أيضاً .

وقد استعمل المصريون أيضاً أشكال الفواكه وبعض الزهور للزخارف ، ولكن الأساس كان على الدوام زهرتا اللوتس والبردى ، ولعل السبب الوحيد لذلك هو ماكان من علاقة اللوتس بعقيدة المصريين .

أما التصوير فلم يكن فناً قائماً بذاته عند قدماء المصريين ولكنه كان فرعاً بسيطاً لفن الحفر ، لأن الحفار المصرى كان متعوداً منذ نشأة الفن على تلوين الأحجار بعد نقشها وقد تسبب عن بقاء هذا الفن مقيداً بفن الحفر عدم تقدمه كثيراً بالنسبة للتقدم الذى أصاب فن النحت . ومما لوحظ فى طبيعة التلوين عند قدماء المصريين ، التأثير العظيم الذى كان للشمس على أذواقهم ، فكانوا يميلون إلى تلوين كل ما يخرج من أيديهم ، أحبوا الألوان الصافية القوية ، وجهلوا بل لم يعبأوا بالألوان المعتمة .

لم يهتم المصريون بالظل والنور ، ولم يراعوا منه إلا تلوين جسم الانسان إن كان ذكراً باللون الأسمر القاتم وإن كان أنثى باللون الزاهى الفاتح ، أما الصور التى فطن فيها الصانع المصرى إلى مسألة الظل والنور فقليلة جداً ، وكذلك كان استعمال الألوان للزخرفة والزينة فقط لا يقصد منها تقليد الطبيعة فكان ذلك أحد الأسباب التى لم تسر بفن التصوير إلى الرقى .

كان للموسيقى عند قدماء المصريين أهمية عظيمة ، كانت اول أشكالها أناشيد الكهنة داخل الهياكل فى المواسم والأعياد ثم الغناء وكان يقوم به كثير من أفـــراد الشعب مجتمعين فى أيام الفيضان ، وفى وقت الحصاد والأعياد والمآتم والأفراح وينتخبون من بينهم رئيساً ويجلسونه أمامهـــم ويجلسون هم وراءه . وحينئذ يشرع هو فى الضرب على الرباب أو المـــزهر ويشرعون هم فى التصفيق والغناء مرددين التواشيح التى يقولهـا فى مطلع الغناء .

أما آلات الطرب التى استعملها المصريون فأهمها العود وهو على نوعين أحدهما صغير والآخر كبـــير وله يد طويلة يشتمل الصغير على ستة أو سبعـة أوتار وأما الكبير فعـــلى عشرين وتراً أو أكثر . وفى عهد الامبراطورية الحديثـــة ظهر نوع آخر صغير يشبه الرباب . وكانوا يستعملون الجنك ذات الوتر الواحد أما الطنبور ذو الثلاثة أوتار فـــلم ير إلا فى عهود أحـــدث . وكان الناى وهو آلة النفخ الوحيـــدة المستعملة عند المصريين القدماء على نوعين ، نوع منهـــا طويل يضعه الموسيقى وراءه بميل إلى الأمام ، والنوع الآخر صغير يضعه أمامه ، وتوجد خلاف هذه الآلات النفـــير والطبلة والساجات وكلها كانت مستعملة فى جميع العصور القديمة .

وكانت جوقات الطرب تستعمل من الآلات القيثـــارة والطنبور وكان يجلس بجـــانب كل ضارب على آلة طرب رجل وامرأة للتلحين والانشاد والتصفيق بالأيدى على الايقاع

والنغمة وكان فى النادر استعمال القيثارة وحدها ، ولم يستعمل الطنبور بمفرده فى أى حال من الأحــوال . كانت الآلات الموسيقية تستعمل معاً ، وبذلك كان المصريون أول من أوجد تعدد النغمات . وقــد اكتشف المصريون السبعــة نغمات الأساسية المصطلح عليها الآن بالسلم الموسيقى .

كانت الموسيقى تستعمــل فى الكنائس وفى الرقص وفى الولائم ، لذلك كانت فناً محترماً عند المصريين ، وكان الملوك يستدعون المغنيين والموسيقيين ليجالسونهم .

ومن المظاهر التى كان لها صــلة بالفن الأعياد الكثيرة التى كان يحتفل بها لكل معبد فى كل سنة ، وقد روى هيرودوت أن المصريين كانوا إلى عهده يجتمعون مرات عدة خــلال السنة ليقيموا الأعياد ، ويمثل الكهنة فى هذه الأعياد الروايات الدينية ، والحوادث الهامة فى تاريخ حياة الآله الذى يحتفــل بعيده ، ففى العرابة المــدفونة مثلا كانت تمثل قصــة الآله أوزوريس ، وذلك بأن يسير موكب الآله من معبده بالمدينة إلى مقره الأزلى فى الصحراء ، وهنــا يمثل الكهنة وغيرهم المعركة العظيمة التى قضى فيهــا أوزوريس على أعــوانه القضاء المــبرم .

اللغة والآداب

كانت اللغــة المصرية واحدة ، لم تتغير إلا بما كان يدخل عليها وقتا بعد وقت من التطورات التى كانت نتيجة ضرورية

لاتساع السلطان والحضارة ، ولكن هذه اللغة الواحدة كانت تكتب فى أول عهدها كغيرها من اللغات اشارات تعبر عن الافكار فكانوا يصورون افكارهم بالرسم ، وكلما زاد تعقيد الافكار وبعد غورها ونوعت ، حل الرمز مكان التمثيل المادى ثم حلت الاشارة مكان الرمز وهى صـــورة مختصرة ، فابتدأ الخط الهيروغليفى وكان خاصاً فى الغالب بالنقش على الحجر أو الخشب أو ما يماثلهما ، ولم يكن يســتعمل فى ورق البردى إلا قليلا ، والحروف فيــه هجائية تلفظ وتتألف منها كلمات كما فى سائر اللغات الحديثــة ، إلا أنها فى رسمها تحكى صور الاشياء والحيوانات والمعبودات ، ثم أن منها فوق ذلك حروفاً معدودة ليست هجـــائية بل هى رموز يدل كل واحـــد منها على معنى كامل .

والخط الثـــانى هو الخط الهيراطيقى ، وهـــو اختزال الهيروغليفى ، لاتدعو كتابته الى ابطاء كثير والجوهر فى الخطين واحد ، ولكن أولها يعنى برسم الصور كاملة فى حين أن الثـانى يختزلها ، والاول يكتب عموديا من أعلى الى أسفل ، كما يكتب أفقيا من اليمين الى اليسار ، أو من اليسار الى اليمين ، أما الثـانى فلا يكتب الا أفقيا من اليمين الى اليسار .

والخط الثالث هو الديموتيقى ، وهو مثل الهيراطيقى فى أن أساسه الهيروغليفى ولكنه يختلف عنه فى أنه أكثر منه اختزالا للخط الهيروغليفى ، إلا أن هذا الاختزال لم يكن كافيا لانه ظل داعيـــا الى شىء من الصعوبة والابطاء فى حين أن الحاجات

والمعاملات اليومية اتسعت فاستلزمت خطا اسهل واسرع .
فسداً لهذا النقص وجد الخط الديموتيقى أى الشعبى .

وترجع اللغة الهيروغليفية فى أصل نشأتها الى زمن بعيد جداً يصعب تحديده وانما فى امكاننا أن نكون فكرة عن أدبها من النصوص الدينية المنقوشة بجدران المعابد والمقابر ، وتحتوى على أقدم صورة لديانة قدماء المصريين وتشتمل على الوضع الأول لكتاب الموتى ، وكذلك من مخطوطات البردى والكتب العديدة التى وصلتنا فى الحكم والاخلاق والنصائح والشعر والدين والروايات والقصص والتاريخ وغيرها ، وان لم تكن البرديات التى عثر عليها الباحثون فى الادب المصرى كثيرة ، فذلك لأن أهم الآثار الباقية هى المقابر والمعابد وهذه لم تكن أماكن علوم وآداب .

ومن أشهر وأقدم الكتب المصرية التى وصلت الينا فى الاخلاق كتاب حكم فتاح حتب الذى كان مستشاراً للملك وهي بحث فى الخلق النفعى العملى تتضمن واجبات السلوك فى الحياة نحو الزوجة والصديق والجار ، ونقرأ فيها عن الحاكم والرعية والخدم وغيرهم ، فهى صورة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر .

وكتاب قاقمنه الحكيم المصرى الذى عاش فى أيام الاسرة الخامسة ، وقيل بل عاش فى عهد الملك سنفرو من الاسرة الثالثة ، ويحتوى كتابه أيضا على نصائح أخلاقية .

وكتاب نصائح الحكيم آنى لتلميذه خونسو ، قيل أنه كتب

فى عهد الاسرة الثانية عشرة وتمتاز عن حكم فتاح حتب بأنها مختصر فى الخلق المعنوى العالى وفيها دعوة الى الاحسان والملك العادل وتقدير الام ومغبة الزنا .

أما كتاب تعاليم امنمحعت الأول لابنـــه اسرتسن الأول فتخالف التعاليم السابقة ، اذ هى أقرب الى التاريخ منها الى علم الاخلاق ، ففيها يقص امنمحعت أنباء الحروب التى ملأت السنين الأولى من حكمه ، وكيف انتصر على أعدائه الليبيين والاسيويين وكيف وجه عنايته أيضا الى اصلاح الأرض وعمران المملكة .

وكذا تعاليم الكاتب الملكى (دواور - سى - خردا) الى ابنه پابى فانها تتضمن مديحا فى فن الكتابة واهميتها وتفضيلها على سائر المهن .

ومن أرق ما وصـــل الينا من الأدب المصرى القديم (مذكرات سينيا) الذى اضطر الى الرحيل الى سوريا بسبب غضب مليكه ، وهناك حصل على ثروة وجاه ، إلا أنه لم ينفك يحن الى وطنه ، فكتب فى مذكراته هذه مديحا فى فرعون وسطوته وشجاعته ووصف العادات الحربيـــة المستعملة بمصر فى عهد الاسرة الثانية عشر .

واذا التفتنا الى الناحية الشعرية وجدنا أن المصريين القدماء تركوا لنا كثـــيرا من الشعر ولكنه ليس من الطبقة الاولى ، ومن هـــذا الشعر ملحمة بنتاؤور ، وبها قص الشاعر انتصار رمسيس الثانى فى قادش ، وكيف حماه الرب آمون حين احاط به أعداؤه واسلوب القصيدة قوى رصين .

وبما وصل الينا أيضـــا نشيد للنيل ، وعدة أناشيد للشمس نظمت فى عهـــد اخناتون ، كانت ترتل مع نغمات الموسيقى ، وقد بقيت هذه الاناشيد الشعرية الرقيقة منقوشة على جدران معبد اخناتون ، وتمتاز هذه الاناشـــيد بروعة أسلوبها وخيالها وما بها من مبتكرات شعرية .

أما الكتب الدينية فاغزر كتبهم مادة ، لشدة أيمانهم بالحياة الأخرى ، وأهم تلك الكتب هو ما يطلقون عليه كتاب الموتى واسمه الحقيقى (فصـــول التقدم فى اليوم الآخر) أو كتاب الخروج الى النور ، ويصور هذا الكتاب منظر المحاكمة فى العالم الآخر أمام أوزوريس .

ولم ينس المصريون فن القصص والروايات وأغلب ماوصلنا عنهم شبيه بحكايات الف ليلة وليلة مثل قصة (كيف أخذ تحوتى مدينة يوبة) إذ فيها شبه من حكاية على بابا وما يشبه قصة جواد أو ديسيوس فى اوديسة هوميروس ، وكحكاية الاخوين ، وقد كتبها الكاتب المصرى نانا منـــذ أكثر من ثلاثين قرنا ، وثمت قصـــة مصرية مشهورة نقلها المؤرخ بلوتارخ عن بعض الكهنة وهى قصـــة (أوزوريس وايزيس) وهى وأن كانت ضمن القصص الميتولوجية التى كانت ديانة قدماء المصريين غنية بها ، إلا أن لها قيمة أدبية خاصة .

وأشـــهر رواياتهم الغرامية هما قصة ساتنى ابن الملك مع تبوياى ابنة الكاهن وفيها تصوير لما تجره غواية المرأة الماكرة ، وقصة الأمير مع الحسناء السورية .

أما الروايات المسرحية فلم يرد ذكرها الا فى ورقة بردية عدد صحائفها ١٣٥ وهى عبارة عن رواية تمثيلية كتبت فى عهد الاسرة الثانية عشرة ، فتكون بذلك أول رواية تمثيلية فى العالم.

كان المصريون يميلون كثيراً لجعل أكبر قوادهم أبطالا لقصصهم ورواياتهم وقد أوقع ذلك العمل كثيرين من كبار المؤرخين فى الخطأ فخلطوا بين الحقائق وبنات الافكار ، وكانوا احيانا يذكرون الحوادث التاريخية كما هى ويضيفون اليها من عندهم أشياء تشوه وجه الحقيقة ولكنها فى الوقت نفسه تفرح السامعين وتنعش أفئدة القارئين

أما قصص الاسفار فكانت كسواها من القصص الاخرى كثيرة الانتشار بين جميع الطبقات وهى تدلنا على أن المصرى القديم كان يكره التغرب عن الاوطان .

ومما تركه المصريون فى الفلسفة قليل ، ولكن الباحثين عثروا على بردية فى قبر الملك انتف تحتوى على قصيدة فلسفية ، وتتلخص فكرة هذه القصيدة فى ان كل ما فى الوجود زائل فمن واجب الانسان ان لا يشغل باله بالهموم وعليه أن يغتنم فرص اللذات .

كان المصريون يكتبون المسائل الفلسفية المهمة بطريقة المحاورات التى كانت مستعملة كثيراً عندهم ، وفى متحف برلين بردية بها محاورة مهمة من هذا القبيل بين رجل وروحه أحدهما يفضل الانتحار على العيش فى ظلال الذل والآخر يعارضه ويفضل العيش فى ظلاله على الانتحار .

وتوجد أيضاً بمتحف تورين بردية تحتوى على محاورة بين المعدة والرأس ، تفاخر الأولى الثانية بأنها الآلة الرئيسية التى تدير حركة الجسم والرأس يجيبها بأنه السراج المنير الذى ينير كل شيء فى الجسم ويدير حركته .

وقد ذكر مانيتون المؤرخ المصرى فى كتابه ملوك مصر أن أعظم فلاسفة مصر هو هرمس ونسب له عدة آلاف من الكتب ، وقد لقب بالمثلث العظمة والمثلث الحكمة والهته بعض الشعوب ، ولكن لم يصل الينا من مؤلفات هرمس شيء .

من قرأ بعض المؤلفات سالفة الذكر يمكنه أن يستخلص لنفسه أن المصريين القدماء كانوا شديدى التأثر بالاساطير الدينية وقصص الآلهة وما وراء الموت من الوان الحياة ، وكانوا ذوى شغف بالرموز وتعلق بالرزانة والعظمة وضبط النفس ، وكان حبهم لوطنهم وكل ما تظله سماؤها شديدا . وكانوا بطبيعة البلاد الهادئة الموفورة الغلة والماء راضين قانعين لاتحركهم آلام وأزمات نفسانية عميقة . كما تحرك غيرهم من شعوب البلاد الجبلية القليلة الغلة .

ولكن هذا الأدب الهادىء الرزين كان له أثر بين فى آداب الشعوب الاخرى التى كان بينها وبين مصر صلات .

كان للأدب المصرى أثر فى الادب العبرانى والمسيحى وقد ذكرنا فى فصل الدين ما بين مزامير داوود واناشيد اخناتون من مشابهات كثيرة ، وكذلك قصة الطوفان وغيرها من القصص الدينية وامثال سليمان فجميعها ترجع الى أصل مصرى . .

ومعظم أخيلة كتاب الف ليـــلة وليلة وردت فى قصص المصريين القدماء، وحكاية السندباد البحرى هى قصة (البحـار الغريق) المصرية.

وهناك شبه قوى بين بعض فصول هوميروس وبين بعض القصص المصرية، ويرى الأرخولوجيون أن هنـاك صلات بين آراء حكماء الهنـد وعلى الخصوص بوذا وبين آراء حكماء مصر ولا يدرون أكانت هذه الصلات قبل زوال قارة اطلانطيقا أم بعدها.

العلم والتعليم

لم يبق لنا من علوم المصريين إلا ما دون فى بعض أوراق البردى وهو بسط لمبادىء أوليـــة يرجح أنهـا كانت للتعليم فى مدارس الأطفال، ولـكننا إذا حكمنا على علم المصريين بآثاره ونتائجه رأينا أنه كان نهاية فى التقدم.

اننا لانكاد نعرف شيئاً مثلا عن الهندسة عند المصريين، ولـكننا نستطيع الحكم اذا التفتنا الى تطبيقاتها بأنها كانت راقية فقـــد كان المصريون يعرفون تقدير سطح الأرض تقديراً المعوا اليـــه كثيراً فى ورق البردى.

ونجهل مثـــلا طرق الرقابة والرصد عند المصريين فى علم الهيئة. لـكننا نعرف أنهـم مهروا كل المهارة فى توجيه آثارهم وكانوا على علم تام بمدار الســـنة، ونفترض أيضا أنهم كانوا يعرفون المزولة، لأننا على يقين من أن البابليين عرفوها وكانت

للمصريين بهم صـــلة وقت الاغارات أو أيام الاتجار فاخذها عنهم البابليون ، لقد تمكن المصريون بالارصاد الفلكية من تنظيم مدار السنة والشهور والفصول ، ودونوا أوجه النجوم واشراقها وغروبها ، وقسموها الى سيارات وكواكب وعرفوا أعظم النجوم واسموها باسماء أشهر آلهتهم .

ولا نعرف أيضا تفصيلات الاجراءات الكيماوية الصناعية ولكننا ندرك أنها كانت عديدة معقدة لانهم استخرجوا بها المعادن المهمـــة ، وصنعوا الزجاج والميناء والبردى والاعطار حتى الجواهر الصناعية والالوان والأصباغ والاخضبة التى لم تذهب ببهائها آلاف الســـنين ، وكفى بفن التحنيط دليلا على رقى الكيمياء الصناعية .

والتعليم فى مصر كان على درجة عالية من الرقى ، فكانت المدارس تلحق بالمعابد ، ويتعلم المصريون فيها الكتابة والحساب وحساب النجوم والهندسة والمعالجة بالطب والتعاويذ السحرية وتجهيز الادوية ، ويستظهرون الكتب المقدسـة وشعائر الدين وكان معبد هليوبوليس أشهر هذه المعابد ، حيث كانت به مكتبة هائلة تحتوى على آلاف الكتب ، ظلت موجودة حتى قضى عليها فى عصر البطالسة ، وبالرغم من أن هـذا المعبد كان معبداً دينياً ، الا أن المشتغلين به لم يقصروا جهدهم على الفلسفة الدينية والفكرية ، بل أدخلوا مع ذلك الطب والفلك .

لقد تناول المصريون جميع صور الحياة وعملوا فى كل فرع من فروعها بهمـــة عجيبة ، فازدهرت واينعت شجرة المعرفة

وتناولتها الشعوب الناشـــئة ، فكان هذا التراث بذرة المدنية وأصل الحضارة .

تقول مدام بلافاتسكى فى كتابهـا « التعليم السرى » أن رحلة قديمة جداً خرجت من مصر الى غرب أوروبا وبريطانيا ، وحينئذ علم المصريون سكان تلك الجهات الاوربية كيف يبنون منازلهم ومعابدهم وعلموهم شيئا من الدين والفلك ، وتقول أننـا ما زلنا نرى مثل تلك الآثار فى ستونهنج بانجلترا وفى بريتانيـا بفرنسا وكلارنس باسكتلندا ونيوجرانج بايرلندا .

وأبدى السير نورمان لوكيار الفلكى البريطانى شاهداً قويا أثبت فيه أن المعابد الهائلة البريطانية التى شيدت هناك قبل التاريخ كانت خاصة ببعض النجوم مثل اخواتها بمصر ، وما زال يوجد على بعضها نقوش مصرية رمزية مثـــل العنخ أى رمز الحيـاة الذى يشبه الصليب المقدس ذى الرأس الحلقية ، ومثل سفينة آمون رع التى تحمل الشمس فى سماواتها .

وعثر الارخولوجيون على رسم للسفينة المصرية الحاملة للشمس فى آثار بايرلندا وفى لولماريكر ببريطانيا ، وفى بوهزلاند بالسويد ووجدوا رسم العنخ فى معبد قديم بفرنسا كما رأوا مثل هذه الآثار بشيباس جنوبى المكسيك .

ووجدوا أيضاً تشابها بين الرموز المصرية وبين مثلها بأمريكا القديمة ، ورأوا ذوقا مصرياً ظاهراً فى مبانى مايا فى (شيكين انزا) أما الاهرامات المشيدة للشمس والقمر ببلاد المكسيك فشبيهة باهرامات مصر تماماً .

الحالة الاجتماعية

كانت الأسرة عند قدماء المصريين هى النواة الاجتماعية للمجتمع المصرى . وكانت على درجة فائقة من الرقى ، فلم يكن للرجل إلا زوجة شرعية واحدة ، إلا انه كان لبعض الأغنياء نساء آخرون بجانب الزوجة الشرعية التي كانت تقوم بتدبير المنزل ، ولم يكن فى ذلك أى إدعاء شرعى ضد الزوج ، وكان هناك أيضاً نوع من الزواج المفكك الروابط بين العبيد والطبقة الفقيرة ، يرجع إلى قلة الثروة ، ومع ذلك فقد كانت العقوبة شديدة على فساد الأخلاق ، والواقع أن الزواج وتكوين العائله كان الرابطة الفريدة المحترمة والطريق الوحيد المبنى على العقل .

وقد كانت دائرة الزواج الداخلى متسعة حتى شملت زواج الأخ بأخته ، وكان هذا النوع من الزواج منتشرا بصفة خاصة بين الأسر المالكة أو الحاكمة ، فقد كانوا يمارسونه لمجرد الرغبة فى نقاء الدم وحفظ النسب .

لم تصل المساواة بين الذكر والأنثى إلى اتمها فى أى شعب من الشعوب التالدة كما بلغت فى عهد قدماء المصريين ، لقد كانت الأم فى أول الأمر قطب دائرة العائله ، لها الحقوق دون الأب . لأن الأبوة واقعة مبهمة ، لايمكن ثبوتها ، بخلاف الولادة فانها حادثة ظاهرة سهلة الاثبات دائما ، فالطفل لايكون إلا ولد أمه ، ولذا كانت قوانينهم لا تفرق بين الأولاد

الشرعيين وغير الشرعيين ، وكان من نتيجة ذلك إتساع حقوق الأم ، بينما اقتصر حق الأب على التأديب ، كان للمرأة مطلق التصرف فى شئون العائلة والأبناء ، وكان إستقلالها منصوصاً عليه فى القانون ، فكانت تملك حق البيع ومباشره كل الأعمال القانونية الممكنة من غير حاجة إلى إذن زوجها ، وكانت كل ممتلكاتها تحت تصرفها وليس لزوجها أى حق عليها ، وكان لها فى الميراث نصيب الرجل ، فتأخذ الأخت من التركة النصف ولأخيها النصف الآخر .

كانت البنت لا تحرم من تلقى العلم فى منزلها متى كان لديها إستعداد لذلك ، فكانت تتعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وإن كان هذا لم يتعد حدود التعليم الأولى فقد كان لهن أكبر معوان على تربية أولادهن فى أدوار الحياة الأولى .

كانت للمرأة المصرية حقوق كثيرة ومركز اجتماعي يؤهلها لأن تكون مساوية للرجل فى كثير من النواحى ، وكانت المرأة فى الطبقات الفقيرة تشترك إشتراكا فعلياً فى أعمال الرجل أما فى طبقة الاشراف فكانت تصحب زوجها للتنزه أو مشاهدة الملاهى وغيرها .

وقد حدث فى القرن السادس والسابع قبل الميلاد أن المرأة كثيرا ما كانت تشترك فى أعمال الكهانة وتتولى الوظائف الدينية حتى أن بعضهن أصبحن رئيسات لكهنة الآله آمون فى مدينة طيبة ، ولنا فى وجود آلهات فى الديانة المصرية القديمه دليل كاف على مقدار اعتراف قدماء المصريين

بمركز المــرأة وبضرورة التآزر بين الجنسين .

لم يصل إلينا من سجل الآثار ما يستدل منه على حقيقة عدد سكان وادى النيل فى عصر الأسرات ، ولقـد ذهب ديودورس إلى انهم بلغوا فى تلك العصور سبعة ملايين من الأنفس وإن عددهم لم يقل عن ذلك فى أيامــه ، وكان يتألف من هذا العدد حاشية الملك والكهنة والجنود وأرباب الوظائف وأهل العلم والتجار وأرباب الفنون والصناعات والمزارعــين والرعاة والنساء والأطفال وهلم جرا .

ولم يتكون من هؤلاء الأفراد طبقات اجتماعيــة تامة العزلة تفصل بينها الفروق كالتى فى الهند مثـــلا كما زعم البعض بل كانت المهن المختلفة تضم جماعات المحترفين بها ولم تكن وراثية محتمة ، أما الوظائف العليا لرجال الحرب والقساوسة ، فقد جعلت ارستوقراطية حقيقة ، ولكنهــا لم تكن طوائف خاصة ، إذ كان يستطيع كل إنسان أن يسموا إليها ، لأن المساواة كانت شائعة ولم يكن باب الترقى مغلقاً .

لم تتفق كلمة المؤرخين الأقدمين على عــدد الطوائف أو الطبقـات فى مصر فقد جعلهــا هيرودوت سبعة وهى : القساوسة وأهل الحرب والزراع والرعاة والتجار والمترجمون ورؤساء البوغاز ولكن ديودور لم يذكر منهــا سوى خمس وهى : القساوسة والمحاربون والرعاة والزراع والصناع .

والخلاف إنما يقع على الأهالى الملكيين فقد قسموا إلى طبقات بعدد المهن التى يحترفونها ، وهناك فرق اجتماعى يفرق

بعض التفرقة بين أهل الأرياف وأهل المـــدن ، وكانت بعض الطوائف فى المدن لا تتخالط فتقطن الطوائف أحيـــاء مختلفة .
وكانت طبقـــة الدينيين والمحاربين متمتعة فى مصر بامتيازات خاصة فلهما وحدهما مع الملك الحق فى امتـــلاك أراضى ولا يكون الزراع حتى الموسرين منهـــم إلا مستأجرين ، وكانت أراضى وادى النيـــل منقسمة إلى ثلاثة أقسام ، ثلث يملكه الملك وثلث للمحاربين وثلث للكهنة .

كان لهيئة الكهنوت إتحاد وترتيب ونفـــوذ أدبى عظيم . فالكهنة بازاء الأهالى امثلة الفضائل الذين يدعون إليهـــا . ومن أول صفاتهم العلم والورع والقناعة والنظافة ولباسهم ثياب الكتان ، فاذا زخرف دل هذا على مركزهم الكهنوتى .

ولم تكن خدمة المعابد منذ أقدم العصور وقفاً على طائفة الكهنة فقط بل كانت حقاً مشاعاً لكل أفراد الأمـــة ، حقاً كان لكل معبد خدمة خاصون به ، يقدمون الضحايا ويعنون بالمعبد ، غير أنه كان لكل فرد من الأشراف فضلا عن وظيفته الدنيوية وظيفة أخرى دينية . فكان القضاة مثلا كهنة (معت) آلهة العدل ، وكان حكام الأقاليم غالباً رؤساء كهنة المعبودات التى تحمى اقليم كل منهم .

كان عدد الكهنة الرسميين فى عهد الدولة الوسطي لا يزال قليلا بالقياس إلى غيرهم ، ففى معظم الأحيـــان كان للمعبد كاهنان فقط ، وإذا زاد فلا يتجاوز الخمسة ، يضاف إلى هؤلاء طبعا عمال من الدرجات الصغرى ، كالبوابين والحراس والفعلة

على إختلاف أنواعهم.

كان عند المصريين عـــدا الكهنة الرسميين جيش جرار من الكهنة غير الرسميين أو كهنة الساعـــة كما كان يطلق عليهم، كانت تضمهم جماعة منتظمة دائمة تنتسب إلى المعبـــد. وتقسم كل جماعة إلى أربعة فرق تقوم كل منها بخدمة المعبد مدة شهر بالتناوب، فتخدم كل واحدة ثلاث نوبات فى العام. ولاشك إنهم كانوا يعدون فى الحيـــاة الملكية فى صف الكتاب أو المستخدمين، وفى حين كان الكهنة الرسميون يتمتعون بمرتبات عظيمة يجبونها من دخل المعابد الوفير، كان كهنـــة الساعة يتقاضون مرتبات ضئيلة جداً، والواقـــع أن الجزء الأعظم من دخلهم كان من وظائفهم المدنية. ولكن أخذ شأن هـــذه الطائفة يضعف شيئاً فشيئا حتى جاءت الدولة الحديثة وعظم شأن الدين، فأدى ذلك إلى إنفصال فرقة كهنة الساعة من عـــداد الكهنة المصريين وقصرت كل أمور العبادة على الكهنة الرسميين وأصبح لا ينازعهم فيها منازع، فأخـــذ عددهم يزداد زيادة عظيمة، فان كثيراً من الأعمال التى كانت من واجبات كهنة الساعة انتقلت بطبيعة الحال إلى الكهنة الرسميين، فأخذ نفوذ الكهنة يتسع، حتى انه بعد موت آخر الرعامسة لم يكن أمامهم عقبات تذكر فى تولى العرش، فقام أحدهم فعلا ونحى بوارث العرش جانبا وتقلد هو تاج الملك. وهـــذا الحادث يعد فى تاريخ الكهنوت المصرى قمة ما وصل إليه رجال الدين من الجاه، وهو وان لم تدم مدة حكمهم طويلا، دليـــل قاطع على

تغلب رجال الدين على الساسة ، وكان فى ذلك القضاء الأخير على العظمة القومية .

يأتى بعد الكهنة رجال الحرب ، ولم يكن لهم فى عهد الامبراطورية القديمة طبقة خاصة بهم بمعني الكلمة ، فبعد إنقضاء الحرب يعود الجنود إلى الحياة الملكية ، ثم تألف الجيش النظامى بعد طرد الهكسوس وفى عهد الفتوحات ، وأخذ يرتقى شيئاً فشيئا .

كان للرجل المندمج فى الطبقة الحربية الحق فى احتلال أرض يعينه دخلها على تجهيز نفسه ، فيجب أن يعد أسلحته وعتاده ، وكان للملك حرس خاص يغير أفراده كل سنة ، أما الجنود الأجانب الأجراء فلا يملكون شيئا من الأراضى ولكنهم يعطون أسلحتهم وملابسهم الرسمية ، وكان عددهم فى أول الأمر قليلا ، محتقرين من الأهالى ، ثم أخذوا يزيدون شيئاً فشيئا فى الأهمية ، وعلى الخصوص عند ما ميزهم وأعزهم بسامتيك وأعقابه .

ويقسم الأهالى الملكيون إلى جماعات لها أسماء مختلفة وأهمها هيئة كتاب الملك والمزارعون لأن مصر عنيت أكبر عناية بالزرع ، وأخذ بأسبابه ملوكها فكثيراً ما صوروا ويدهم على المحراث تشجيعا للزراعة .

كان الكتاب أكثر الطبقات الملكية امتيازاً وذلك لأن المصريين إهتموا بأمر المعارف ، لذلك منح الملك لطائفة المتعلمين أى الكتاب تصريحاً بأن يأكلوا من الشون الملوكية هم وعائلاتهم ، وجميع اللائذين بهم بدون مقابل ، ولم يكن

يستطيع إنسان الحصول على أعمـــال فى الادارة أو الجيش إلا بالتعليم ، وكثيراً ما كان يطلق لقب الكاتب على كل عظيم عنده خزانة كتب، ولو أن التبحر فى العلم كان قاصراً على القساوسة .

كان العمال والمزارعون يكونون الجزء الأكبر من السلسلة الفقـــرية للأمة ، ولكنهم كانوا بحكم العـــادة شديدى المحافظة .

ولم تكن الصناعات بمصر وراثية . إلا أن التغليب جعل الأبناء يأخذون بمهن آبائهم ، أما الأعمـــال الشديدة الشاقة كأعمال المناجم ، وتشييد المعابد ونقل الأحجار ، فقد كان يتولاها أسرى الحـــرب والأرقاء ، ويرسل المجرمون عادة إلى المناجم لمواصلة عملهم بلا انقطاع ، وإلا أصابتهم عصـــا الرقيب ، ، ورغم أن هؤلاء الرقيق كانوا يحكمون بنظام قريب من نظم الرق ، إلا أنهم كانوا تحت حماية قوانين حـــددت سلطة أسيادهم عليهم .

كان العمال يتقاضون أجورهم أصنافا ذات قيم محـــدودة من المحاصيل ونحوها ، كل بقدر عمله ، ولم يكن هنـــاك فارق بين أرباب الصناعات وجمهور الفلاحين ، وكان من حقهـــم الشكوى إلى فرعون ، وكان ينتدب لذلك أحد مفتشيه للتجول فى الأقاليم لتحقيق شكواهم .

العصر الاغريقى الرومانى

الحالة السياسية

اذا قورنت الحضارة الاغريقية بحضارة مصر وبابل ، نجدها أقصر منها عهداً : فلا يدوم أزهى عصورها أكثر من مائتى سنة ، اذا اعتبرنا المدة بين سولون والاسكندر الاكبر ، ولكن لهاتين مائتى السنة أثراً خالداً فى تاريخ الانسان ، ففى اثنائها ضرب الاغريق بسهم فى كل عناصر الحضارة من نظم سياسية وقانونية وفنون وعلوم وآداب وفلسفة .

والسبب الأول لقصر عهد الحضارة الاغريقية هو أن الاغريق على تفوقهم العقلى لم يعرفوا كيف يوحدون صفوفهم ، وتتجلى عظمتهم فى فنونهم وآدابهم وفلسفتهم ولا تتجلى فى سياستهم فقد اظهروا فيها قصر نظر كبير ، وتغليبا للعواطف المحلية على مصلحة الجنس الاغريقى كله .

أدرك الاسكندر ما عليه المدن الاغريقية من انقسام وما ساد بينها من شقاق . فاخضع سائر الاغريق لحكمه ، ثم أراد أن يزيد مجد اليونان بما يقوم به من فتوحات تحقيقاً لوحدة الجنس البشرى ، بعد ما وقفت الثقافة والعلوم فى طرف واحد من العالم بسبب استقلال المدن وتنافسها من أجل السيادة ، فعمل على قتل هذه الروح فى امبراطوريته وتركها وحدة مباحة ،

وعمد من أجل ذلك على انشاء خمس وعشرين مدينة لتكون مراكز للهداية والثقافة ، تشع بنورها على ماحولها من الاقطار والامصار ، وكانت الاسكندرية فى مصر أزهاها واعظمها ، وقد شيدت هذه المدن على الطراز الاغريقى وملأها بالروح والعقلية والثقافة الاغريقية ، حتى أنه أتى لها بالاهلين من بلاد الاغريق ، لتستطيع أن تكون من الاغريق دماً وعقلية وثقافة ، لأن الاسكندر كان الى حد بعيد يتفق وآراء سقراط فى أن التعليم لا الاصل هو الذى كون بلاد الاغريق ، وأن كل رجل متعلم ممكن أن يكون أغريقياً .

لقد كان من أغراض الاسكندر ازالة الفروق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الاغريق وغيرهم من الشعوب ، ومن ذلك عمد حين استقر ببابل الى مزاوجة الاغريق والمقدونيين من جهة والفرس من جهة أخرى ، حتى لقد احدث فى يوم واحد عشرة آلاف من هذه المزاوجة ، وأراد أن ينقل طبقات ضخمة من الفرس الى البلقان ، وينقل مثلها من البلقان الى الفرس ، لا يريد بهذا كله الا مزج الشعوب ، وازالة ما بينها من الفروق الجنسية .

دخل الاسكندر مصر فرحب به المصريون ، واعتبروه ابناً لآمون (١) فأسس الاسكندرية ، واذن لكثير من اليونانيين

(١) كان من عادة المصريين اذا تولى العرش ملك غريب عن مصر ، تزويجه بأميرة مصرية لان حقها فى وراثة العرش كحق اخوانها ، ثم ضعف شأن هذه العادة فى أواخر حكم الفراعنه ، فلما جاء الاسكندر اعتبر ابنا لامون رأسا ليصبح من حقه حكم مصر كما اعتبر من بعده بطليموس الاول وريث هورس .

والاسيويين واليهود أن يتوطنوا بها ، ثم ترك الاسكندر مصر بعد أن أوجد فيها تلك المدنية التى حققت أحلامه . فقد اصبحت الاسكندرية بعد بضع عشرات السنين من تأسيسها مركزاً لتجارة العالم بأجمعه ، ومحوراً للمدنية اليونانية ، وظلت ما ينيف على ثلاثة قرون أغنى واعمر مدن الأرض .

ولما توفى الاسكندر تولى الحكم بطليموس الأول ، أحد قواده ، فأسس دولة البطالسة سنة ٣٢٣ ق . م . ثم أخذ يمد فى سيادتها فغزا فينيقية وجزءا من سوريا واستولى على بيت المقدس وجزيرة قبرص ، فصارت لمصر بذلك السيادة البحرية فى البحر الابيض المتوسط . وقبل وفاته تنازل عن الملك لابنه بطليموس الثانى الملقب باسم فيلادلف سنة ٢٨٥ ق . م ، وكانت مصر بعيدة فى عهد حكمه عن الحروب والثورات ، فتقدمت البلاد من جميع النواحى ، وابتدأت منذ ذلك العهد تنشأ بين مصر وروما علاقات الصداقة . فارسل بطليموس الثانى وفدا الى روما ليخطب ودها ، فرحبت روما بوفد مصر . وفى سنة ٢٤٦ ق . م . توفى بطليموس الثانى فخلفه ابنه بطليموس الثالث ، وفى أيامه امتدت املاك مصر الى ما كانت عليه فى أيام الفراعنة ، ضمت قيرينيقية (برقة) الى مصر ، واخضعت سوريا ووصلت الفتوحات حتى نهر الفرات ، وقد وجد فى بعض آثار هذا الملك أنه وصل فى فتوحه أيضا الى بابل وفارس وميديا ، ومضت على مصر برهة من الزمن كونت فيها دولة واسعة الارجاء ، فاصبحت ممتدة من شواطىء بلاد الاغريق شمالا ، الى اتيوبيا

جنوبا ، ومن قرينيقية غربا الى الحدود الهندية شرقا .

غير أن هـــذه الممالك اخذت تنفصل عن الامبراطورية المصرية شيئا فشيئا ، فاسترد السوريون جميع الاراضى الشرقية من بلادهم ما عـدا أقليماً صغيراً ، فاكتفى بطليموس بالمحافظة على ممتلكاته الغربية والبحرية ومد سلطانه فى داخل بلاد النوبة .

وبعـــد بطليموس الثالث تولى الملك بطليموس الرابع والخامس فالسادس ، وفى أيامهم استولى الضعف على مصر ولم يبق لها من أملاكها سوى قبرص وقيرينيقية ، وكاد يقضى عليها لولا حماية روما لها ، وكانت روما اذ ذاك قد قويت شوكتها ورأت من مصلحتها حماية مصر ، فبقيت منذ ذلك التاريخ صاحبة الشأن فى سياستها الخارجية ، لذلك ضعف مركز مصر السياسى فى هذه الفترة ، ومعظم الملوك الذين تولوا حكمها فى هـذه المدة كانوا مستضعفين ، وكثيراً ما قتلوا اخوتهم واقاربهم للانفراد بالملك ، وما زالت مصر على هذه الحالة حتى كانت وفاة بطليموس الثالث عشر فخلفته ابنته كليوباترا ســـنة ٥١ ق . م واشركت معهـا فى الحـكم أخيها بطليموس الرابع عشر .

وفى ســـنة ٤٨ ق . م . وصل يوليوس قيصر الى مصر ، ففض النزاع الذى كان قائما بين كليوباترا واخيها ، ثم قامت بعض الجيوش المصرية لمقاتلة قيصر ، فتمـكن من التغلب عليهـــا ، وفى أحد الوقائع غرق بطليموس الرابع عشر فتولى الحـكم مع كليوباترا أخوها الثـــانى بطليموس الخامس عشر ، ولـكنه لم يستمر كثيرا فقد مات بروما سـنة ٤٤ ق . م وفى نفس السنة

قتل قيصر ، فقام انتونى واكتافيوس للثأر من قتلة قيصر ، فاشتبكت مصر فى حرب الاحزاب الرومانية ، وانضمت كليوباترا الى اعداء انتونى واكتافيوس ، وأراد الأول معاقبتها على ذلك ، ولكنه أحبها حباً شديداً وأقام معها فى مصر ، فقام النزاع بينه وبين زميله اكتافيوس فى واقعة اكتيوم البحرية سنة ٣١ ق .م فانتحر انتونى وكليوباتره وصارت مصر منذ ذلك التاريخ ولاية رومانية .

اهتم اكتافيوس بعد انتصاره فى اكتيوم فى وضع النظام السياسى على أساس ثابت ، فتجنب التلقب بلقب دكتاتور واكتفى بلقب اجسطوس وغير نظام الحكم بأن أخرج معظم الاقاليم من سيطرة السناتو ووضعها تحت حكمه مباشرة ، وقد كانت مصر من الولايات التى من هذا النوع ، ليس للسناتو الحق فى التدخل فى شئونها .

كان حكم الرومان لمصر حكما عسكرياً محضاً ، فلم تعد مصر فى أثنائه مركزاً للحضارة الرومانية كما كانت فى أيام البطالسة مركزاً للحضارة الاغريقية ، غير أن افاضل القياصرة اهتموا بحكم البلاد حكما عادلا ، وبالعناية بموارد الثروة والتجارة ، أما ضعاف القياصرة فقد قاست مصر فى عهدهم كثيراً ، فكانت تقوم الفتن الكبيرة بين الاجناس المختلفة الساكنة فى مصر وعلى الأخص فى الاسكندرية بين اليهود والاغريق ، أو يحاول عندئذ ذوو الاطماع من القواد الرومان الاستقلال بمصر ، أو يحاول المصريون رفع النير عن أعناقهم ، كان ذلك

يؤدى إلى سفك الدماء والفوضى وفقر البلاد .

وكان المتبربرون ينتهزون فرص الفوضى للاغارة على حدود البلاد ، وبلغ الامر أن تمكنت مملكة صغيرة من الاستيلاء على مصر وحكمها سنتين ، هذه هى مملكة تدمر الواقعة فى الصحراء بين سوريا والفرات أيام ملكتها المشهورة زنوبيا .

ومما زاد حكم الرومان سوءاً انتشار المسيحية ، التى وجدت مقاومة شديدة من الحكومة ، وكان اسوأ الاضطهاد ما وقع أيام دقلديانوس ، ولما اعترفت الحكومة بالمسيحية انقلب الاضطهاد بين المسيحيين انفسهم ، فكانوا شيعتين اليعاقبة والملكانيين .

كان لجميع هذه الثورات تأثير سيء فى حالة مصر ، فتأخرت الزراعة ، وأخذ الفقر يدب فى البلاد ولم تقوى على دفع ما فرضته الحكومة عليها من الضرائب ، فكره المصريون حكم الرومان ولم يسؤهم توغل الفرس فى مصر وفتحهم الاسكندرية سنة ٦١٧ م . ولكن لم يدم حكم الفرس طويلا ، فقد قام الامبراطور هرقل واجلى الفرس عن ممتلكاته ، فعاد اليها الرومان سنة ٦٢٨م . وظلوا بها حتى دخلها عمرو بن العاص سنة ٦٤١ م .

الحالة الادارية

لما استقر الاسكندر بمصر ولى عليها مصريين للحكومة والمالية دولاسبيس وبتيسيس ، ثم استقال الثانى فاستقل

الأول بالحكم على الدلتا وباقى أراضى مصر ، وولى الاسكندر أيضاً على ليبيـــا والعرب مقدونيين أبولونيوس وكليومانس لحراسة الحدود ، فاستبد الأخير بالسلطة واتسع نفـــوذه حتى احتكر التجارة بمصر وفرض ضرائب باهظة على صادراتها .

قسمت مصر بعد ذلك إلى أقسام إدارية nomes كان على كل منها حاكم stratège وكانت له فى أول الأمر صفة حربية ثم أصبحت مدنية ، وكان حكام كل الأقاليم يخضعون للحاكم الأكبر épistratège ، وهناك أيضاً سكرتير الدولة وحامل الأختـــام وناقل أوامر الملكة ويسمونه l'épistolographe وهو أكبر الموظفين ، له صفة دينية ، وكان يعتبره المصريون بمثابة الكاتب العظيم أو رئيس الكهنة وفقاً للتقاليد الفرعونية .

أما مدينة الاسكندرية فكان لها إدارة مختلفة جداً عن باقى الأقاليم ، ويلوح أنه لم يكن لها فى أول الأمر مجلس ينظر فى شؤونها ،كان يحكمها قائد المدينة وكان لا يعمل إلا عنـــد غياب الملك ، ثم أصبح عمله مستمراً ، وكان يليه ضابط المدينة prefectus urbis وأغلب الظن أنه كان رئيساً للبوليس لا قائداً حربياً للمدينة ، وكان بين كبار الحكام القائمين بالادارة المفتى l'exégète ويمثل التقاليد الوطنيـــة ويسهر على مصالح المدينة ، وهو أكبر كاهن لعبادة الاسكندر ، والارشيد كاست أو كبير القضاة والهيبومنماتوجراف أو السكرتير العام ، وقائد جيش الليل والألبارك وهو بمثابة ضابط مالى .

كانت سياسة الاغريق فى مصر بسيطة منحصرة فى تعميم

اللغة الاغريقية وتحصيل ضريبة عن كل شخص ، ولكنها مقابل ذلك سمحت ببقاء العقائدالدينية على ماهى عليه ، ولقد نجحت فعلا سياستها فيما يتعلق بتعميم اللغة الاغريقية ، فقد سميت الأقاليم والمدن والقرى باسماء اغريقية ، وعندما وصل تأثير الاغريق إلى أعلاه ، أطلق كثير من المصريين على أنفسهم أسماء اغريقية أو صبغوها بصبغة هذه الأسماء ، كذلك كانت الأوامر الملكية تعلن باللغة الاغريقية ، وكانت أحيانا تترجم إلى الهيروغليفية ، كما أن العقود الشخصية المتعلقة بالشؤون العادية ، كعقود الايجار والعمل والنقل كانت تكتب بالاغريقية .

أما فيما يتعلق بالشؤون المالية فلم تتغير كثيراً ، فقد بقيت جميع الضرائب التى فرضها قدماء المصريين على رعاياهم على ماكانت عليه ، وكذلك نظم الاحتكار واستثمار الأراضى الملكية ورئاسة القصر الدينية بقيت كما كانت .

الواقع أن مصر كانت فى عهد البطالسة فرعونية فى الوجه القبلى ، إغريقية متصلة بثقافة البحر الأبيض المتوسط عند سواحلها .

ولما دخل الرومان مصر ، طلب أغسطوس ولاية مصر وغيرها باسمه بعد أن كان القانون قبل سقوط الحكم الجمهورى لا يبيح إقامة حاكم بأملاك الرومان ، إلا من أعضاء السناتو وبذلك خرجت الولايات من حكم السناتو لحكم اغسطوس الذاتى فصار يقيم لها من شاء نائباً عنه ، وبينما كان الحكم الرومانى يترك لأكثر الولايات إستقلالها الادارى ، لم يستعمل الرومان

من المصريين لادارة بلادهم إلا من كان لا بدمنه كالمفتى الدينى .

لم يغير الرومان كثيراً فى الادارة فظلت الوظائف الادارية كما هى تحت أسماء إغريقية ، إلا أن التغيير كان عظيما فى عدم وجود ملك ، فكان الحكام الزمنيون لا يميلون بل ليس من إختصاصهم القيام بالوظيفة الملوكية فكان تغيير الحكومة تغييراً فى الأسرة الحاكمة لاغير . ظل الحاكم يقوم بنفس العمل الذى كان يقوم به وزير الملك فى عهد قدماء المصريين .

كان الحاكم prefect مطلق السلطة . لا يحــدها إلا أوامر الامبراطور الرومانى فكان رئيساً للادارة والماليــة والقضاء والحربية ، كان الامبراطور يحدد مجموع الضرائب الواجب فرضها ، ولـكن الحاكم كان مسئولا عن جمعها ونقلها إلى روما ، فكان يراقب محصلى الضرائب وغيرهم من العمال المساعدين خوفاً من تهاونهم مما يؤدى إلى نقص دخل الدولة ، وكان يقــرر أيضاً الأحــوال التى تعفى فيها من الضرائب الجمعيات والأفراد .

وكانت واجبات الحاكم القضائية تشمل جميــع القضايا نظرياً ، مدنية وجنائية ، وكان ينظر فيها فعلياً عماله النائبون عنه فى السلطة . ولـكن كثيراً من المسائل القانونية كانت تعرض عليــه لتسويتها ، كطلبات تعويض الخسائر فانهــا تقدم إليــه مباشرة .

وكانت جميع القوى الحربية فى مصر تحت إدارته تعرض عليه شكواها ومنازعاتها ليقرر فيها ما يرى .

وكان تعيينه بادارة الامبراطور لمدة غير محددة ، وأطول مدة قضاها حاكم فى مصر هى التى قضاها فيتراسيوس بوليو فقد مضى ستة عشر عاماً بمصر ، وكان يعاونه مجلساً من الرومانيين يعقدون اجتماعاتهم فى مكان خاص proetorium .

وفى عهد الدولة البيزنطية حل البطريق محل الحاكم فى إدارة الشئون ، وكان يساعده كبير الأقباط (ذيموتكس) .

كان النائب المباشر للحاكم والمسائل القضائية يسمى dikaiodotes وكان يجول معه ويخلفه فى غيابه ، وكان عمله ينحصر فى النظر والحكم فى القضايا التى بحثها القضاة ثم أحالوها عليه ليحكم فيها نهائياً ، وكان أغلب حكام مصر لا يعرفون كثيراً الاجراءات القانونية ، لذلك كانوا محتاجين إلى معونة هذا النائب ليعاونهم فى عملهم القضائى ، وكان كالحاكم يعينه الامبراطور نفسه من رعايا الرومان .

وكان الموظف القضائى الوحيد الذى لا يتعدى إختصاصه دائرة القضاة يسمى archidikastes ، وكان قاضياً محلياً للاسكندرية . ولكن كان له اختصاص فى القضايا المدنية لجميع نواحى البلاد ، كما كان له سلطة على ارشيف الاسكندرية وكان القاضى الوحيد الذى تعرض عليه جميع القضايا المدنية التى تحتاج إلى الرجوع إلى المستندات المحفوظة بالارشيف وكان أيضاً رومانياً .

وكان ينوب عن الحاكم مباشرة ثلاثة نواب epistrategai يقومون بنفس العمل الذى كان يقوم به المبلغون فى عهد

قـــدماء المصريين ، يعينون على الأقاليم تبياسى وهيبتانوميس وارزينويت ، وكانوا رومانيين تعينهم روما ، ينوبون عن الحاكم فى كثير من السلطات التى يباشرها اسمياً ، كانوا بمثابة قضاة رئيسيين ومفتشين ماليين ، ولم تكن لهـــم سلطة حربية اللهم الا على الجنود الذين يستخدمون للواجبـــات الشرطية ، وكانوا مطالبين بارسال بيانات إحصائية عن الضرائب والسكان وما شابه ذلك .

كان يخضـــع لهم مباشرة الحـــكام المحليون أو المآمير strategos وكانوا مصريين ، ومدة حكم كل منهم لا تتعدى ثلاثة أعوام منعاً للاستقلال بالسلطة .

ومن موظفى الدولة ذوى الأهمية ، الكاتب الملكى scribe وكان الساعد الأول فى جمع الضرائب ، وتدوين كل ما يتعلق بالاجراءات القضائية ، والنظار nomarchs وكانوا يراقبون جمع الضرائب ، ويعتبرون عماد الحكومة فى معرفة الشؤون المالية الخاصة ببلدانهم ، ويحفظ جميع المستندات الرسميـــة المتعلقة بالاقليم أمين دار المحفوظات bibliophylakes وترسل إليه بيانات مقادير دخل أصحاب الأراضى ، وعقود نقـــل الملكية . وكان شيوخ البـــلد elders مسئولين عن الادارة العامة وينتخبون من أصحاب المراكز ، بحيث يجب أن لا يقل دخلهم عن اربعمائة دراخمة ، وهم واسطة الحكومة فى تحصيل الضرائب عن قراهم ، ومسئولون عن سلامة السكان يساعدون الحكومة فى القبض على المشاغبين ، وتقديم المعلومات المتعلقة

بهم . وكاتب القرية مسئول عن كل المعـــلومات التى تطلبها الحكومة ، يحرر كشوفات بعدد سكان القرية وممتلكاتهم من الأرض ومزروعاتها وكل مايتعلق بتحصيل الضرائب ، وكان يساعده فى جمع الاحصاءات loagraphoi والمسجلون agoranomoi من موظفى القرى ، وأهم أعمالهم تنفيذ وتسجيل العقود ووثائق الميراث وجميع المستندات القانونيــة ، وتحرر العقود بحضورهم فى مكان خاص لذلك grapheion ، أما إدارة البوليس فكانت تحت مراقبــة اثنـين يسميان eirenarchai ينوب عنهم فى كل قرية archephodoi .

الحالة الاقتصـادية

غزا البطالسة فى أول حكمهم فينيقية وجزءاً من ســوريا واســتولوا على جزيرة قبرص ، وغير ذلك من الاقطار التى زادت فى اتساع نطاق دولتهم ، فصـــارت لمصر بذلك السيادة البحرية فى البحر الابيض المتوســط ، ثم أنهم جددوا الخليج القديم ، الذى حفرته الفراعنة من قديم الزمن ليوصـــل بين النيل والبحر الاحمر ، وأعادوا ســلوك الطريق التجارية بين قفط والبحر الاحمر مخترقة وادى الحمامات ، وشيدوا لها من المعاقل ما جعل ســبر القوافل التجارية فيها سهلا مأموناً ، ثم شيدوا منارة الاسكندرية لهداية السفن ، وعمل البطالسة أيضاً على ربط مصر بمناطق المحيــط الهندى ، فابتدأت الرحلات الاستكشافية فى عهد سوتر وأسست فى أثناء حكم بطليموس

فيلادلف وايفرجت عدة وكالات تجارية على طول شواطىء البحر الأحمـــر .

كانت تنقل بضائع افريقيا والشرق النادرة والثمينة الى عاصمة مصر ، وتصدر منها الى أوربا وباقى ممالك البحر الابيض والبحر الاسود ، وكانت تجارة الصـــادر تفوق تجارة الوارد ، التى لم تكن إلا مواداً أولية ترد للصناعة ثم تصدر ، كانت أهم الصادرات المصنوعات الزجاجية ، والكريستال والبردى والملابس الكتانية والسجاجيد ، والعاج والحلى والاوانى الثمينة ، والعقاقير والغلال واللحوم المملحة واللعب والعبيد والحيوانات النادرة والمتوحشة وأخيراً الكتب .

لهـــذا كله اتسعت ثروة البلاد وتقدمت التجارة المصرية حتى وصلت الى بلاد العرب والهند شرقا ، والى اتيوبيا جنوباً أما البحر الابيض فكانت تجارة مصر به ذات شأن عظيم وعلى الخصوص مع بلاد الاغريق وكثير من البلاد الاخرى التى على شواطئه الكثيرة وأهمها روما التى ابتدأت علاقاتها التجارية مع مصر منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان هناك خط عظيم للملاحة بين بوزولس الميناء الرومانية والاسكندرية .

ومن الاســـباب المهمة فى رواج التجارة المصرية فى تلك العصـــور وجود الكثيرين من الاسرائيليين بالاسكندرية ، وتمتعهم هم وغيرهم من الماليين بمزايا تجعلهم لا يضنون باستخدام أموالهم فى التجارة . بفضل استتباب الامن فى البلاد ووجود جيش وأسطول حربى يحميان مصالح التجار ويضمنان لاموالهم

السلامة ، لذلك وصلت تجارة البنوك درجة عظيمة من التقدم فكان بالاسكندرية بنك مركزى لمصر كلها . كما كان فى جميع المدن المهمة بنوك عديدة .

أما النظام الاقتصادى للملكية فظل فى عهد البطالسة كما كان عليه فى عهد قدماء المصريين ، فبعد أن كان الملك سيداً على الارض بحكم سيادته الدينية أصبح سيداً عليها بحكم الفتح ، كانت الاراضى التى يملكها الملك مكونة من الاقطاعات التى أصبحت حرة بزوال الأسياد ، أو من الاستقطاعات المستمرة من الاراضى الكهنوتية ، وكان يزرع هذه الاراضى فلاحون يدفعون سنويا ضريبة عينية من الغلال ، ويصعب فى الواقع التمييز فى هذا العصر بين دخل الخزينة والثروة الملكية .

أما الممتلكات الخاصة فليس لدينا أى معلومات دقيقة عنها فقد تكون امتيازا منحها الملك للسكان المقدونيون ، أو أراضى تخص بقايا الجيش المصرى ، وكل ما يمكننا معرفته عن نظام هذه الاراضى لا يستند الا على الضرائب التى كانت مفروضة ، أو النقود المسجلة ، أو القضايا والمخاصمات .

ويلوح أن أصحاب الممتلكات الخاصة كان لهم مطلق التصرف من بيع وايجار ، غير أن أراضيهم كانت خاضعة لاحكام الاموال الاميرية ، فيما يتعلق بالضرائب الواجب دفعها عند التسجيل .

وفى القرن الاول للحكومة الرومانية تحسنت حالة مصر الداخلية ، ولكن الحالة الاقتصادية لم تكن على ما يرام ،

فقد اضمحلت الزراعة والتجارة فى أواخر عهد البطالسة كما أدى الانتقال الفجائى للثروات المنقولة التى تملكها العائلة المالكة وهى بمثابة رأس مال باهظ الى زيادة سوء الحالة . ظلت الضرائب كما هي ، بينما كانت الكميات العظيمة من الغلال تصدر كجزية ، وكان سعر الفائدة مرتفعاً ، فقد بلغ نحو ١٨ ٪ ولكنه أخذ ينخفض حتى أصبح نحو ١٢ ٪ ، وعلى العموم فان جميع الدلائل تثبت سوء الحالة وقلة النقود .

ثم أخذت حالة مصر تتحسن . فاتسعت تجارة مصر الخارجية بتنمية حركة تجارة البحر الاحمر مع الهند والشرق ، وتقدمت الصناعة والتعدين على يد كلوريس، وشجعت الحكومة الزراعة بتحسين وسائل الرى وتطهير الترع .

ومنذ أواسط القرن الاول للميلاد حتى أواخر القرن الثانى كانت التجارة فى اتساع مستمر . حتى وصل التجار الرومانيون فى حكم اورليوس الى الصين ، كما اختصرت المسافة الى الهند باكتشاف الرياح الموسمية ، والاقلاع عن محازاة الشواطىء فى السفر الى عبور البحر الاحمر مباشرة من خليج العرب حتى الهند ، وقد بلغ مقدار الواردات من العرب والهند نحو مائة مليون سسترس ، ومما ساعد أيضا على تقدم التجارة تجديد القنال الممتدة بين النيل والبحر الاحمر على يد تراجان ، كل ذلك أدى الى زيادة الثروة وانخفاض سعر الفائدة الى نحو ١٠ ٪ .

وفى القرن الثالث للميلاد أخذت حالة مصر الاقتصادية

فى الاضمحلال ، اذ زادت الضرائب حتى اضطر كثير من الفلاحين الى هجر أراضيهم ، كما أن الحكومة أهملت الترع وارتفعت أسعار المحصولات . ولكن الفلاحون كانوا أبعد الناس عن الانتفاع بهذا الارتفاع لان اغلب ما ينتجونه كان يدفع مباشرة عيناً الى الحكومة بالمقدار لا بالقيمة . وأدى ارتفاع الاسعار الى ارتفاع الاجور .

وفى القرن الرابع للميلاد أصاب البلاد انتعاش وقى على أثر اصلاحات دقليديانوس ، وبعبارة أخرى وقفت ماليتها عن الاضمحلال ، فانتعشت التجارة مع الشرق وعقدت عدة معاهدات تجارية ومنع كونستانتين عادة الرعاية والتى كانت عبارة عن احتماء الجماعات المختلفة بشخص موثر أو ذى حيثية وهوغالبا من كبار الموظفين لكى يساعد المحتمين به فى الصعوبات التى تقع بينهم وبين الحكومة .

وفى القرن الخامس للميلاد تحولت أغلب الثروة الى الكنيسة المسيحية ، فاستولت الهيئات الدينية على مساحات عظيمة من الاراضى ، واخذ الرهبان يزرعونها ، وبلغت هذه الهيئات من القوة بحيث تستطيع مقاومة أى حركة فى غير صالحها من جانب الحكومة ، حتى اضطر هيفايستوس حاكم الاسكندرية الى منع عادة توزيع الغلال بين العامة ، فقد كان يوزع عليهم منذ عهد دقلديانوس نحو مليون مد سنويا فحصلت الكنيسة على ميزات خاصة فى التجارة ، وأصبح لها قسط عظيم من تجارة الغلال التي كانت رائجة بين الاسكندرية

والقسطنطينية ، وكان جوستنيان قد أعاد لها نظامها ورواجها ، وكان للكنيسة أيضا فوق ربح هذه التجارة وفوق ماكان الناس يهبونها طائعين مختارين ، أوقاف من أرض الزراعة تؤتى اموالا عظيمة .

ازاء ذلك كله كان جميع أفراد الشعب من غير الرهبان يلاقون الويل من جامعى الضرائب ومن اغارات القبائل .

ومنذ أوائل القرن السادس حتى أواخر عهد الرومان ، كان الزراع مجرد آلات لانتاج الغلال الذى أصبح صناعة مصر وثروتها الوحيدة . وانحصرت الثروة فى أيدى قليلة ، وأصبحت قرى بأكملها تحت رحمة الاغنياء واقتصرت كثير من المناصب على بعض الاسرات المثرية وجعلت وراثية فيها ، فكان من نتائج هذه الحالة السيئة عدم اهتمام المصريين بأى تغيير يحدث فى حكومتهم وعدم رغبتهم فى تقرير ما اذا كانت السلطة يجب أن تكون فى يد الدولة أو الكنيسة ، حتى بلغت بهم الحالة الى حد أن أى اضطهاد دينى لم يكن ليثيرهم ، ولم يقتصر الحال على ذلك فقد زادت الضرائب زيادة فاحشة ، وتعصبت الحكومة للاغريق فآثرتهم بكل منفعة ، مع أنهم ليسوا إلا عددا قليلا لا يمثل الامة تمثيل القبط الوطنيين .

كانت الضرائب من الكثرة بحيث أصبح كل شىء تقريبا لايخلو من ضريبة مفروضة عليه ، وكانت ضريبة الغلال (Embole) أهم الضرائب المفروضة فى مصر ، وكانت تحصل عينا من القرى ، فترسل الى روما كجزية لاطعامها ، ومن أجل

هذه الضريبة كان يحفظ سجل بكل منطقة مزروعة تحصل بموجبه الضرائب بالنسبة للمساحة . ولكى يستطيعوا تعيين المبالغ كانوا يراعون ارتفاع النيل ، فكانت الأراضى التى لم يصلها الفيضان تخف ضريبتها عن الأراضى التى وصلها الفيضان كليا .

كانت كل قرية متضامنة فى دفع مبلغ معين ، وكان هذا التضامن باعتبار أن ملكية القرية مشتركة ، ثم يقسم هذا المبلغ على نسبة ما يملكه كل فرد من الأرض ، وكانت هذه الضريبة تتراوح بين أردبين ونصف إلى سبعة أرادب عن كل وحدة مساحة aroura .

وكان الخولى sitologos ومساعديه يقومون بجمع الضريبة ، وكان مختصاً أيضا بالمستودعات العامة ومسئولا عن تقديم بيانات شهرية عن مقادير الغلال المخزونة إلى المأمور وكان المقدار المراد تحصيله من القرية ينتقل إلى النهر بواسطة الجمال ثم يشحنه الملاحون إلى مستودعات الغلال بالاسكندرية وجميع مصاريف الشحن حتى الاسكندرية يدفعها رؤساء القرية ، وكانت أراضى الاسكندرية (menelite) معفاة من هذه الضريبة .

كان الفلاح مخيراً فى دفع هذه الضريبة نقداً أو عيناً فى بعض الأحوال ، فكان يحصل الضريبة فى هذه الحالة الصراف praktor بدلا من الخولى ، وكان هناك أيضاً ضريبة كهذه تسمى annona الغرض منها مد الاسكندرية بما تحتاجه من غلال .

كانت الأراضى التى تنتج محاصيلا غير الغلال كالعنب والتين والنخيل والزيتون تدفع ضريبة نقدية ، وليس من المعروف تماما مقدار هذه الضريبة ، فبينما تبلغ عشر دراخمات عن الأرورا فى بعض الأحوال إذ نجدها من عشرين إلى أربعين فى أحوال أخرى . وكانت الأغنام كالثيران والخراف والجمال والمعز والحمير تدفع ضريبة ، فكانت ضريبة الجمل نحو عشر دراخمات .

وكانت المنازل تدفع ضريبة نقدية بمعدل ١٠٠ دراخمة عن المنزل ، وكذلك كانت أملاك المعابد تدفع الضريبة العادية وكانت هناك ضرائب على ما يقدم من العطاءات للآلهة بواقع ٤ ٪ من دخل المعبد فيها .

وكانت هناك ضريبة عن الأفراد يدفعها جميع سكان مصر من سن الرابعة عشر حتى سن الستين مع استثناء بعض الطبقات الممتازه كسكان الاسكندرية وبعض الكهنة . بلغت تقريباً نحو ستة عشر دراخمة عن كل فرد فى عهد نيرون وسبعة عشر فى عهد تراجان وعشرين فى عهد انطونيوس ، ويرجع غالباً سبب هذا الارتفاع إلى انخفاض سعر العملة . وكان يعمل إحصاء للسكان كل أربعة عشر عاماً من أجل هذه الضريبة .

وكانت تحصل من التجار ضريبة الدخل على أساس إيراداتهم الشهرية ، وكانت الرسوم الجمركية نحو ٣٪ ورسوم الدخول على الأشخاص نحو عشر دراخمات .

وكانت السخرة liturgy ضريبة ملزمة على كل شخص ولا يعفى منها إلا بدفع ضريبة توازى الأجر الذى يتناوله

العامل عن المدة المطلوب العمل فيها . وكان سكان الاسكندرية والرعايا الرومانيون والكهنة يعفون من هـذه الضريبة .

ومن الخدمات العامة المطلوبة ، العمل فى المراكب العامة التى تنقل الغلال ، وتصليح وتطهير الترع ، ويقوم الفلاحون بالعمل الأخير لمدة خمسة أيام فى كل سنة ويمنحون شهادة لذلك ، واذا لم يعمل أحدهم يدفع أجر خمسة أيام .

كان بجانب هذه الضرائب العديدة التى أثقلت كاهل الناس ، تكاليف أخرى غير مألوفة رزح تحتها المصريون ، وأخصها ايواء الموظفين الملكيين والعسكريين حين مرورهم فى الكور ، وتقديم ما يلزم لهـم من الحاجيات وتوفير وسائل الانتقال ليتسنى لهم بذلك اتمام سفراتهم ، وفى السنين الاخيرة من الحكم البيزنطى كان على المصريين أن يقوموا بتقديم غذاء الجنود .

ظل نظام الملكية فى عهد الرومان على ما كان عليه فى عهد البطالسة ، فظلت الاراضى مقسمة الى ثلاثة انواع ، الأراضى الامبراطورية واراضى الكهنوت والممتلكات الخاصة .

كانت الاراضى الامبراطورية تستغل بمعرفة الفلاحين إما بموجب عقود دائمة أو عقود حكر وتشمل الورثة وأما بعقود قصيرة لمدة سنة غالباً .

ولم يكن للزراع الحق فى اختيار الزراعة ، وكان ثلثا الارض مزروعا بالغلال . وقد قدر ديدورور سنة ستون قبل الميلاد

عقارات المعـــابد بنحو ثلث الأرض المزروعة ولـكنها كانت فى حكم الملكية الاسمية بالنسبة للمعابد ، لأن أغلبها كان ملحقاً بأملاك البطالســـة ، وكذلك ظلت الحكومة الرومانية تعمل على تحويل ملكية أوقاف المعابد .

أما الاراضى الخاصـــة فان الضرائب لما اصبحت باهظة ، لجأ صغار الملاك عنـــد ما عجزوا من مقاومة ظلم الحكام الى نظام الحماية ، وهو أن يهجروا وهميا أرضهم للحكام مقابل دفع مبلغ معين تخلصـــاً من الجور ، ويعفون مقابل ذلك من الضريبـــة .

الدين

كان لمصر أثراً عظيما فى الديانة الاغريقية التى يرجع كثيراً من أصولهـا الى الديانة المصرية ، ومن هذه الاصول ما يعرف باسم (أسرار الوزيس) وهو ليس سوى أسرار الآلهة ايزيس المصرية لابســـة ثوبا أغريقيا شفافاً ، كما أن الآله الاغريقى ديونيسوس ليس ســـوى الآله المصرى اوزوريس لابسـا ثوباً أغريقياً .

لذلك لم يجد جميع ملوك البطالسة غرابة فى التقرب للآلهـة المصرية ، فبذلوا جهد المستطاع فى جلب أنواع الخير الى الهياكل فلم يمسوا فى أول حكمهم الأموال التى كانت مقررة سنويا نقودا أو غلالا لخدمة الهياكل ، وما أوقف عليها من ضرائب الكروم والبساتين واهدوا الهدايا الفاخرة للآلهة فتاح وابيس ومنفيس

وسائر معبودات مصر المقدسة، وشيدوا بعض المعابد والهياكل على الطراز المصرى القديم.

ولكن ذلك لم يكن كافيا لكسب رضاء المصريين، فلم يجد البطالسة حلا لتكوين الوحدة السياسية غير التوفيق بين دياناتهم والديانة المصرية، فظهر من أجل ذلك معبود جـــديد يدعى سيرابيس جامعاً بين الآلهـــة ايزيس المصرية والآله زيوس الاغريق، وأعد له معبد السيرابيوم بالاسكندرية (١) ولما زاد نفوذ الاغريق دخلت مصر عبادة الأبطال، فدخـــل الحكماء الاقدمون بين زمرة الآلهة المصرية، بعد أن كانت صلة المصريين بهم صلة احترام وتعظيم لا أكثر.

لم تتأثر باقى الأقاليم بما طرأ على الدين من تغيير، فظلت ايزيس أقوى الآلهة على الاطلاق، وقد بقيت دونا عنها جميعا حافظة لخواصها المصرية.

ظل التسامح الديني موجودا فى عهـــد بطليموس الأول ولكن ما كاد بطليموس الثـــانى يجلس على العرش حتى اعتبر زوجته ارزيون بين زمرة الآلهة بعد موتها وبنى لها معبداً خاصاً بها بالأسكندرية.

ثم حول ضرائب الكروم والبساتين (Apomoira) وهى عبارة عن سدس المحصول، والتى كانت تدفع للمعابد المصرية

---

(١) وهناك دافع اقتصادى ساعد على هذا الامتزاج، فلم يكن عدد الاغريق كبيراً ولم تكن ثروتهم عظيمة حتى يستطيعوا بناء المعـــابد لآلهتهم، لذلك كان ايسر طريق هو عبادة الآلهة الموجودة. او عبادة أكثر الالهة شبها بالالهة الاغريقية.

الى صالح معبد زوجته ، ولم يكتف بذلك فوضع ضريبة على السفن واخرى على الخبز لهذا الغرض ، فكان ذلك أول تغيير فى أوقاف المعابد المصرية لصالح العرش ، واستمر البطالسة منذ ذلك الوقت يستولون على أوقاف المعابد التى كان يعيش منها جيش عظيم من خير طبقات الامة ، ولم يكن هذا الجيش مكونا من الكهنة الذين يقومون بشؤون المعابد فقط ، ولكنه كان يشمل أيضا نخبة من العلماء والمشرعين والاطباء والمهندسين والمحاربين وبعض رجال الطبقة الارستوقراطية ، وعلى العموم الطبقة العاملة فى الامة ، فأساء بذلك البطالسة الى مصر وحطموا اعظم طبقاتها نشاطا .

بينما كانت الديانة المصرية تئن من هذه الضريبة ، اذ باليهودية التى لا تملك غير التوراة تحاول النهوض على حساب هذه الكارثة ، فابتدأ اليهود فى عهد بطليموس الثانى يترجمون التوراة من العبرية الى الاغريقية ، فقد كانت اللغة العبرية تسير نحو النسيان ، بينما أخذت اللغة الاغريقية تنمو وتزدهر فرأى اليهود أن فى نشر التوراة بهذه اللغة احياء له فى قلوب عارفيها ، وغرسوا بذلك البذرة التى أنتجت الديانة المسيحية فيما بعد .

ولما أتى الرومانيون إلى مصر لم يجلبوا معهم أى أفكار دينية تختلف عن الافكار التى كانت موجودة فى مصر من قبل ، وربما كانت العبادة الرومانية الوحيدة التى امتازت عن بقية العبادات هى عبادة چوبيتر ، فقد شيدوا له معبداً بارزنوى ،

ولكنه كان مقتصرا على عبادة العائلة المالكة .

ولما اتسعت الامبراطورية الرومانية أخذ الدين الرومانى الوثنى يسير نحو الضعف ، وغصت الامبراطورية بالفلاسفة والملحدين ، وأخذ أشراف الرومان يسخرون من اربابهم فلم يبق من الدين القديم الا مراسيمه وظواهره ، ولما كثرت المهاجرات تداخلت الاديان فصارت العقائد الخاصة بأحدها تدخل فى الآخر ، وكثرت المظالم واصبح الفقر نصيب تسعة أعشار سكان الامبراطورية الرومانية ، ولكن نشأت بجوار ذلك عدة محاولات شديدة للمزج بين الفلسفة والمبادىء الشرقية الدينية القديمة ، لتكوين فلسفة دينية جديدة منهما يمكنها أن توصل الانسان الى الايمان والاطمئنان ، وبالتالى الى السعادة الانسانية المنشودة .

ولاجل أن يصير هذا المزج ممكنا ومقبولا ، قد تحتم اذ ذاك وجود قاعدة اساسية توصل الى ذلك ، وقد كانت هذه القاعدة سهلة الوضع بالفعل ، فقد صورها الفلاسفة حينئذ فى أن مصدر الفلسفة الاغريقية وينبوعها الأول هو عين مصدر المعتقدات الدينية الشرقية القديمة وينبوعها الاول أيضاً ، وهو الوحى السماوى وقالوا : كما أن الحقائق قد هبطت على العقل الانسانى من السماء كذلك الآراء والمذاهب الفلسفية الاغريقية الحرة قد فاضت على التفكير البشرى من عالم المعنى .

زادت القرابة بين الاديان والنظر الفلسفى وارتفع التنافر والتضاد بينهما ، واثبتت الفلسفة أن القوة الآلهية مبدأ الوجود

العام ، وفوق كل المدركات .

بهذا الفكر وما يتبعه من تهذيب العقيدة وتأويل الوحى وتحوير الآراء الفلسفية ، مهد الطريق لظهور المسيح وانتشار المسيحية ، التى التقى فيها الفكر الفلسفى مع الدين متحابين (١)

انتشرت المسيحية بين الناس لأنها ديانة البر والتسامح والغفران ، ولم يكن من السهل أن يؤمن الناس باليهودية ، لأنها كانت تقصر الدين الموسوى على اليهود كانهم شعب الله المختار ، بينما كانت المسيحية تقبل جميع الناس .

كانت المسيحية فى أول أمرها مستمدة من اليهودية (٢) وحدة الله وقدرته وخلود الروح وعقاب وثواب العالم الآخر ، وأهم ما جاءت به التعاليم الاخلاقية للمسيحية حب الله ، فمن الواجب أن لا نخشى الله فقط كما يفعل الوثنيون وقدماء اليهود بل يجب أن نحبه بكل عواطفنا كما يحب الابن أباه ونعمل كل ما نستطيع فى سبيل هذا الحب ، وكل الناس اخوة يجب أن يتحابوا ، حب جارك كما تحب نفسك ، حب من لا يحبك ، حب اعداءك ، لا تتعلق بمتاع هذا العالم ، لا تتطمع ولا تتكبر

---

(١) كان هذا الالتقاء وقتى لاختلاف طبيعة كل واحد منهما عن طبيعة الاخر فقد عادا فتنافرا وتعاديا ، ولكن التغلب الكلى والانتصار الفعلى كان على الدوام فى جانب الدين .

(٢) كان معتنقى المسيحية فى أول الامر من اليهود أهل ياسوع الناصرى . وكانوا يسمون النصارى . ثم لما شاعت المسيحية بين معتنقيها وذهبوا مذاهبهم فيها . كفروا أولئك اليهود القائلين بأن يسوع هو النبي المنتظر . ولما قرر مجمع نفيا كفر اليهود وكره الجمهور الانتساب للنصارى . انحصر هذا الاسم بعد ذلك بيهود الحبشة واليمن المتنصرين .

لأن الله يحب المتواضعين والمتألمين والتعساء .

أخذت المسيحية في الانتشـــار فدخلها كثير من العقائد الفاشية في ذلك الحين ، ويسر هذا التداخل على الناس الايمان بالدين الجديد ، فلما دخلت مصر على يد القديس مرقص حوالى سنة ٤٥ م . فى عهد نيرون وجدت فيهـا أرضـاً خصبة ، فاعتنق كثير من المصريين المسيحية لقـــلة الفروق بينها وبين العقيدة المصرية ، فحلت العذراء محـــل ايزيس وكانوا قبلا يصورونها كالنجم سيروس طالعاً على الشمس ، فصاروا يصورون العذراء فوق هلال صاعدة للسماء وحل الثالوث المقدس (الأب والابن والروح القدس) محل الثالوث المعروف فى الاسكندرية باسم (سيرابيس وايزيس وهاربوكريتس) وعنـــد باقى المصريين (باسم اوزوريس وايزيس وهورس) وظل المسيحيون يطلقون لفظة الله والتي ترجمتها بالهيروغليفية نيتر على آله عيسى . وظلوا يقدسون بعض الاشـــجار فقالوا بأن اللبخ هى شجرة يسوع المقدســـة ، لانها أظلته وابويه حينما أتوا مصر وسجدت له . وحل كهنة المسيحية محل كهنة ايزيس ، فظلوا يلبسون جبـــة الكتان البيضاء التى كان يلبسها كاهن ايزيس ، واستمروا يجزون الشعر من وســـط الرأس كما كان يفعل كهنة قدماء المصريين . وكان الكهنة فى طيبة يسمون حجاب باب السماء فصاروا فى عهد المسيحية يسـمون حاملى مفاتيح السماء . واختلط فى ذهن القسوس انفســـهم الصليب المسيحى بالعنخ المصرى ، والعنخ هورمز يرمز به الى الحياة ، كان المصريون يرسمونه فى قبر الميت

وظل الصليب يذكر فى الانجيل بانه رمز الحياة ، كما كان يرمز الى العنخ نفسه عند المصريين ، وقد رسم العنخ فى الكنائس القبطية كأنه هو والصليب شيء واحد ، ولم يجد المسيحيون تغييراً فى صورتهم التى تصوروها عن العالم الاخروى ، فان بوابة العالم السفلى المذكورة فى الفصل الاخير من الانجيل هى تلك البوابة النارية للعالم السفلى عند قدماء المصريين .

ظل المسيحيون فى مصر يحفظون موتاهم كما كانوا يفعلون قديما ، وكانوا يشعلون الشموع بمعابدهم المظلمة فصاروا يشعلونها بجميع الكنائس مظلمة أو منيرة ، وكان لهم عيد الشموع ، فصار عيد الشعانين ، وكان لهم عيد آخر يأكلون فيه الحلوى فصاروا يحتفلون بنفس هذا العيد فى السادس من كانون الثانى ، وهو اليوم الموافق للتقويم القديم ويسمونه عيد الظهور .

لم تتفق المسيحية الناشئة مع نظام الحكومة الرومانية الذى كان يرمى الى التشدد فى تقديس الامبراطور واكباره الدينى ، حتى أصبح أشبه بآله يعبد وتقدم له القرابين كما هو الحال مع الآلهة ، فكان تعصب المصريين للمسيحية شديداً لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه امبراطورهم على الرغم من مجهوداتهم الكبيرة مقاومة عنيفة وعنادا كبيراً وصلا الى حد الجنون ، فاعتبر المسيحيون خارجين على الدولة والدين الرسمى ، فلم يك بد من الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم

الى الوثنية وردهم الى الطاعة والخضوع للقوانين العامة ، فاسرف بعض الامبراطرة فى قتـــل المسيحيين وتعذيبهم اسرافاً شنيعاً جر عليهم السخط والكراهية ، وخصـــوصا دقلديانوس ، فقد كثر عدد من قتلوا فى عهده ، وتناول الاضطهاد جميع الطبقات وقد اصدر ســـنة ٣٠٣ م . منشورا امبراطوريا يأمر فيه هدم الكنائس وازالتها من الوجود واحراق الكتب المقدســـة وفصل الموظفين المسيحيين من خدمة الدولة وحرمانهم من حقوقهم الوطنيـة واعتبار جميع المسيحيين عبيداً ارقاء . فكره المصريون دقلديانوس وحنقوا عليـــه ، ورأوا فيه مثالا للظلم والاســـتبداد وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ م) .

دفع هذا الاضطهاد المصريين منذ أواسط القرن الثـــانى إلى اعتناق الرهبنة ، هذا وقد استمالت أيضاً طبيعة صحراء مصر من يرغبون فى الابتعاد عن العالم ، فنشأت الأديرة . وكان أهم هذه الأديرة بمنطقة وادى النطـــرون ، ويعتبر أنبابولا أول النساك وأبو الرهبنة المسيحية فى مصر . أما أقدم الأديرة فقد شيده الأنبا أنطونيوس الذى توفى ســـنة ٣٦١ م . وكان لدير القديس مقار المتوفى سنة ٣٩٤ م . وغـــيره من أديرة وادى النطرون شأن عظيم . وكان دير طينا أهم أديرة الصعيد ، وكان الكهنة يعيشون فيه كما كان يعيش قدماء المصريين ، وكانت به كنيسة على الطراز المصرى القديم . وبلغ عدد الرهبان فى القرن الخامس نحو خمسة آلاف وكان أشهرهم أنبا باخوميوس

(٣٤٨ م) وأنبا شنوده (٤٥١ م) .

بدأت الرهبنة مع بولا وأنطونيوس بالوحدة والانفراد ثم تدرجت مع مقار إلى شيء من الاجتماع والاشتراك وانتهت بالمعيشة فى جماعات منظمة مـــع باخوميوس وشنوده ، وذلك لأن عدد الرهبان بدأ صغيرا ثم أخذ فى الزيادة ، حتي أصبحت الأديرة لا تقتصر على الصلاة والعبادة ، بل كانت بهـــا دور واسعة للعلم والأدب والفلسفة ، وفيها مدارس زاهرة للصناعات والفنون ولو على قـلة ، وكان الرهبان تلامذتها الداخلية ، وأبناء العائلات المقيمين بالبلاد المجاورة تلامذتها الخارجين ، كان كثيراً من الرهبان بدير أبى مقار يشتغلون بالمعـــارف والآداب ، فهمتهم التأليف والتصنيف ونسخ الكتب ، أما فى أديرة باخوميوس وأنبا شنوده . فكان يتلقى الأفراد بمدارسها أصول الكتابة والقـراءة ، ولم يـكن التعليم قاصراً على الذكور بل كان يتناول الأناث أيضاً .

ولمـــا اعتنقت الدولة المسيحية ، أعترفت بالرهبنة فى مصر وسمحت للرهبان بامتلاك العقـارات والأراضى ومنحتهم حق الارث ، فأخذ يتســـع نطاق الرهبنة وتقـــوى شوكتها . ومما ساعد على ذلك اعفـــاء الرهبان من الضرائب والسخرة ، وكثيراً ما قاوموا الحكومة ، وبنى بعضهم صوامعهم على شكل قلاع ، ليدافعوا عن أنفسهم ضد غزوات القبائل عند ما تـكون الحكومة ضعيفة .

وأخيراً أصاب الرهبنة ما أصاب كل شيء فى مصر ، فقـد

أدى توالى الاضطهادات إلى الفوضى والتأخر الاقتصادى فانحطت جميع مظاهر النشاط فى مصر، وأخذت تبتعدعن أزمنة العلم وتسير نحو غياهب الجهل، فأصبحت الرهبانية التى نشأت فى أول الأمر لصالح الدين تقليداً أعمى لرهبان قدماء المصريين وصار الرهبان يستعملون الرقى ويفرطون فى الصوم للتفاخر به ولا يغتسلون وأصبحوا فى تأخر شديد مقيدين بقانون الرهبنة المطول . وأخذت المسيحية نفسها تبتعد عن غرضها الأصلى فقد كثر القديسون، وأصبحت الكنيسة هي الوسيط بين الفرد وبين الله . وأصبح لله شخصية منعزلة، لا يستطيع الانسان أن يتصل بها مباشرة (١) .

تركنا المسيحية مضطهدة فى عهد دقلديانوس، وقد ظل هذا الاضطهاد مستمرا حتى جاء قسطنطين (٣١٣ - ٣٣٧ م) وكان المسيحيون فى أيامه أكثر عدداً من الوثنيين، فاعتنق قسطنطين المسيحية سنة اعتلائه على العرش، فاصبحت المسيحية منذ ذلك العهد، وهى دين الكثرة، الدين الرسمى للامبراطورية .

ولما جاء تيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) حارب الوثنية محاربة شديدة، وفى عهده أصبحت الاسكندرية مركزاً عظيما لهذا الدين، فعهد إلى بطريقها تيوفيل محاربة وثني الاسكندرية فاخذ هذا يرغم الناس على اعتناق المسيحية ولم يكتف بذلك

---

(١) ظل هذا الاعتقاد سائداً فى العالم المسيحى اجمع ، ولم يتحرر منه الا على يد لوثر الذى انكر هده الوساطة ، وقال أن فى امكان الانسان أن يقف من الله موقف المناجى المباشر وانه ليس مهمة تقوم بها هيئة من الهيئات مثل الكنيسة أو الحكومة ، وانما هو مهمة فردية محورها الضمير الانسانى .

بل أخذ يهدم المعابد والآثار والتماثيل . ثم قصـــد المسيحيون السيرابيوم عند ما التجأ اليـــه بعض من الفلاسفة والنحويين والشعراء فراراً من بطش النصارى . وأخذوا يكسرون مذابح آلهة المصريين بعد أن أخرجوا ماكان فيه من الكهنة والعلماء ولما تم لهم الاستيلاء عليه حولوه إلى كنيسة سموها الأركاديوم وسلبوا ماكان على تمثال سيرابيس من الحلى والزينة ، وهشموه ورموا أجزاءه فى الطرق ، ثم حولوا كثيراً من المعابد إلى كنائس فغيروا وضع أبنيتها وقلبوا شكلها لتلائم الدين الجـــديد . واستمروا يضطهدون اتباع العقيدة القديمة ، حتى اضطر زعماء الفلاسفة إلى الانسحاب من الاسكندرية ، وأخيراً أحرقوا هيباتيا (٤١٥) فيلسوفة الاسكندرية المشهورة . لقد فعلت يد الدين الجديد فى معـابد دامت على الأرض آلاف السنين مالم تفعل بها عاديات الحروب والاغارات ، فلم يبق منها إلا ما عجزت يد المتدينين الجدد عن هدمه ، على انهم محوا من تلك المعابد الباقية صور الآلهة الأقدمين ، فلمـــا رجع المسيحيون إلى رشدهم ، لم يذكر مؤرخوهم هذا العمل البربرى ، ولكنه ظـــل رغم ذلك نقطة حالكة فى تاريخهم .

قامت المسيحية كغيرها من الأديان على الأوامر والنواهى الآلهية ، بعيدة من الناحية المنطقية عن الابهـــام والغموض والتعقيد ، فكان هذا سبباً فى أن تتسع لكثير من ضروب التفسير الاختيارى الذى لا يتقيد فيه مفسر بنص ولا قاعدة ، لذلك لم تتخل أمة من الأمم التى اعتنقت المسيحية عن عقيدتها الأصلية

إزاء الحق الانسانى ، ولم تبعد قيد أنملة عن انظمتها الاجتماعية وعن مظاهر حياتها ، لهذا قام نضال وصراع بين المسيحية وبين العقليات الشرقية والغربية . فكان الخلاف على طبيعة المسيح مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنسية فى القرون الأولى ، وكان لاختلاف المذاهب فى تلك المسألة أكبر الأثر فى النظر فى المعقولات ، وفى التأمل الفلسفى .

انقسمت النصرانية إلى عدة طوائف أشهرها اليعقوبية (١) والملكانية (٢) .

كان اليعاقبة يرون أن المسيح هو الله ، وإن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح ، وقال الملكانيون أن للمسيح طبيعتين متميزتين ، الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية ، ولم يقتصر الخلاف بين النصارى على العقيدة فى الله ، بل اختلفوا فى مسائل أخرى كثيرة ، هل ينزل المسيح قبل يوم القيامة ، أولا ينزل ؟ وهل الحشر يكون للأرواح والأبدان أو الأرواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله ، أو هى هى ؟ وقد لجأت النصرانية إلى الفلسفة الاغريقية لتستعين بها على الجدل ، ولتؤيد تعاليمها وعقائدها .

كان من نتائج تعدد الشيع الكنسية اتفاق البابا مع القيصر مرقيانوس (٤٥٠ - ٤٥٧) على عقد مجمع عام فى خلقيدونيه

---

(١) كان سعيد بن بطريق (افتيخيوس) هو أول من أطلق اسم اليعاقبة على جماعة السريان الذين اتبعوا تعاليم يعقوب السروجى (٥٧٨) وقد اطلق عليهم فيمابعد الارثوذكس واسم أقباط مشتق من يعاقبة .

(٢) نسبة الى الملك مرقيانوس الذى امر بعقد مجمع خلقيدونية وقد سمى الملكانيون فيمابعد الكاثوليك .

(٤٥١) وكانت نتيجة هذا المجمع إخراج فئة المعتقدين بالطبيعة الواحـــدة فى المسيح من الكنسية ، وكانت الكنسية المصرية تتبع القائلين بالطبيعة الواحدة ، فلما انصاع امبراطرة بيزنطـــة إلى أوامر المجمع الخلقيدونى ، أرادوا أن يلزموا المصريين باعتقاد المعتقد الذى قرره ذلك المجمع ، فعـزلوا ديوسفوروس بطريرق الاسكندرية وانفـــذوا مكانه أسقفاً ملكانيـــاً ، وأخذوا يضطهدون كل من أبى إتباع رأيهم . ولـكن المصريين ثبتوا على أفكارهم ، ولم يزدهم الاضطهاد الأرسوخا فى أيمانهم فاشتد بذلك الخصام بين الفريقين ، وشرع موظفو الحكومة وجنودها يسيئون معاملة اليعاقبة لا سيما المعـارضين منهم فى تغيير الأساقفة اليعاقبة باساقفة ملكانيين سواهم .

أخذ أتباع المذهبين يتقاتلون ، فكان النصر حليف المذهب الذى تعاونه الجنود ، واناخ الفناء بكلكله على اليعاقبة ، فتضاءلت صفوفهم ، واحاط بهم الشـــقاء ، وعدمت الارض من جراء ذلك ، اذرعة تعمل على فلاحتها ، وبارت التجارة ، واقبل القحط على البلاد بجيشه الفظيع الذى يسير الطاعون فى مقدمته ، اعتقد اليعاقبة أن تلك المصـــائب الطبيعية انما يصيب الله بها القطر بسبب آثام الملكانيين ومكابرتهم فى الحق وسوء تصرفهم نحوهم واعتقد الملكانيون أن تلك المصائب عينها انما هي عقاب من عند الله للمنشقين عن الكنيسة العامة ، فتضاعفت بذلك كراهة الفريقين المتبادلة ، واندلع لهيبهـــا اندلاعا مريعا تناول البلاد برمتها وجعلها خرابا .

ما زالت هذه الاختلافات الدينية منشأ لعدة ثورات ضد البطارقة الملكانيين الذين كان يبعثهم القيصر، حتى بلغ بغض المصريين لبطارقة الروم أشده فانفذ القيصر جوستاف البطريرق ابوليناريس الى الاسكندرية مصحوبا بقوة عسكرية ، فقامت موقعة بينهم وبين المصريين ، وكان نتيجتها انتقال جميع املاك الكنيسة فى مصر الى يد حاكم الاسكندرية ، ومنذ ذلك الوقت منح قيصر الروم البطريرك مركز الحاكم فى مصر حتى يضع حداً لهذا الشجار ، وحتى يتسنى له تحصيل الجباية وتموين روما بالغلال بما له من القوى الحربية لتأييد السلام ، وكانت تيودورا زوجة الامبراطور تعطف على مذهب الاقباط، فاخذت تعمل على افساد مساعى الامبراطور ، ولكن ذهبت مساعيها سدآ .

ظل حكام الروم بعد ذلك لا يفترون عن ايقاع الأذى بالمصريين فرفض هؤلاء لغة الرومان وعاداتهم ، واصبح كل ملكانى فى نظرهم غريبا عنهم وكل يعقوبى منهم ، وقد اعتبروا الزواج منهم والاشتراك معهم فى المناصب جريرة لا تغتفر ، ولم تكن طاعتهم للامبراطور وتنفيذ أوامره الا ارغاما تحت ضغط قوته الحربية .

وفى صدر عام ٦٣١ م. أراد هرقل أن يجمع مذاهب الدولة المختلفة ويوحدها ، خصوصاً التوفيق بين اليعاقبة والملكانيين ، فاجتمع الامبراطور فى هيرابولس ببولص مطران ارمينيا وقيرس مطران فاسيس واثناسيوس مطران انطاكية ، فكانت

نتيجة مناظرتهم أن أقروا التوفيق بين المذاهب المختلفة ، وكان ذلك التوفيق يقضى بأن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة المسيح ، وعما اذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة أو قضاء واحد .

ثم أعقب هذا الوفاق ولاية قيرس بطرقة الدين فى الاسكندرية ، فهرب بنيامين بطريق القبط . والظاهر أن مجيئه شرد قسوسهم ، فقد كان قيرس بطريقا وواليا على حكومة مصر من قبل الدولة الرومانية جامعاً سلطتى الدنيا والدين ، فلما قدم تظاهر بانه انما جاء مسالما . وجعل يبين للناس كنه المذهب الجديد (المونوفيلى) وهو المذهب الذى كان الامبراطور يطمع أن يزيل به ما أحدثه مجمع خلقيدونية من الشقاق بين الناس فكان عليه ان يستميل الى المذهب الجديد أقباط مصر أولا واتباع المذهب الملكانى ثانياً ، ولكن الظاهر أن مذهبه لم يلق منذ أول الامر توفيقا ، فقد أساء هو بيانه وإيضاحه ، وأساء الناس فهمه وتلقوه لقاء سيئا ، فأما أتباع المذهب الملكانى فقد رأى كثير منهم أن المذهب الجديد نقض تام لمذهب خلقيدونية ، فان من سمع منهم بالبدعة الجديدة ، قال أن المذهب الجديد ما دام قد سلم بأن الله له إرادة واحدة وفعل واحد فانه لا بد أن يسلم بأن له كذلك طبيعة واحدة ، وعلى ذلك فان قيرس انما جاء فى الحقيقة مسلما بالمذهب المنوفيسى ، فاخفق قيرس فى سعيه لأن كان يود أن يحمل القبط علي المذهب الذى

تقرر مهما تكلف فى سبيل ذلك ، فلم يعبا بعد بما أدخله الامبراطور على المذهب من التهذيب ، بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تقصير فيهما وهما قبول الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد ، فدخل فى مذهبه من لم يستطع الهجرة أو الهرب ، ولجأ الى التقية واظهر غير ما يبطن .

كانت أمور الدين فى القرن السابع اكبر خطرا عند الناس من امور السياسة ، فلم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الاحزاب واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانة ، ولم يكن نظر الناس الى الدين أنه المعين يستمدون منه ما يعينهم على العمل الصالح بل كان الدين فى نظرهم هو الاعتقاد المجرد فى اصول معينة ، كانت اختلافات الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لا قيمة لها ، وفى سبيل فروق فى أصول الدين وفى فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ويشق ادراكها .

كانت رغبة استقلال القبط فى أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم ، ناضلوا من أجله ، وجاهدوا فى سبيله ، لم يثنوا عن ذلك وقت من الاوقات منذ مجمع خلقيدونية ، وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض ، لا تغفل عنه قلوبهم ، ولا يحجمون عن بذل كل شيء فى سبيله مهما عظم .

وفى أواخر عهد الرومان ، بلغ الضعف أشده ، فترك المصريون الفرس يتوغلون فى البلاد (٦١٧ م) ولم يكن

الفرس كثيرى التعصب لدينهم فلم يرغموا المصريين على اعتناق عقائدهم ، بل كانوا متسامحين فى أمور الدين ، إلا أن ذلك لم يمنع دخول عبادة مترا مصر وبقاءها بها مدة وجود الفرس ، وتدل على ذلك بعض الآثار التى وجدت فى منف وسواها من المواضع .

ولما أجلى الامبراطور هرقل الفرس (٦٢٨م) عن ممتلكاته عاد الاضطهاد فى مصر حتى دخلها المسلمون سنة ٦٤١ م .

التشريع والقضاء

رغم خلو مراجع تاريخ البطالسة والرومان عن التحدث عن هذه الناحية فى مصر ، إلا أن فى الامكان سد هذا النقص إذا نظرنا إلى حالة التشريع فى بلاد الاغريق والرومان نفسها .

يرجع أصل التشريع الاغريقى إلى سولون وليكرغ ، وكلاهما استمد من المصريين النظم الدستورية التى أدخلها فى بلاده ، وضع الأول قوانين لاصلاح حال الفلاحين ، وأهل الطبقة الوسطى ، وكان تشريعه ديموقراطياً أدى إلى تساوى الناس فى نظر القضاء ، ثم وضع لأثينا دستوراً مهد لاشتراك العامة فى الحكم ، أما ليكرغ فقد وضع نظام الحكومة الاسبرطية فكان لاسبرطة ملكان يقومان بقيادة الجيوش ويرأسان الحفلات الدينية ليس إلا . أما السلطة الحقيقية فكانت فى يد مجلس الشيوخ المكون من ثمان وعشرون عضواً ، إذ كان من حقه وضع القوانين وبعد الانتهاء منها تعرض على مجلس عام من الاسبرطيين ، وكان ذلك المجلس العام يجتمع مرة فى الشهر

الواحد ، وينتخب أعضاؤه خمسة موظفين يعرف الواحد منهم باسم أيفور وكانت مهمتهم مراقبة سير الملوك والحكام . إن تشريعاً دستورياً هذه صفته لا شك يتبعه تشريع راقى فيما يتعلق بالأمور المدنية والجنائية ، وقد طبق البطالسة فى مصر هذه القوانين الخاصة بهم على رعاياهم الاغريقيين ، فلم ينتفع الشعب بها كثيراً .

أما النظام القضائى فى بلاد الاغريق فكان يقوم به القضاة الذين ينتخبهم الشعب ، وكان صاحب القضية يدافع عنها أمام المحكمة بنفسه حيث لا وجود للمحامين . وإذا عجز صاحب الحق عن الدفاع أمكنه أن يشترى ما يحتاجه من دفاع من أحد محترفى الخطابة Logograph وكانت هناك ساعة مائية تحدد الزمن الذى يستغرقه المدافعون ، وبعد سماع الشهود وأقوال المدافعين ، يدع الرئيس القضية للتصويت ، فيضع القضاة أصواتهم فى آنية خاصة ، وهذه الأصوات عبارة عن حبوب بيضاء للتبرئة أو سوداء للعقاب . وقد طبق البطالسة أيضاً هذه النظم بالاسكندرية ، وتركوا الاجراءات والمحاكم المصرية على ماهى عليه ، إلا أنه كثيراً ماكان يقدم المصريون شكواهم للمحاكم الاغريقية ، وقد حاول البطالسة إصلاح بطء المحاكم التقليدى ، فأخذوا يعينون قضاة جوالون Chrématistes يجولون الأقاليم ليعجلوا الحكم فى القضايا البطيئة .

وفى عصر الرومان لم يكن هناك من القوانين قبل جوستنيان

(٥٢٧-٥٦٥) غير الألواح الاثنى عشر (١) فلما جاء چوستنيان وجد أن هذه القوانين زادت وتضخمت بما أضيف عليها من القوانين القديمة والجديدة . فكانت الأولى تحتوى على سائر القوانين التى صدرت فى عصر الجمهورية وعلى الأخص قرارات وأوامر مجلس الشيوخ ، ثم قوانين الدولة منذ تأسيسها حتى انقراض القياصرة الأول ثم الاصلاحات والتعديلات والشروحات التى وضعها كبار مشرعى الرومان ، أما القوانين الجديدة فكانت تشمل عموم الأوامر الملوكية . كانت هذه القوانين صعبة بعيدة عن الترتيب والتهذيب ، فضلا عن كونها مطولة متضاربة الأحكام كثيرة التناقص .

أراد چوستنيان أن تصلح هذه القوانين وتختصر ثم تنقح وتزال الالتباسات وتحذف منها الشبهات وتوفق الأحكام وتشرح النصوص الناقصة ، وعلى ذلك عين لجنة من فطاحل المشرعين رأسها بنفسه لاتمام هذا الغرض . فتم له ما أراد وبلغ القانون الغاية القصوى من الكمال . ثم دون هذا القانون وأطلق عليه Jus Civile ، وأعتبر لاغياً لسائر ماتقدم من القوانين وقد ظل هذا القانون نافذ المفعول أربعة قرون بعد

«١» قال ريفيو ان كلما كان يسمى حقاً بقانون فى وصايا الالواح الاثنى عشر انما أخذ من قانون مصر ، فحقوق الافراد وحقوق الامم التى يتكلم عنها المشرعون الرومان ، وحق المدنية لم تكن من مخترعات عقولهم بل من الحقوق المقيدة بقوانين وضعت من قبلهم . والمستندات الكثيرة والنصوص والوثائق القضائية التى وصلت الينا من مصر وكلدة تدلنا على أن المصريين والكلدانيين هم الذين ابتدعوا تلك القوانين من آلاف السنين عدا انهم أساتذة الاغريق وأئمتهم فى كل امور المدنية .

عصر جوستنيان ، فكانت القياصرة تعطيه القوة وتنفحه بالأوامر العالية .

وينقسم القانون الرومانى إلى ثلاثة أقسام وهى قانون الأحوال الشخصية وقانون المعاملات وقانون التعهدات والالتزامات ، ولم يهتم القانون الرومانى فى أول الأمر مطلقاً بالأجانب ولم يعترف لهم بقوانين ، وأعتبر الرومان قوانينهم كامتياز مقدس يحتفظون به لأنفسهم ، ولكن لما بدأت الفتوحات الأجنبية وازدادت التجارة الدولية أصبح من المستحيل على الرومان أن يتركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم والتجار الاجانب يعيشون بلا قانون يحميهم ، فابتدع مشرعو الرومان سلسلة من القواعد القانونية تسري على العلاقات التى يكون فيها أجانب وجعلتها واحدة فى كل الاحوال بصرف النظر عن جنسية المتقاضين وسمى هذا القانون بقانون الشعب Jus gentium فأصبح القانون الرومانى قسمين قسماللرومان وقسما للشعوب المختلفة ، وفى سنة ٢١٢ م تغيرت الحال بقانون جديد يسمى بلاغ كاراكلا مكن الأجانب من الحصول على حقوق الرومانيين باجراءات سهلة فأصبح القانون الرومانى الأصلى اقليميا من بعض الوجوه سارياً فى كل اجزاء الامبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فقد استمرت العادات والأفكار التى كانت عليها الولايات الرومانية ردحاً من الزمن معمولا بها بالفعل فى تلك الولايات رغم جواز تطبيق القانون الرومانى الأصلى ولذا كان من الممكن حصول تنازع بين تلك العادات والقانون

الرومانى، وأخيراً تلاشت الفروق، ودخل القانون الرومانى فى كثير من عادات وقوانين الشعوب المحكومة .

كان الاقبــاط فى مصر يستعملون القـــانون الـكنسى droit canonique بجانب القـــانون الرومانى، وكان الأول مستمداً من الكتب السماوية والقواعد التى قررتهـــا المجامع الدينيـــة، والآراء التى أبداها آباء الكنيسة، والقوانين التى أصدرها بعض الملوك المسيحيين الذين كانوا يحكمون بموجب القانون الرومانى . وأهم القوانين الكنسية التى كان يعمل بهـا الأقباط قوانين البطريرك غبريال بن تريك .

كانت هذه القوانين التى ترجع إلى هذه المصادر تراثاً شائعاً بين جميع المسيحيين، غير أن إنقسام الكنيسة وتشعب المذاهب أوجد بجوار القواعد المجمع عليها قواعد خاصة بكل مذهب تختلف فى التفصيلات عما تقرر فى المذاهب الأخرى .

كانت المحاكم الكنسية تعمل جنبا إلى جنب مـــع محاكم الأمراء والحكام الزمنيين، بل كانت أحيانا تنتصف للمظلوم من الحاكم الذى ظلمه بدعوة ذلك الحاكم أمامهـا، ولكن آباء الكنيسة كانوا مضطرين إلى تقرير قواعـــد القانون الكنسى فى الشئون الزمنية على هدى شريعة الرومان .

أما نظام القضاء فظل فى عهد الرومان كما كان فى عهد البطالسة فكان بالاسكندرية قاض خاص archidikastes وكان ينظر فى قضايا الاغريق والأجانب أما فى باقى الاقاليم فكان هناك قضاة متنقلون dikaidates ينظرون فى القضايا التى يبلغها اليهم الحكام .

الفن

أن المتتبع لفنون الاغريق يستطيع أن يستقصى بداياتها عندهم الى العرف الفنى عند المصريين القدماء، فيجد مثلا زهرة اللوتس المصرية على العمود الاغريقى، ويجد العمود المزمارى الذى يرجع الى عهد الاسرة الثالثة فى مصر، وقد وجدت ببلاد الاغريق مقادير كبيرة من الجعلان المصرية التى صنعت فى الاسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين.

تعبر الفنون الاغريقية عن جمال وسيم وعظمة بسيطة واتقان فائق، نتجت من أحكام النسب وتناسق الخطوط، واخص ما تمتاز به العمارة الاغريقية كثرة الاعمدة وتعدد أشكالها، كان الاغريق يصنعون صورهم على الحائط كالمصريين ولم يعرفوا إلا هذا النوع من التصوير، غير أنهم برعوا فى زخرفة الاوانى وتلوينها، وذلك بصور الميثولوجيا الاغريقية، مما جعل لهذا النوع من الفن شأناً عظيما.

فلما أتى البطالسة مصر ظلوا محافظين على التقاليد القديمة فى فن البناء، غير أن مبانيهم كانت أقل ضخامة ومتانة، كانت أذواق ملوك البطالسة الأولين لا تقل عن حكمتهم السياسية فعملوا على بناء عدة معابد ومبانى عمومية وتماثيل، ودعوا كذلك الى الاسكندرية أعظم فنانى عصرهم، ولم يبق من كل ما شيدوه الا معابد دندرة وادفو وفيلة ولم يمت الفن المصرى بموت الفراعنة بل ظل حياً يراعى فى بناء المعابد الجديدة

وفى توسيع المعابد القديمة وتحليتها بالتماثيل والمسلات والتصوير على الجدران حيث ظلت عبادة الآلهـــة المصرية تقام فيها كما كانت تقـام قديماً ، على أن هذا لم يمنع الحكام الجدد والرعايا الاغريق من ترك أثر ولو قليل من عاداتهم وفنونهم فى مصر .

أصبحت الاسكندرية على توالى الزمن مركزاً من أهم مراكز الفن الاغريقى ، وكان لهـــا تأثير عظيم على الفن الرومانى ، فكانت الأسكندرية مصدر أغلب بل كل الزخارف البـارزة ، وكذلك اكثر منتجات الخشب والعاج والمعادن المنقوشة ، وكانت وطناً لرسـوم الجدران والفسيفساء ، وكان لفن النحت بالأسكندرية كما يقول شريبر خواص بارزة أهمها التناسق الشعرى ودقة الصنع والحياة .

كان هنـاك فريقان من الفنانين : المثاليون وتمتاز منتجاتهم بالصور البهجة ، وبالتماثيل ذات الليونة الظريفة والتناسق التـام والواقعيون وكانوا ذوى عاطفة قاســية نحو الحقيقـــة ، وتمتـــاز منتجاتهم بالمواضيع القاســية وبصور الحيوانات والنباتات العديدة .

وفى عهد الرومان ظلت الفنون زاهية مزدهرة بالاسكندرية وكان بنيان المدينـة يأخـذ بالألباب لعظمته ورونقه ، من أسوار منيفة وحصون منيعة وقصور شاهقة ومعابد فخمـــة وطرق معبدة ، وكانت مهارة البنائين فائقة .

كان فن التصوير من اتباع فن البناء يستخدم فى تجميل الجدران فى داخل البنـاء ، كما كان من وسائل التجميل نقوش

وصور الفسيفساء ذات الالوان الباهرة وكذا افاريز المرمر، ومسطحات الرخام، وكان يطلق عليها اسم الفن الاسكندرى تمييزا لها .

وأما النحت فلم نعرف عنه إلا قليلا فى عصر الرومان إلا انه كان لا يزال من المعتاد اقامة تماثيل للامبراطور الحاكم فى العاصمة وفى اكبر مدن القطر، وعلى ذلك فلم يكن هذا الفن مضيعاً كل التضييع، وظلت المدرسة البطليموسية فى هذا الفن أولى مدارس العالم فى ذلك العصر وان فى بعض ما صنعته لجمالا فائقاً .

أما الصناعات الفنية التى بلغت وقتئذ قصارى الكمال، فهى صناعة نحت العاج والذهب وتطعيم المعدن، فقد برعت الاسكندرية فيها جميعاً، واذا كانت هذه الصناعات تمت بأصلها الى صناع مصر القديمة، فقد بقيت حية طوال العصر الاغريقي الرومانى .

وبجانب هذه الفنون التى تقدمت فى مصر نشأ الفن القبطى ولكنه لم ينشأ فى المدن الكبيرة، بل نشأ فى القرى والضواحى فى أول الدعاية المسيحية، وانتهى نموه بفتح العرب ولم تتجاوز مدة سلطانه خمسة أجيال .

نشأ الفن القبطى فى جو مضطرب، وفى وسط انقلابات سياسية وتطورات اجتماعية لم تساعد على هدوء البال الذى هو شرط اساسى للتبحر فى الفكر والتوسع فى الفن، فكان الرهبان وعباد الله يرتجلون الرسم والنقش والبناء ارتجالا فلم يقصدوا

الفن لذاته بل التعبير عن شعورهم وعقيدتهم الدينية ، لذلك ظن البعض أن الفن القبطى ليس بفن أصيل بل أنه مأخوذ عن فنون أخرى ولا سيما عن فن الاغريق ، واذا نظرنا الى الواقع وجدنا أنه يختلف عن هذا الفن اختلافا جوهريا إذ أنه يأخذ مواضيعه دائما من آيات الكتاب المقدس وان كان أحيانا يرسمها فى قالب يتقارب من تمثيل روايات الاغريق لا سيما فى الوسط الذى يختلط فيه المصريون بالاجانب كالاسكندرية مثلا ، إلا أنهم أخذوا من قدماء المصريين أغلب أصول البناء والنقش والحفر والفنون التطبيقية ، وكان يصعب على الأقباط بالرغم من عقيدتهم الحديثة واتجاههم الجديد التخلص من طريقة التفكير الموروثة عن قدماء المصريين .

استخدم الاقباط فى فنونهم كل الرموز القديمة كالسمكة والنسر وصليب الحياة وغيرها ، ولكنها استخدمت بتطبيقات أخرى توافق الديانة المسيحية ، وكثيراً ما بنوا كنائسهم بأحجار المعابد الفرعونية القديمة .

يمتاز الفن القبطى بالاكثار من الزخرف الى حد الاغراق ومع ذلك فان من يراه يتولاه انشراح وارتياح ، كما يمتاز أيضا بخلوه من الصور الانسانية والاستعاضة عنها بأشكال هندسية جميلة التنسيق . وقدكان اهتمامهم بالروحيات يمنعهم عن النظر الى ما هو جميل أو الى ما هو قريب من الطبيعة لانهم لم ينظروا إلا الى المعنى الروحى المقصود من الصورة .

العلم والفلسفة

استمد الاغريق كثيراً من جذور حضارتهم من مصر فنمت وتشعبت ، حتى فاقت الحضارة الأغريقية الحضارة المصرية فى سرعة انتشارها ، ويرجع ذلك الى أن العلوم كانت فى مصر منحصرة فى طائفة الكهنة ، ولذلك كان نموها بطيئا لعدم تداولها ، ولكنها لما انتقلت الى الاغريق زادها التداول وساعد على تقدمها .

كان أغلب ما أخذه الاغريق عن الشرقيين عامة والمصريين خاصة الاشياء العملية المادية كنظام النقد ونظام المقاييس والحساب والهندسة والموسيقى وعلم الكيمياء (١) تناول الاغريق هذه العلوم بالتهذيب وزادوا من افقها حتى زادت معارفهم ونمت افكارهم بالفلاسفة والحكماء .

واستمدت أغلب الآداب الاغريقية اصولها من الادب المصرى القديم ، فكثيراً ما نجد الاساطير المصرية مذكورة فى قصائدهم الاولى بنصها الاصلى أو بتنقيح بسيط ، وعلى الخصوص فى الالياذة والاوديسة فكثير مما فيهما منقول عن قصص أو عن رسوم مصرية بكل مافيها من الحوادث والتفصيلات والأوصاف .

ورغم غزارة ما استمده الاغريق من المدنية المصرية فان الذهن الاغريقى امتاز بسلطانه المطلق على بحث أسرار

(١) كان يسمى عند الاغريق خيما بمعنى مصر ، لاختصاص المصريين القدماء به .

الطبيعة والغازها ، وتمحيص معضلات الوجود ومسائله الأساسية ، فقد نزع الاغريق نزعة علمية خالصة ، وكانت الفلسفة فى رأيهم أسلوبا من أساليب المعيشة فلم يكن من الغريب أن يمتاز عصر البطالسة فى مصر بالعلوم والمعارف التى ساعد على نشرها طبيعة الفكر الاغريقى وعناية ملوكهم وشغفهم الزائد بالعلم والأدب ، فكانوا يكثرون الاجتماع بالعلماء والأدباء ويقربونهم منهم ، بل أن بعضهم كان يشتغل بنفسه بالكتابة والتأليف ، فقد كتب بطليموس الأول تاريخاً عن الاسكندرية ، وألف بطليموس الرابع اسطورة تمثيلية ووضع بطليموس التاسع كتابه (المذكرات) عن نفسه ، كما دون إنتقادات لشعر هوميروس .

أسس بطليموس الأول مدرسة الأسكندرية ، فكان لها شأن كبير فى تاريخ مصر القديم وفضل عظيم فى إنتشار الحضارة والمدنية فى كل بلاد العالم ، وشيد مكتبة الاسكندرية ، وهى وإن لم تكن أقدم دور الكتب فى العالم فقد كانت أعظمها ثروة وأدقها نظاما ، وروى أن عدد كتبها عند تأسيسها بلغ نحو مائتى ألف كتاب ، وقد كانت مدرسة الاسكندرية أو متحفها أشبه بمجمع علمى يسكن داره الرحبة جماعة من العلماء والفلاسفة والأدباء الذين وقفوا حياتهم على الاطلاع والبحث ، ويحتوى المتحف عدا المكتبة على قاعات للدراسة وغرف للتشريح ، ومعمل للكيمياء ، ومرصد فلكى ، وكثير من البساتين والحدائق الخاصة بالنباتات والحيوانات النادرة .

عرف البطالسة بمدرسة الاسكندرية مقدار ميراثهم الأدبى فجمعوا الكتب القديمة ولخصوها وعدلوا منها ما يستحق التعديل وشرحوها، ومع توالى الزمن تغيرت ثقافة أثينا الفلسفية فأصبحت فى الاسكندرية علمية، فشمر العلماء عن ساعد الجد لحل طلاسم الطبيعة وإجراء التجارب فاندفعت هممهم إلى إتقان علم الفلك والرياضيات والتاريخ الطبيعى والطب.

وضع اقليدس فى الرياضيات كتابه المعروف. ولو انه لم يقض طول حياته فى الاسكندرية إلا أنه نزع نزعة علمائها فى التفكير والاختراع، فهو صاحب الطنبور، والميزان المعروف باسم القبان، وهو الذى اكتشف الثقل النوعى كما عرف النسبة بين قطر الدائرة إلى محيطها وقد ظلت مدرسته نحو سبعمائة عام معترف بزعامتها. وكان أول تلاميذه أبولونيس وهو أول من ابتدع دراسة الأشكال المخروطيه.

وأشهر علماء الجغرافيا ايراتوستين (٢٥٠ - ١٩٦ ق.م) وكلوديوس وكان الأول أحد أمناء مكتبة الاسكندرية قاس الأرض من مرصد المدرسة، ويعتبر هذا الحادث أعظم اكتشافات العلم الاسكندرى، وضع جغرافيته فى ثلاث كتب جمع بها جميع المعلومات الجغرافية التى سبقته، ثم أضاف اليها خريطة بالعالم المعروف، أما كلوديوس فينتمى إلى عهد أحدث (١٠٠ ق.م) لخص نتائج من سبقوه. وقال بأن الأرض فى منتصف الفضاء، وقد ظل الفلكيون يعتقدون بهذه النظرية حتى خطأها جاليليو، ومن الشخصيات التى كان

لها تأثير فى علم الجغرافيا آريستارخوس وقد قال بأن الأرض تدور حول الشمس واستطاع أن يقيس المسافة بين الأرض والشمس وبين الارض والقمر .

ومن الذين اشتهروا فى علم الفلك ابرخس (١٩٠-١٢٥ ق . م) ويعد من أكبر علماء العالم القديم ، فهو أول من قال بالحركة المستديرة التى تكون الارض فيها فى الوسط والكواكب من حولها وكان أول من اكتشف الظاهرة الفلكية المعروفة بمبادرة الاعتدالين . ومما يثبت تقدم علم الفلك فى ذلك الوقت أن التقويم الذى نستعمله اليوم استحدث بالاسكندرية سنة ٢٣٩ ق . م على يد بطليموس الثالث .

كانت دراسة الطب أهم برامج مدرسة الاسكندرية ، وكان برنامج الطب عبارة عن تعاليم جالينوس وابقراط ، وكان ايراسيستراتوس فى القرن الثالث ق . م . من أشهر أطباء الاسكندرية ، أوضح العلاقة بين الاعصاب والحواس الجنسية وكاد يكتشف الدورة الدموية . وكان أطباء اليونان يؤمون الاسكندرية ليتزودوا بالعلم من أساتذتها .

ولأول مرة فى تاريخ البشر بدأ العلماء يقارنون فى التشريح بين الانسان والحيوان ويعرفون علاقة الفكر بالدماغ . وقد ميزوا بين الشرايين والأوردة ، وإن لم يعرفوا علاقة النبض بالقلب . واشتهر من علماء التشريح ووظائف الأعضاء فى هذا العصر هيروفيلوس .

لم يقتصر البحث العلمى على العلوم الطبيعية بل تناول

الأدب أيضاً ، فظهر زينودوتس (١٠٠ ق . م) أول أمين لمكتبة الاسكندرية واهتم بهوميروس ، فقسم الألياذة والأوديسة إلى كتب ، ومحى منها الأشعار المزورة وأشار إلى المشكوك فيها ، وكانت اللغة الاغريقية قبله بعيدة عن الاهتمام فدرست ووضعت لها أول أجرومية .

كان للأدب أيضاً فى الاسكندرية مكانة لا بأس بها إلا أن أغراضه لم تكن رفيعة ، قلما يتناول المسائل الجدية أو تتبع أحوال السلوك الانسانى ، ولم يقترب من مشاكل الفن السامية ، ولكنه كان مؤثراً لطيفاً ، يمتاز بروح البحث حيناً وباللهو حيناً آخر ومع ذلك فقد كان مخلصاً فيما يؤديه . لقد وفق فى التعبير عن جمال العالم ومحاسن الدراسة ولذائذ الحب ، ومن أشهر أدباء الاسكندرية فى عصر البطالسة كاليماخوس (٣١٠ - ٢٤٠ ق . م) وأبولونيس (١٨٨ - ٢٦٠ ق . م) وتيوكريتس (٢٥٠ - ٣٢٠ ق . م) .

كان مبدأ نشر الثقافة وتوحيد العقلية بين الشعوب من أقدس المبادىء وأعزها لدى الاسكندر وخلفائه ، فلم يقنعوا بنشر الثقافة عن طريق الاسكندرية فقط ، فعمدوا الى إنشاء مدينة كارانس وتيودليفيا فى منطقة الفيوم ومدينة بطليموس فى مديرية جرجا تحقيقاً لهذه الغاية ، ثم أخذوا يرسلون طوائف كثيرة لا يتعدى عددها الخمسمائة إلى الأقاليم المصرية حتى يستثمروا الأراضى الواسعة ويدخلوا فيها العادات الاغريقية ، كما أسسوا نوادى الألعاب الرياضية والمدارس فى

الأقاليم لنشر الثقافة الاغريقية ، وكانت هذه المدارس تستمد تعاليمها من مدينة الاسكندرية .

لم يكن للاسكندرية فى عهد البطالسة فلسفة معينة ، بالرغم من تقدمها العلمي ، والظاهر انه لم يقابلها فى هذا العصر من المشكلات ما يدفعها إلى إيجاد فلسفة خاصة بظروفها وأحوالها ولكن الحال تغير فى عهد الرومان فكان أول هذه المشكلات محاولة التوفيق بين الوثنية واليهودية ثم بين فلسفة أفلاطون وارسطو وأخيراً بين الفلسفة والمسيحية .

كان بين اليهودية والفلسفة الاغريقية نزاع شديد فى الاسكندرية ، كان اليهود مضطرين لقبول الحياة والتعاليم الاغريقية مع وجوب احتفاظهم فى نفس الوقت باصول اليهودية ، فحاول فيلو الفيلسوف اليهودى أن يوفق بين المعتقدات الدينية اليهودية وبين العلم الاغريقى . فكان من ذلك يهودية مفلسفة ، لاهى يهودية صرفة ولا فلسفة صرفة ، اقتبس فيلو تعاليمه من أفلاطون والرواقيين ، واستعمل المصطلحات الفلسفية ، ولكنه استخدم ذلك كله لاحياء العاطفة الدينية وتذليل الصعاب التى تواجهها اليهودية ، (١) كان لفيلو تأثير عظيم على افكار عصره التى كانت تميل الى الاخذ بأحسن الآراء (éclectisme) وكانت تعاليمه توفيقاً بين الافلاطونية الاغريقية والآراء الموسوية وافكار الشرق الروحية فكان بذلك أحد مؤسسى

«١» انتفعت الكنيسة النصرانية فيما بعد بموقف اليهود ازاء الفلسفة ، لانهم واجهوا ماواجه اليهود قبلهم .

مذهب المعرفة الباطنية (gnosticisme) ومبشرى الافلاطونية الحديثـــة .

ولما دخل الدين المســـيحى مصر ، اهتم آباء الكنيسة والبطارقة بنشر المسيحية ، فأسسوا مدرسة عظيمة لتعليم القواعد الدينيـــة والملية ، وكان من أشهر رؤسائها والذين عملوا على اتصال النصرانية بالفلسفة الاغريقية كليمان الاسكندرى الذى مزج النصرانيـــة بالفلسفة ، ثم جاء من بعـــده اوريچين (١٨٥ — ٢٥٤ م) تلميـــذ افلوطين ، ولكنه اضطهد ففر من الاسكندرية ، ومنذ ذلك الوقت اصبح كثير من رجال الكنيسة يعلمون النصرانية مفلسفة أو الفلسفة منصرة ، وجـــدوا فى التوفيق بين ما يتعارض بينهما .

وفى العصور الاولى للمسيحية ظهر فى الاسكندرية المذهب المعروف بالافلاطونية الحديثة ومؤسسه امنيوس سكاس وهو أول المعلمين الاسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم افلاطون وارسطو ، وجاء من بعده تلميذه افلوطين(٢٠٥-٢٦٩) فنظم هـــذا المذهب ، وكان أكبر مؤيديه والمدافعين عنه ، بل عد مؤسسه ، وقد امتاز بروحانيته ونقده للمذهب المادى ، حتى لقد حكى افلوطين أنه وصل فى روحانيته الى الاستغراق فى الوحدانية ، أو على التعبير الصوفى (الفناء فى الالوهيـــة) بضع مرات فى حياته ، وقد الف افلوطين كتبا كثيرة حفظت عنه ، ويطلق عليهـــا اسم التاسوعات Enneads ثم تفرع مذهبـــه الى فروع كثـــيرة ، فكان منهـــا فرع فى الشام

وآخر فى أثينا ومن آرائه فى الآلهيات (١) :

« إن هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التغير ، وهولم يوجد بنفسه ، بل لا بد لوجوده من علة سابقة عليه هى السبب فى وجوده ، وهذا الذى صدر عنه العالم واحد غيرمتعدد ، لاتدركه العقول ولا تصل الى كنهه الأفكار ، لا يحده حد ، وهو أزلى ابدى قائم بنفسه فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحانى خلق الخلق ولم يحل فيما خلق ، بل ظل قائما بنفسه مسيطراً على خلقه ، ليس ذاتاً وليس صفة ، هو الارادة المطلقة ، لا يخرج شىء عن ارادته ، هو علة العلل ولا علة له ، وهو فى كل مكان ولا مكان له » .

كانت حاجة العقل البشرى الى الاطمئنان الكلى لما يدركه الانسان من الاشياء مع الاعتقاد واليقين ، هى الطابع الوحيد الذى ميز الحركة العقلية الفلسفية فى الاسكندرية ، ولذلك كانت نزعة الشك وطبيعة الارتياب لا ترضى عقول فلاسفة الاسكندرية الباحثة عن الايمان والنازعة الى البحث عن الطمأنينة الروحية فى حظيرة الدين .

إن المراجع التى وصلتنا عن الحالة العلمية فى عهد الرومان لا تكفى للدلالة على ما كان بالاسكندرية من نشاط أهل العلم فى مختلف الفنون ، فقد ضاعت اكثر مؤلفات ذلك العصر فى أثناء عواصف الفتوح التى اجتاحت مصر فى النصف الأول من القرن السابع ، على أنه قد بقى منها مايشهد للاسكندرية

«١» لم تجهل المدرسة الافلاطونية تعاليم كهنة توت فى تفسير سر الخليقة والتى نجدها فى نظريتهم المشهورة بنظرية Lagas

بوجود أثر يذكر من العلم القديم فيها ، فظل يقصدها بعض طلاب العلم وان كان أكثر العلم فيها عند ذلك خاصا بالدين إلا أنها ظلت مشهورة بخدمتها لعلم الفلك ، معروفة بمهارة من فيها من علماء الرياضة والميكانيكا ، وقد ظهر في علم الفلك بطليموس القلوذى حوالى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد والف كتابه (المجسطى) الذى ظل مرجعاً لعلماء الفلك حتى عصر النهضة والفكرة الاساسية فى هذا الكتاب أن الأرض كرة تدور حولها الاجرام السماوية ، واقرب الاجرام اليها القمر ويليه عطارد ثم الزهرة فالشمس والمريخ والمشترى وزحل وأخيراً النجوم الثوابت ، وظهر من علماء الميكانيكا ايرون وكان يحاضر فى هذا العلم وفى البصريات والمساحة أيضا ، وله عدة مخترعات كانت عجائب عصره ، وظل علم الجغرافيا من فروع العلم المعروفة فى ذلك الوقت ، فقد زادت معرفة الناس بالبحار الشرقية بفضل رحلات الكشف التى قام بها كوزماس المعروف (بالبحار الهندى) والذى قام بسياحات علمية طويلة حول بلاد العرب والهند .

ولما بدأت الأمبراطورية الرومانية تتدهور انحطت النهضة العلمية ، واندثرت مدرسة الأسكندرية ، وتهدمت وضاعت كتبها بين اتلاف واحراق (١) وادى ذلك الى انتصار المشتغلين

---

(١) كانت مكتبة الاسكندرية مكونة من جزئين ، حرق الجزء الاول عفواً على أثر المعركة التى نشبت بين سيزار والاسكندريين ، وهدم الثانى تيوفيل مع السيرابيوم الذى كان جزءا منه ضمن المعابد الوثنية التى كان يهدمها ، ولكن المسيحيين شعروا بعد ذلك بخطأهم العظيم . فعزا مؤرخيهم حرق مكتبة الاسكندرية الى العرب .

بالعلم على فهم مابقى من تصانيف أسلافهم ، قانعين بذلك وحده دون العمل على توسيع دائرة العلم .

ولما انتصرت النصرانية وجاء جوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) أغلق مدارس الفلسفة واضطهد الفلاسفة ، فمنهم من فر ومنهم من تنصر ، وأخرج بعض المتنصرين كتبـــا فى الأفلاطونية الحديثة مصبوغة بالصبغة النصرانيـــة ، ككتاب ديونيسوس الذى الفه افلاطونى مجهول فى منتصف القرن السادس للمسيح وإدعى انه من تلاميذ بولس الحوارى ، شرح فيـــه أسرار الربوبيـة ودرجات عالم الملكوت [١] والكنيسة السماوية على المذهب الأفلاطونى ، فصار من ذلك الوقت عمـــدة النصارى فى ذلـــك .

أفسدت التقاليد العلم والفلسفة ، فـــنزع العلماء إلى الجمود الفلسفى والرجوع إلى عالم الغيبيات . فامتزجت العلوم بالباطنية mysticism التى أساسها التنجيم والاسترولوغيا ، فاختلط العلم بالاساطير ، وشغف النـــاس بالسحر والطلاسم والدعوات والعزائم ونحو ذلك .

وصلت عوامل الانحلال الى اللغة ، فأخذ المصريون تحت ضغط الحكام وكثرة المظالم ، يهجرون الكتابة بحـروفهم التى ورثوها عن أجدادهم ، ويستبدلون بها الكتابة بحـــروف إغريقية ، وهذه اللغة التى شرعوا يكتبونها بالحروف الاغريقية

(١) أصبحت الملائكة والقـديسون فى المسيحية بمثابة الآلهة المحلية التى كانت الصلة بين الناس والله فى الديانة المصرية القديمة .

لم تكن اللغة المصرية القديمة بل لغة أخرى مشتقة منها هى القبطية ، وهى اللهجة التى كانت شائعة إذ ذاك بين عامة الشعب أما اللغة المصرية القديمة فكانت قد أخذت تنزوى حتى صار علمها فى عهد البطالسة محصوراً فى الكهنة وبعض المدارس الدينية . ومن الأسباب التى كان لها تأثير بين فى تغيير اللغة المصرية الاختلاف الذى أصاب الخط الديموطيقى باختلاف كل اقليم ، فلم يجد المصريون مخرجاً لأحياء لغتهم إلا بالتمشى مع تيار الثقافة الاغريقية التى غمرت البلاد ، فابتدأوا يكتبون لغتهم (١) بالأحرف الاغريقية ، وأدخلوا عليها سبعة حروف حلقية من أصل مصرى لم يجدوا لها مقابلا فى الأحرف اليونانية ، فأصبحت اللغة القبطية لغة المصريين وشعار قوميتهم .

الحالة الاجتماعية

الأسرة أساس الاجتماع ، وهي أقل المظاهر الاجتماعية تطوراً ، وقد ظلت فى عهد البطالسة كما كانت فى عهد قدماء المصريين . إلا أن الاغريق الذين انتشروا فى البلاد وعلى الخصوص فى الاسكندرية كانوا يسيرون فى نظاماتهم العائلية وفقاً لما اعتادوه فى بيئتهم الأصلية .

كان الاغريق يرون فى الزواج حادثا هاما وكثيراً ما اتخذوا الاجراءات الجنائية ضد الأعزب . وكان الرجل

(١) يقال ان القديس بانتين هو الذى اوجد الحروف الابجدية القبطية فى منتصف القرن الثانى واول من ترجم الانجيل الى اللغة القبطية .

يقترن عادة بزوجة واحدة بموجب القـــانون ، تمتلك صداقاً يكفل لها حريتها وتقوم بتدبير المنزل ، ومع ذلك فقد كان السرار شائعاً بين الاغريق ، ويقال ان النساء فى العلاقات الجنسية كن على ثلاثة أنواع : الزوجة التى تنتج الأولاد الشرعيين وتدير المنزل ، والسرية Concubine وتعتنى بالرجل والرفيقه Hétaïre لمسرات الرجل البدنية والروحية .

وقد كان الزواج الداخلى موجوداً عند الاغريق ، فقـــد كان الزواج بين الأخ وأخته من أبيـه معروفاً ، وخصوصـاً فى الأسر الحاكمة ، وكان هذا النظام شائعاً بين خلفاء الاسكندر .

لم يعترف الاغريق للزوجة إلا بالواجبات التى عليهـــا ولم يذكروا شيئاً من الحقـــوق ، فكانوا يعتبرونها كشيء امتلك بالحيازة ، فلم تكن إلا أمة شرعية لرب الأسرة . وكان الأولاد الذين ترزق بهم الزوجة يعتبرون أجانب عن عائلتها . ولذلك كانت القرابة لا تنتقل إلا بواسطة الذكور .

أما حالة السكان من حيث العناصر التى يتكونون منهـــا فقد ظل المصريون من سكان الريف . بينما زادت أهميـــة الاسكندرية وبعض المدن الكبرى فكانت خليطاً من الاغريق واليهـــود والمصريين ولا شك أن كثرة سكان الاسكندرية وشدة الاختلاط بينهم أوجد حالة اجتماعية تختلف كثيراً عن مثلهـــا فى الريف ، فكان سكان الاسكندرية مقسمين إلى طبقات أهمهـــا :

١ ـ طبقة الاشراف الاغريق Patriciat ويتكونون من

العائلات العريقة . وكانوا يتمتعون بقانون المدينة ، وبامتيازات قضائية ، وهم معفون من بعض الضرائب ومن السخرة ، كان أكثر الموظفين والرهبان منهم ، وعلى العموم كان نظام هذه الطبقة يسير وفقاً لنظام طبقات الأحرار بأثينا وبالمدن الاغريقية الأخرى . وكان لبعض عريق السكان الاسكندريين امتيازات تعادل امتيازات هذه الطبقة .

٢ ـ المقدونيون ويكونون أيضاً طبقة ممتازة ، تتمتع بسلطة عظيمة فى القصر والجيش ، ويتكونون من اشراف الجيش الذين من حقهم التصديق على تولية كل ملك جديد وهم يشبهون من هذه الجهة الحكام prétoriens والحرس الملكى Janissaires والفرسان .

٣ ـ الفرس وكان عددهم عظيما بالاسكندرية ، ولو انهم كانوا يصطبغون بالصبغة الاغريقية سريعاً ، إلا أن طبقتهم كانت أقل امتيازات من الطبقات السالفة .

٤ ـ الاغريق الفقراء الذين كانوا يهاجرون الى الاسكندرية جماعات كبيرة باستمرار من جميع مناطق العالم الاغريقى ، ولم يكن لهم شعور بمركزهم السياسى ولم يقيدوا ضمن المواطنين ، فلم يشتركوا معهم لا فى القوانين ولا فى الامتيازات .

٥ ـ اليهود وكانوا يكونون عنصراً مهما فى سكان الاسكندرية منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد . وكان لهم دستور خاص بطائفتهم عماده الحاكم éthnarque ومجمع

القدماء assemblée des anciens وكانت امتيـازات اليهود تعـــادل امتيازات اشراف سكان الأسكندرية وتفوق على امتيازات الفرس ، ولـكنهم لم يعتبروا ضمن المواطنين من حيث التمتع بدستور المدينة .

٦ ـ المصريون وكانوا أقليـــة فى الاسكندرية ، يتـكون منهم كثير من الجنـــود والعمال ، لم يأخذوا كثيراً بالثقافة الاغريقية ، فـكانوا بمثابة عنصر غريب فى المدينة ، لم يخضعوا لقانون خاص ولـكنهم كأغلب الاغريق وكالفرس واليهـــود لم يشتركوا فى دستور المدينة .

٧ ـ الرقيق وكانت طبقة كبـــيرة العدد لها نظام خاص وموظفون وادارة خاصـــة ، ولم يكن العبيد يستخدمون بكثرة فى أول الأمر على أن الحروب التى حدثت فى القرن الثـــالث قبل الميلاد ، أتت بكثير من العبيد الى مصر ، فاستوطن هؤلاء الأراضى المصرية ، وأخذ عددهم فى الازدياد مما أثر على أجور الأيدى العاملة فى مصر وكانت رخيصـــة بطبيعتها فاضطرت الحـكومة الى فرض ضريبة قدرها ٢٠ ٪ من ثمن العبد على كل تغيير فى ملـكيته ، مما أدى الى كساد سوق الرقيق .

كان من العسير ان تمتزج هذه الطبقات ، ومهما غالى ملوك البطالسة فى اتبـاع كثير من التقاليـد المصرية فان ذلك لم يحقق فـكرة مزج العنصرين المصرى والاغريق فى حضـارة جديدة غير أنه كان لذلك العمـــل تأثير بين فى احلال المودة والوفاق بين المصريين والبطالسة محل العداوة والبغضاء ، فلما كثر ورود

الاغريق الى مصر وانتشروا فى أنحاء البـــلاد للاتجـار زاد الاختلاط بين العنصرين وتصاهروا ، ثم أن الصناع المصريين والأغريق اتحدوا فوصلوا بالصناعة الى درجة عظيمة من الرقى وتعلم معظم المصريين اللغة الاغريقية التى صارت إذ ذاك اللغـة الرسمية للبلاد . إلا أنه رغم كل هذه الجهود ظل المصريون محتفظين بحضارتهم التى ورثوها عن آبائهم ، فلم يكن للحضـارة الاغريقية ســبيل إليهم فاصبحت معاهدهم دوراً أجنبيـــة فى أرض مصر .

وفى عهـــد الرومان ظل الأغريق يكونون الجزء الأعظم من سكان الاسكندرية ، إلا أن انتقال الحكومة الى يد الرومان لم يخل من ترك أثر ولو قليـــلا فى نظام الطبقات الاجتماعى ، ويجدر بنـا أن نستعرض هذا النظام عند الرومان أنفسهم حتى تهيأ أفكارنا لتخيل الحالة الاجتماعية فى مصر .

كانت العائلة عنـــد الرومان فى أول أمرها قوية التركيب ، فكان الزواج ضرورة خلقية وواجب عام . حتى إذا كان عهدهم الأخير تحررت العلاقات الجنسية وزادت نسبة العزوبة تبعاً لذلك ، خصوصـاً بين الطبقات العليا حيث أصبح الزواج حمـــلا لا يقدم الناس عليه إلا للخدمة العامة ، وكان الطلاق يزداد شـــيوعا بينهم . ومع هذا فقد حافظت بعض العائلات الرومانية على التقاليد القديمة ، خصوصاً فى الاقاليم .

كان الزواج الداخلى ضعيفاً فى عهد الرومان ، حتى أن النبلاء كانوا لا يتزوجون من العامة ، وقد غالوا فى منع الزواج

بالأقارب حتى شمل من هم أبعد فى القرابة من أبناء الأعمام .

كانت سلطة رب الأسرة قوية ، فما كان لأحد أفرادها أى حق تجاهه ، حتى أن الزوجة أو الابن لم يكونا خيراً من العبد أو الثور ، بل أن الابن البالغ واولاده كان يخضعون لرب الاسرة ، ثم أصبحت سلطة رب البيت محدودة مقيدة بعض الشىء ، ولما ازداد حظ المرأة من التعليم حتى كاد يكون مثل حظ الرجل منه ، كان الزوج يستمع لرأيها وكثيراً ما كانت تتدخل فى حياته السياسية .

كان الشعب الرومانى منقسما إلى عدة طبقات أولها النبلاء ، فكل وطنى يعد فى هذه الطبقة إذا سبق لأحد أجداده أن تولى شيئاً من أمر الأمة ، لأن الحكم فى روما من علامات الشرف وتجىء بعد طبقة النبلاء طبقة الفرسان ، وهم أغنياء الوطنيين الذين لم يعهد لهم جدود من الحكام ، وكان منهم التجار والصيارف والملتزمون وجميعهم لا يشتركون فى الحكم ، والطبقة الثالثة هى العامة وهم جمهور الأمة ، وكان فى استطاعتهم الانتقال من طبقة الفلاحين الى طبقة أصحاب الأملاك ثم الى طبقة الوطنيين الرومانيين . ويعد فى طبقتهم العبيد المتفوقون أو قدماء العبيد وأبناؤهم ، ولا يقبلون فى الجيش الرومانى ولا ينتخبون إلا بعد غيرهم ، والطبقة الأخيرة العبيد ، وهم جميع الأسرى . يعاملهم الرومان كأنهم بعض الغنيمة ، يبيعونهم الى النخاسين الذين يتبعون الجيش ، فيحملهم هؤلاء الى روما ليباعوا فيها بالمزاد ، والعبد ملك صاحبه ، ولا يعتبر شخصاً بل

متاعاً ، وليس له حق من الحقوق فلا يكون وطنياً ولا مالكا .

وعلى أساس هذا النظام أعتبر الوطنيون فى مصر من الطبقة الثالثـــة ، منحتهم روما حريتهم ولكنها أبقت أملاكهم ملكا للشعب الرومانى وجعلتهـــا ثلاث حصص متساوية ، أعطى للأهالى قسم من أراضيهم على أن يدفعوا شيئاً من المـــال أو الحبوب عنها ، وحفظت روما لنفسها الحق أن تأخذ منهـــا كما تشاء ، وأجر القسم الثـــانى الى أناس من الملتزمين ، أما القسم الثالث ويتكون من الأراضى البائرة الشاغرة ، فيأخذها من يريد ويحق لكل وطنى رومانى أن يقيم فيها ويزرعها .

كانت أغلبية المصريين عدا الكهنة تتكون من الفلاحين والعمال ، وكانت حالتهم فى تقهقر دائم ، ورغم أن المعلومات التى وصلتنا عن أجور العمال فى ثـــلاثة القرون الأولى ، أثبتت أن هذه الأجور كانت ترتفع بالتدريج ، إلا أن الارتفـــاع يرجع إلى انخفاض قيمة العملة أكثر مما يرجع إلى تحسن حالة العمال ، لأن ثمن جميع السلع كان مرتفعاً .

ظلت الاسكندرية فى عهد الرومان حافظة لمركزها العظيم ، وظل سكانها من اجناس مختلفة حتى وصفهـا فيلو بأنها (عدة مدن فى مدينـــة) فقد كان بها عدا المصريين والاغـــريق والرومانيين ، كثير من سكان أغلب الشعوب القديمة . وظل العنصر الاغريقى يكون الجزء العظيم من سكانهـــا ، فكانت الاسكندرية قبل عهد ديوقليتيان تسمى المدينـــة الاغريقية ، الا أن جاذب الاغريق لمصر أخذ يخف شيئاً فشيئا ، وأخـــذ

نسلهم ينقطع على توالى الزمن حتى أمست تدعى المدينة المصرية ولما بنيت القسطنطينية سنة ٣٢٨ م ضعف شأن الاسكندرية كمركز للثقافة الاغريقية ففقدت أهميتها .

وكان يلى العنصر الاغريقى أهمية اليهود ، وكان لهؤلاء مركز اجتماعى عظيم الأهمية ، فقد بلغ عددهم عند دخول الرومان مصر نحو مليون تقريباً ، وقد ابتدأوا يهاجرون إليها منذ زمن بعيد ، ورغم المشقات التى عانوها بمصر ، فان ذلك لم يكن ليوقف تيار المهاجرة بدليل انه بعد ثلاثمائة سنة من دخول الاغريق مصر كان عدد اليهود الذين عتقهم من الرق بطليموس فيلا دلفوس (٢٨٥ - ٢٤٧ ق . م) نحو مائة وعشرين الفاً ، ولا شك انه كان يوجد بمصر ألوف غيرهم من اليهود الأحرار ، وفى عهد بطليموس فيلومتر التجأ اونياس رئيس كهنة اليهود الى مصر فأذن له الملك بتشييد الهيكل الذى اشتهر بعد ذلك باسم هيكل اونياس بمدينة ليونتوبوليس فزادت بذلك أسباب الرغبة من اليهود فى المجىء الى مصر والتوطن بها وكثيراً ما كانت الحرب تقوم بينهم وبين الاغريق ، للدوافع الدينية ، إلا أن أصل العداء بينهم يرجع الى التقدم المادى والعلمى الذى أصابته طائفتهم ، مما كان يثير حقد الاغريق .

العصر الاسلامى

الحالة السياسية

فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٦٤١ م ، فاصبحت ولاية اسلامية ، ولما استقر عمرو بمصر بنى مدينة الفسطاط وجعلها مقراً لامارته ، وحوالى سنة ٦٤٢م ثارت بلاد النوبة فاخضعها ، وبعد ذلك بنحو ثلاث سنوات صد غارة للروم عن الاسكندرية فهزمهم ، وفى عهد عبد الله بن سعد بن ابى السرح فتحت بقيــة برقة وافريقيا ، وكذا بلاد النوبة حتى دنقلة ، ثم كسرت الروم فى البحر سنة ٦٥٥ م فى غزوة ذات الصوارى ، فبقيت مصر نهائياً للخلافة ولم يفلح الرومان فى استرجاعها ، وفى عهد عقبه بن عامر الجهنى فتحت رودس . حدثت بجانب هذه الفتوحات الخارجية عدة ثورات داخلية قام بها الاقباط ضـــد بنى امية فلم يفلحوا ، وظل اثناء ذلك الولاة الامويون يتناوبون الحكم فى مصر حتى ســـنة ٧٥٠ م فتم انتقالها من يد الامويين الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة ، وظل كثير من العمال والموظفين فى مناصبهم ، بل واخلصوا للعباسيين فى خدمتهم . واول ما فعله العباسيون ، نقل مقر الحكم ، فبنى ابو عون مدينة العسكر شمالى الفسطاط لتكون مقراً للولاة .

كثرت فى عهد العباسيين الفتن والقلاقل فى البلاد ، بسبب

الخلاف بين الشيعة والسنيين ، وكان بمصر لكل من العلويين والخوارج طائفة تعززهم حتى أدى تفاقم العداوة بين الاثنين الى اضطراب مستمر ، وظل الاقباط يثورون بين حين وآخر حتى خرجوا سنة ٧٦٧ م بجهة سخا وهزموا جيوش الحكومة وطردوا جباة الخراج . فاستفحل أمرهم حتى عمت الثورة جزءاً عظيما من الوجه البحرى ، واستمر الحال كذلك عدة سنوات ، وانتهى الأمر بكبح جماحهم ، وبجانب هذه الثورات كانت تتكاثر بمصر القبائل العربية منذ فتحها عمرو ، وكانوا فطريين لا عهد لهم بنظام الحكومة ، فلم تنقطع ثوراتهم ، وظلوا يمتنعون عن دفع الضرائب ، واخذوا يسلبون أموال التجار والمسافرين ، ولم تتمكن الحكومة من اخضاعهم تماماً إلا على يد المأمون سنة ٨٣٢ م .

ظلت مصر طوال هذه المدة بعيدة عن الحروب الخارجية ، حتى حاول الروم دخول دمياط سنة ٨٥٣ م فردهم عنها عنبسه وحصنها بحصون منيعة كان لها فضل عظيم فى الحروب الصليبية وحاول أيضاً فى السنة التالية على بابا ملك النوبة أن يزحف على مصر فهزمه عنبسة وحمله على دفع الجزية .

استمر بنو العباس يولون على مصر رجالا من بيت الخلافة خاصة ومن العرب عامة حتى سنة ٨٥٦ م حين بدأ الخلفاء يعينون الاتراك ، ويقطعون البلاد لقواد الفرق التركية الذين بدأوا يستخدمونها بدلا من العرب والفرس ، ولكن لم يحضر هؤلاء القواد بأنفسهم الى مصر ، بل كانوا يعينون عليها ولاة

من قبلهم يديرون شئونها ويرسلون ما يبقى من الايراد ، حتى خرج على الخلافة من هؤلاء الولاة احمد بن طولون سنة ٨٦٨ م واستقل بمصر ، وأسس الدولة الطولونية ، ولما استقر له الأمر وكثر جنده وحاشيته بنى لهم مدينة القطائع على جبل يشكر ثم أخذ يعمل على توسيع ملكه ، ففتح الشام وغيرها حتى صارت مملكته تمتد من نهر الفرات الى برقه ، ومن جبال طوروس الى شلال اسوان .

ولما خلفه ابنه خمارويه اتفق اعداؤه ، مع نائبه فى دمشق على ارجاع الشام الى حكم الخليفة ، فهزمهم خمارويه سنة ٨٨٦ م وطاردهم حتى سمارا ، فولاه الخليفة مصر والشام لمدة ثلاثين سنة مكافئة له .

ثم جاء بعد خمارويه خلفاء ضعاف لم يحسنوا القيام بواجبات الحكم فخرجت الشام وما يليها عن طاعتهم ، وعمت الفوضى فروع الادارة وقلت الأموال ، فارسل الخليفة الى مصر جيشاً هزم الطولونيين بعد أن عمرت دولتهم نحو سبع وثلاثين سنة كانت مصر فيها مستقلة .

بقيت مصر بعد زوال دولة ابن طولون ثلاثين عاماً فى فوضى لأنها كانت تابعة للخلفاء العباسيين ، وكان هؤلاء ضعافاً لا يستطيعون تأييد الحكام الذين يعينوهم على البلاد ، فاصبح الأمر والنهى بين الجند والاتراك وقوادهم، واضطر الحكام الى استرضاء الجند بالعطاء كلما أمكن ذلك .

ظلت الفوضى ضاربه اطنابها فى البلاد حتى ولى أمرها

محمد الأخشيد سنة ٩٣٥ م فعاد اليها الأمن والسكينة ، ولم يجرؤ أحد على الثورة فى وجه جيش الاخشيد ، ولما استقر له الأمر استولى على الشام ، ثم أضاف اليه الخليفة مكة والمدينة وجعل مصر له ولأبنائه لمدة ثلاثين سنة ، ولما اغار سيف الدولة الحمدانى على دمشق ، خرج اليه الأخشيد ، وفرق جيشه فى واقعة قنسرين ، ودخل حلب ودمشق ، ولكنه مع ذلك تنازل عن حلب وشمال الشام لسيف الدولة ، حباً فى مسالمته .

فتح الفاطميون مصر سنة ٩٧٣ م فصارت مركز دولتهم وقلبها النابض وأصبحت لها السيادة لا على بلاد النوبة وجنوب الشام فقط ، بل على الحجاز وبلاد المغرب نفسها وأخذت تصدر منها الأوامر إلى أنحاء الدولة وتدبر شئونها ويذهب منها الحكام لبقية البلاد .

كانت الدولة الفاطمية فى أول أمرها ذات نفوذ حربى عظيم ، إلا أنها فى عهد العزيز ابتدأت تدخل مماليك الترك فى جيش مصر ، وتبعهم السودانيون والمغاربة والبربر وغيرهم وأخذت مصر بجانب ذلك تعانى سنوات من القحط والجدب فعم الكرب واشتد البلاء ، وظل الحكم يتناوبه خلفاء ضعاف فلما جاء الخليفة المستنصر ضاق ذرعاً بهذه المساوىء فاستقدم بدر الجمالى وأطلق يده فى جميع الأمور فابتدأ عصر الوزراء العظام . ثم خلف بدر الجمالى ابنه الأفضل فسار سيرة أبيه بالعدل والحزم واستمرت الطمأنينة والرخاء ، وكان شغله الشاغل إتقاء الخطر الذى يتهدد مصر من جانب الشرق حيث

نزلت الحملة الصليبية الأولى فى الشام وشرعت تنتزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء سنة ١٠٩٩ م ، ثم توغل الصليبيون جنوب فلسطين حتى دخلوا الحدود المصرية سنة ١١١٧ م وأحرقوا الفرما وتقدموا حتى تنيس ، ولم يرجعوا عن فتح مصر لولا مرض بلدوين ملك بيت المقدس . ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها .

ولما مات العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر انفضت الخلافة الفاطمية ، ثم أصبح صلاح الدين الحاكم المطلق بها فأخذ نفوذه يتسع ، ففتح بلاد النوبة واليمن ، وكان الصليبيون لا زالوا يناوشون المسلمين حتى هزمهم صلاح الدين فى واقعة حطين سنة ١١٨٧ م وفتح بيت المقدس .

ظلت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد من مبدئها الى منتهاها ، ولولا وقوفها فى وجه أوربا المسيحية لا نقرض الاسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمالى افريقيا وكان السبب فى سير هذه الدولة نحو السقوط تقسيم صلاح الدين مملكته بين أولاده واخوته وأقاربه ، واستكثاره من إتخاذ المماليك التركية انصاراً وأعواناً .

انقرضت الدولة الأيوبية بقتل توران شاه ، فاستولى المماليك البحرية على الحكم ، وتولى العرش عز الدين ايبك التركمانى سنة ١٢٥٠ م واستمر بالحكم حتى قتلته زوجته الملكة شجرة الدر . ولما قوى شأن التتار فتحوا بغداد سنة ١٢٥٨ م فزالت الخلافة العربية ، وأخذوا يزحفون

على مصر فهزمهم بيبرس ، وكان مهتما منذ تولى الملك باصلاح الجيوش وإنشاء الأساطيل وتنظيم أمور الدولة ، فكان بوضع هذه النظم الملكية الثابتة المؤسس الحقيقى لدولتى المماليك .

كان الحكم منذ تولاه المماليك يتناوب تاره بين أقواهم ، وتارة يكون وراثياً ، حتى استقر الملك ردحاً من الزمن فى أسرة قلاوون ، فقضى مؤسسها أيامه فى محاربة الصليبيين بالرغم من مهادنتهم فيما سبق ، ولما مات خلفه الأشرف خليل ففتح عكا آخر مدينة حصينة بقيت فى أيدى الصليبيين ، ثم سقطت باقى مدنهم فى أيدى المماليك وانقرضت دولتهم بالشام . وفى أثناء ذلك ظلت قوة التتار فى إزدياد حتى أغاروا مرة أخرى على الدولة فى عهد الناصر ، فانتهت الحرب بانهزامهم سنة ١٣٠٣ م . ولما مات الناصر ظلت البلاد فى فوضى ، يتنازع الملك فيها ملك بعد آخر ، وكان أدومهم أثراً السلطان حسن ، وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك . وكان برقوق أول ملوكهم ، وخلفه ابنه الناصر فرج الذى حارب التتار وظل بالحكم حتى انتزعه منه المؤيد ، ثم تتابع بعده عدة ملوك فلم يكن لهم اثر فى حالة مصر بل ساءت فى عهدهم حالة البلاد ، واضطربت الحكومة غير أن اقواهم كان الاشرف برسباى (سنة ١٤٢٢) تحسنت الحال قليلا فى عهده واستولى على جزيرة قبرس ، وكذلك قيتباى (١٤٦٨ م)

والاشرف قانصوه الغورى (١٥٠١ م) وظل الأخير بالحكم حتى دخـــل العثمانيون الشام بقيادة السلطان ســـليم فتوجه اليه الغورى . فهـــزم العثمانيون المماليك وقتلوا الغورى ، فولى المماليك عليهـــم السلطان طومان باى ، إلا أن السلطان سليم أخذ يزحف على مصر ، فهـــزم طومان باى وقتله وبموته انقرضت دولة الشراكسة (١٥١٧ م) وصارت مصر ولاية عثمانيـــة .

النظام الادارى

العرب بلاد أكثرها صحراء جدباء ، يصعب التنقل بين فيافيها القليلة المدن والمؤن والماء ، لذلك لم تقم بين أهلها حكومة مركزية يخضع لها جميع السكان ، بل كانت القبيلة هى الوحدة السياســـية والاقتصادية ، تدافع عن كرامتها وتقوم بحاجتها وتخضع لحكومة أبوية يرأسها الأكبر سناً ، أو الأرجح عقلا لا يقطع أمراً دون أن يتعرف رأى وجوه قومه .

فلما انتقل العرب من الحيـــاة الفطرية الى مدنيات الشرق المجيدة ، لم يكن انتقالهم تدريجياً بل كان سريعا فقامت مدنيتهم على التقلصات الأخيرة لمدنيـــة الشرق التى كانت تسير نحو السقوط ، بينما نشأت المدنيات المصرية والاغريقية والرومانية فى بيئاتها الخاصة ، قبل أن تنتقل الى الفتوحات العظيمة وكان هذا سبباً فى خلود نظمها .

وعلى ذلك فلم يكن للعرب خبرة بالنظم السياسية (١) أو الادارية

أدمجوا الحكومة فى الدين وخلطوا بين السلطتين الدينية والدنيوية ، ولم يفرقوا بين سلطات التشريع والقضاء والادارة ، فلما استقروا بمصر تركوا الحكم المدنى فيها فى أول عهدهم على عهده الأول ، ولم يغيروا فيه شيئاً .

كان العرب رجال حرب وسيف ، لم يتعودوا حكم البلاد ولم يحذقوا فنونه ، ولم يكن بينهم نظام معروف قد يتخذونه فى مصر أو يدخلون منه شيئاً فى ادارة أمورها ، ومصر عريقة فى الحضارة ذات نظام مقرر مشعب ، فلم يكن بد من تناول العرب لأعنة الحكم التى وجدوها ، ويديروا بها الامور على ما كانت سائرة من قبلهم ، لذلك ظل بعض اكابر حكام الروم فى أعمالهم ، ولعل طائفة كبيرة من عامة الروم ساروا فى ذلك على نهجهم ، غير أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة إذ نزح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الاسلام ، فجعل العرب فى مكانهم عمالا من القبط ، فما مر إلا قليل من الزمن حتى صار عمال الدولة يكادون أن يكونوا جميعاً من المسيحيين، وهذا أمر كان لابد منه فى تلك الحال ، إذ كان العرب قوما لاعهد لهم بالمدنية ، وفتحت لهم بلاد ذات حضارة عالية ، وعلى

---

(١) رغم ما اصابه العرب فى العصر العباسى من النهضة العلمية التى قامت على ترجمة كثير من العلوم الاغريقية الى العربية . فمن الغريب أنهم لم يترجموا سياسة ارسطوطاليس . فلم يعرفها العرب ولم يعنوا بها واستعاضوا عنها بقوانين الجمهورية لافلاطون . فظلت نظم الحكومة عندهم غارقة فى طيات النظر الغيبى .

ذلك خلا المسلمون من أعباء الحكم وانصرفوا الى أمور الدين ، إذ لم تشغلهم عنه مشاغل الدنيا ، وقد ظل باقياً كثير من اسماء الروم والقابهم فى حكم الاسلام ، رغم تطاول الزمن ، فقد بقى القبط الى أواخر القرن السابع يسمون المسجل باسمه الرومانى (الخرتولاريوس) ويسمون رئيسه باسم (الاپارخوس) أو (الارخون) ويسمون قصر الحاكم باسم (البريتوريوم) وكانوا يسمون حاكم الاسكندرية باسم (الاغسطل) وقد ورد لقب (دقس) فى كثير مما كتب فى القرن الثامن ولا سيما الحجج الشرعية ، وينحصر الاختلاف بين عهد الرومان والعهد الاسلامى فى حلول عامل الخليفة محل عامل الامبراطور ، ولكنه زاد عليه فى أنه تولى شئونها الادارية والعسكرية والدينية معاً .

كان الخلفاء يعينون عمالهم فى مصر ، إما ولاة لهم مطلق الحرية ، يقومون بأعمال جميع المناصب الثلاثة التى تدور عليها رحى الولاية ، وهى قيادة الحرب وإمامة الناس فى الصلاة وجباية الخراج ، وإما ولاة خاصة مقصورين على واحدة او اثنين منها ، وذلك بحسب مقدرتهم وثقة الخليفة بهم ، وكل وال خاص يرسل بعهد خاص من الخليفة ولا يملك أحدهم عزل الآخر ، وان كان صاحب الحرب أو صاحب الصلاة ، فله الزعامة والاشراف على غيره غالباً .

كان من حقوق الوالى المطلق الصلاة بالناس فى الاوقات الخمسة والجمعة والعيدين ، والخطبة بهم فيها وفى الحوادث العظام،

وانتخاب أعوانه من الحكام وجباة الخراج ، وقادة الجيوش ، وتنصيب القضاة واصحاب الشرطة والمظالم وغيرهم من كبار العمال ، وتنفيذ الأحكام والحدود من القصاص وغيره . ولا يرجع الى الخليفة غالباً فى شيء من ذلك . فالوالى مستقل فى الحقيقة استقلالا داخلياً ، إلا أن حكمه مؤقت قصير المدى فكان الخليفة يستبدل به غيره عند ظهور أى عيب فيه .

وإذا كانت الولاية موزعة على عدة ولاة كل منهم على أحد المناصب الثلاثة ، فان هذا الانفصال اذا كان فى مصلحة الخلفاء المالية ، إلا أنه لم يكن فى مصلحة حسن سير الادارة ، لما كان يقوم عادة من الخلاف بين العمال .

كان نظام البلاد الادارى يباشر بمعرفة الدواوين وكانت لعهد بنى أمية ثلاثة :

١ — كان الجند فى عهد الخلفاء متطوعين لا يجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة اخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيسهم ، غير مايناله القاتل سلباً من القتيل ، فلما وجد ديوان الجند حصر عدد جنود كل امارة واعطياتهم وكل مايختص بهم ، وكان ديوان العساكر الاسلامية مكتوباً على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله وما بعدها ، الاقرب فالاقرب .

٢ — ديوان الخراج وكان ينظم جميع حساب الدولة من دخل وخرج ، وكانت مصروفات الحكومة فى أول عهد العرب بمصر منحصرة فى ستة ابواب : (ا) ماياخذه العامل لنفسه بصفة راتب . (ب) مايخصص للاعمال العمومية .

(ح) مايصرف فى عطيات أهل ديوان الجند . (ى) مايصرف فى أرزاق الكتبة (هـ) مايرسل من القمح لأهل الحجاز (و) مايبعث به الى خزينة الخليفة (الجزية) .

٣ — ديوان الرسائل والكتابة ويصدر الرسائل مختومة بخاتم السلطان ويجلس القائم بهذا العمل بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه احكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وابلغه .

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقواد وقليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبونه ارزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسل الى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه ، وكانت أهم الايرادات هي الخراج والجزية والصدقات .

والخراج هو ما كان يوضع على الاراضى ، ويؤخذ من اصحابها كأنه اجرة للأرض التى ابقيت فى ايديهم ، بعد ان امتلكها المسلمون عنوة ، وكانوا يجعلونه حينا مبلغا محدداً وحينا آخر حصة شائعة مما يخرج من الارض .

والجزية ما كان يوضع على رؤوس اهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء حمايتهم ودفع العدوعنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لاقدرة له على العمل .

أما الصدقات فكانت تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم

وممتلكاتهم وما يخرج من أراضيهم ، وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً ، وكانوا يعينون لذلك مصـــدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الأمام فى مصارفها الشرعية .

ان حافظ العرب فى مصر على طرق تدوين دواوينهـــم ، فقد كانوا على مايلوح أخف منهم وطأة فى جباية الأموال ، إذ كان المقدار الذى اتفقوا عليه فى الجزية والضرائب فى عهد الصلح اخف حملا على الناس واقل احراجا لهم ، وانه من الصعب أن يعرف الانسان حقيقة هذا الأمر ، فليس لدينا إلا ما كتبـــه العرب ، واختلافهم ينحصر معظمه فى إحصاء الاعداد وذكر الأرقام ، فابن الحكم مثلا يقول انه لمـــا استقر الامر للعرب جعل القبط يدفعون الجزية مثل ما كانوا يدفعون للروم ، غير أنها كانت تتغير بحسب غناهم ورواج امورهم ، وكان زعماء الناس فى القرى يجتمعون لينظروا فى حالة الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكأنهم كانوا لجنـــة خاصة تجتمع لتقدير مقدار مايجبى من الاموال . فاذا اجتمع من ذلك المـال شىء فوق مافرض على قريتهم انفق فى إصلاح أحوالها . وكانت تجعل فى كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعهـــا لاصلاح الابنية العامة وصيانتها ، وذلك مثل الكنائس والحمامات .

وكانوا كذلك يقدرون مايفرض على النـــاس من المـال لضيافة العرب ، وكان هذا حقـــاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ماكان يفرض من المال لضيافة الحاكم واكرامه إذا وفد عليهم .

كانت هذه المجالس تعقد فى أوائل الفتح ، ثم تغيرت الحال فصار الفلاحون يقومون بتأدية خراج أراضيهم الى أصحاب الالتزام وهم الذين يرسو عليهم خراج النواحى مـــدة ثلاث سنوات بعد اعلان التزايد بمسجد عمرو ، وكان هؤلاء يجمعون الخراج بواسطة أعوانهم ومعاونة الحكومة أحياناً .

كانت الجزية دينارين على كل رجل ، ما عـــدا الصغير الذى لا يبلغ الحلم ، والشيخ ، ولم تفـــرض على النساء ولا على الرقيق ولا على المساكين المعدمين ، على أن الجزية ، وان كانت فى مجموعها على عدد الرؤوس ، لم تكن على ما يظهر لنا واحدة على كل فرد . بل كانت تختلف ، وذلك لأن الدينارين لا يتكلف الغنى من حملهما شيئاً ، فى حين انهما يبهظان الفـــلاح الفقير ، فلعل الحاكم كان له الخيـــار أن يقسم من تفرض عليهـــم الجزية ثلاثة أقسام الفقراء وأواسط الناس والأغنياء . فكان يضع على كل فئة قسطا من الجزية خلاف ما يضعه على غيرها .

ولما انتشر الاسلام بين النـــاس زادت وطأته على القبط وأصبح عبء الجزية ثقيلا لا ترضـاه الأغلبيـــة ، وأصبح أصحاب الجزية من النصارى واليهود معدمين ، وقد صـــاروا قلة ظاهرة بسبب من كان يسلم منهم عاما بعـــد عام ، فكانت الجزية كأنهـا رشوة لتحريض النصارى على الخروج من ملتهم ، وأخذت الأموال تنقص نقصا ظاهراً ، فأخذ الحكام يزيدون فى مقدار الجزية المفروضة يعوضون ما نقص منهـــا فكان عبء الجزية يزيد ثقـلا على المسيحيين كلما قل عـددهم

فلا عجب إذاً أن يخضع كثير من القبط للاسلام ، بل العجب أن يبقى عدد عظيم منهم ثابتا على عقيدته ، ولم تستطع عواصف الحدثان التى توالت عليهم بعد ذلك أن تزعزعهم عن عقيدة قائمة فى قلوبهم كأنها الصخر .

ظلت النظم الادارية تسير على هذا النسق طوال العصور الاسلامية المختلفة حتى ظهر نظام الحسبة ، وهو يمت بصلة الى الدين ، وغرضه تنفيذ ما جاء فى الشريعة الاسلامية خاصا بالصحة والمعاملات التجارية والصناعية تنفيذا دقيقاً وبمعنى آخر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

كان لزاماً على المحتسب أن يراعى القوانين ويحيط بكل مخالفة لها فيعاقب من خالفها حتى يكفل المنفعة العامة للاهلين . كان يمنع كل ما يعوق الطرق العامة كاحتشاد الحمالين باثقالهم أو تجمع النوتية بقواربهم ، ويأمر أصحاب المنازل المتداعية الى السقوط بازالتها تفاديا لكوارث مروعة بانهيارها على المارة فى الطرق ، وكان يمنع ، الى جانب ذلك ، شيوخ المكاتب من ضرب الاطفال ضربا مبرحا .

وهو فى كل ذلك لم يكن يفصل فى شكاوى تقدم اليه ، بل كان حاكما يأمر وينهى فى كل ما يصل اليه من المعلومات ، إلا أن أوامره ونواهيه ما كانت تشمل كل دعوى أيا كان نوعها بل شملت على الخصوص مسائل الغش والتدليس فى التجارة فهو يعمل مثلا على استيفاء الديوان لاربابها ، ويراقب الموازين والمكاييل وما شابه ذلك من الامور التى تدخل فى نطاق

سلطته ، حتى قيل أنه يفصل فى الامور التى يعرض عنها القضاة إما كرها منهم لهـا وإما لبساطتها ، ومن ذلك يتضح لنـا أن ديوان المحتسب كان متصلا بديوان القاضى .

ولقد بلغت سلطة المحتسب فى بعض العصور سلطة القاضى وكان للقاضى الفصل فيما يرغب فيه من الامور ، ولكن لما فرق بين حقوق السلطنة وحقوق الخلافة ، وكان من حق السلطنة الادارة الزمنية ، أصبح لديوان المحتسب صفة خاصة .

وفى عهـد الفاطميين ارتقى نظام الحسبة ، وكان ينتخب المحتسب من أعيان المسلمين ، واصبح هذا المنصب من المناصب الدينية الهامة ، وكان للمحتسب نواب ينوبون عنه فى الاشراف على الأسواق والمحافظة على الآداب . وكان مركزه فى جامعى عمرو والازهر .

وفى عهـد المماليك حلت الرزنامة محل الدواوين وتمركزت السلطة الادارية للحكومة بانتقالها الى الملتزمين الذين منحهـم الحكام حق التزام الخراج ، فكان لهم سلطة مطلقة فى القرى الداخلة فى التزامهم ، ولكل منهم فيها وكيل يسمى (قائمقـام) ينوب عنهم ، وهم الذين يعينون فيها مشايخ البلاد وهؤلاء هم وسطاء الملتزمين فى جباية الضرائب من الفلاحين ، أما البكوات المماليك وكبار الملتزمين فلهم مع مشايخ البلاد وكلاء يسمون (المباشرين) تمتد سلطتهم على عدة قرى ومقاطعات ، وقـد اختص الاقباط بهـذه الوظائف ، وكانوا يعينون تحت سلطتهم الصيارف والكتبه والمساحين ، وبأيديهم سجلات الضرائب .

كان للملتزمين سلطة مطلقة على الفلاحين ، فكانوا يعسفونهم ويسومونهم الظلم والجور ، ويفرضون على أملاكهم ما شاءت أهواؤهم من ضرائب واتاوات ، فتعددت الضرائب على الأرض حتى أنها كانت تستغرق معظم ريع الارض وقد بلغت فى بعض الاحيان نحو سبع عشرة ضريبة ، هذا خلاف استباحات قومندانية الاقاليم الذين كانوا يصادرون للجيش كل ما يجدونه ، بحجة تغذية العساكر ، ويتقاضون من الفلاح منحاً ورسوماً تبتدعها قرائحهم بتفنن غريب ، غير أن أشد تلك الاتاوات هولاً هى التى كان الفلاح يدفعها صاغراً لبدو الصحراء ، فان هؤلاء الغزاة كانوا يتحينون كل فرصة سانحة فيقتحمون القرى وينهبون الحاصلات ويسرقون السائمة ويسلبون كل ما تصل اليه ايديهم ، أو يجبون الوزائع ويبيعون حمايتهم على الراغبين فى شرائها من الفلاحين .

أما الضرائب الرسمية فكانت على ثلاثة أنواع أولها ضريبة الخراج وتسمى المال الميرى ، وهى مخصصة أصلا للسلطان .

والثانية ضريبة الكشوفية وهى مخصصة للبك أو الكاشف حاكم المديرية .

والثالثة فائض الالتزام وهو ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء الميرى والكشوفية ، ومجموع هذه الضرائب يسمى (المال الحر) وهو المقرر أصلا على الأطيان أو الضرائب القانونية يدفعها الفلاحون للملتزمين وهؤلاء يدفعون الميرى والكشوفية وما بقى فهو لهم .

لـكن الملتزمين لم يكتفوا بهـــذه الضرائب بل فرضوا على أطيان الفلاحين أتاوات اخرى ضربتهـا أهواؤهم ومطامعهم منها المضاف والبرانى الجـديد والقديم ، وغيرها من الضرائب التى أرهقت الفلاحين واثقلت كاهلهم .

كانت البيوت والمنازل معفـاة من الضرائب لأن الخراج فى الأصـــل كان مقرراً على الاطيان ، على أن الحـكومة فرضت الضرائب غير العقارية والمـكوس والأتاوات على الصـناعات والمأكولات والمتاجر بما فى ذلك رسوم الجمارك وعلى الوكالات والسفن والقوافل وكذلك على الرؤوس وعلى الوظائف الرئيسية .

وكانت الضرائب المحصلة تنفق فى الأوجه الآتية :

١ ـ نفقات الباشـــا والبـكوات وجامـكية العسكر أى عطاء الجنـــود والوجاقلية ونفقات المؤن والذخائر ورواتب افندية الرزنامة ومعاشات الارامل والايتام والمـكفوفين .

٢ ـ ما يخرج للحرمين الشريفين .

٣ ـ نفقات المحمل وأمير الحج .

٤ ـ المصاريف الأخرى التى لا تدخل فى حسـاب ، كاصلاح الترع وتطهـيرها وترميم القلاع ، والانفاق على الأزهر ، وصيانة المساجد والاضرحة ، وارزاق المشايخ ومصاريف مقياس النيل وحفلة وفاء النيل وغير ذلك .

الحالة الاقتصادية

ظلت الزراعة فى العصور الاسـلامية الأولى أهم موارد الثروة ، وكان يزرع بمصر وقتئذ القمح وباقى الحبوب والـكتان

وكثير من الكروم والنخيل والفاكهة .

وظل نظام ملكية الأراضي يسير فى أول الأمر كما كان الحال زمن الرومان ، فكانت الأراضى تمنح للفلاحين ليتولوا زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها مقابل دفع ضرائب معينة ، ولما كانت إدارة الحكومة ضعيفة ، انصرف كثير من الناس عن الزراعة وتعطلت الأعمال وهبطت قيمة الأراضى فنقص الخراج وقلت الجباية ، فعمد الحكام إل طريقة الالتزام وهى تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيما يغلونه من الأهلين وكانت الحكومة تعرض جباية الخراج بالمزايدة لمن يضمنه من ذوي النفوذ ، فمن يقع عليه المزاد سمى الملتزم ، ويلتزم بضريبة بلد أو عدة بلاد سنة أو أكثر ، ويدفع للحكومة سلفاً مال سنة ، وإذا تأخر فى دفع مال الخراج تشدد الولاة فى طلبه مرة وتسامحوا به مرة حتى ينتزعوا الأرض منه ويسلمونها لمن يدفع زيادة فيها ، وكان يتولى الملتزم أيضاً الأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان وإقامة الأحواض والقناطر والجسور ، وتقدير القنوات ونحو ذلك من الأعمال التى كانت تقوم بشؤونها الحكومة نفسها .

ولما استأثر المماليك بالقوة والسلطة ، ظل الحكام يعهدون بخراج النواحى والبلاد إلى الملتزمين ، فكان الباشا نائب السلطان يطرح فى المزايدة العلنية القرى المصرية ، فمن دفع فيها أعلى عطاء رست عليه ، وكان هو الملتزم ، فيتسلم عهداً بذلك

يسمى (تقسيطاً) يثبت التزامه ويتضمن الأمر الصادر إلى زعماء القرى وسكانها الداخلين فى التزام الملتزم باطاعته وتأدية الخراج إليه . فكان يحصل من أصحاب الأراضى على الخراج الذى عجله للحكومة مضافاً إليه الربا وملحقاته فى صورة ضرائب عديدة ، هذا عدا استخدامه الفلاحين بطريق السخرة فى زرع الأراضى التى تدعى (الأوسية) والتى كانت الحكومة تمنحها له مقابل ما يكابده فى تحصيل الضرائب ، وكانت هذه الأراضى معفاة من كل ضريبة .

ثم تطور الالتزام فبعد أن كان يعطى لسنة أو عدة سنوات ، جعلوا يعطونه للملتزمين مدى الحياة ، فلا ترجع الأراضى للحكومة إلا بعد وفاة الملتزم بها ، وإذا مات الملتزم فلورثته أن يستبقوا الأراضى فى أيديهم إذا دفعوا الأتاوة للحكومة وإلا صارت حقاً لبيت المال ، وتوصل بعض الملتزمين إلى ابقاء الالتزام إرثاً لذراريهم بما دفعوا للحكومة من هذه الأتاوة . وكان من حقهم بيع الالتزام لغيرهم من الملتزمين .

أما الفلاحون فما كانوا يملكون أرضا قط ، إنما كانوا يزرعون الأراضى التى ورثوها بوضع اليد ، فاذا عجز أحدهم عن زرعها ، أو خشى الملتزم ألا يقدر على سداد أتاوتها استردها منه وأعطاها لغيره ، وإذا مات الفلاح الواضع يده على الأرض بلا وارث ، ضم الملتزم الأرض الى أعيانه الخاصة بخلاف الحال فى سائر مملوكات الفلاح كبيته ومنقولاته وماشيته

فهذه إذا مات عنها بلا وارث آلت الى بيت المال لا الى الملتزم .

إن نظاما هذا شأنه ، كان يسير بالزراعة نحـــو التقهقر السريع ، ولم تكن الصناعة أكثر حظا ، فقـــد كان العرب قليلى الخبرة بالصناعة ، فلما دخلوا مصر لم يعنوا بالبناء والتشييد وأهملت المبانى والقصور ، بل كانوا ينزعون المرمر الثمين من مواضعه إذا احتاجوا لتشييد مسجد أو بناء ، أو لكى يصنعوا منه الجير ، وكانت تماثيل البرنز تصهر لكى تتخذ منهـا النقود أو لتصنع منها الآنية ، إلا أنه بقيت ، مع كل هـــذا التخريب المحزن والاضمحلال البالغ ، بقية من آثار ورسوم فى الصنـاعة حرص عليهـــا القبط ، فظلت بعض الصناعات حيـــة بمصر كصناعة نحت العاج والذهب وتطعيم المعادن ، وصناعة الورق والمنسوجات وبناء السفن وعمل الزجاج والخزف . وقد ذكر ناصر خسرو السائح الفـــارس الذى جاء الى الفسطاط سنة ١٠٤٧ م الرقى الذى كانت عليه صناعة الزجاج الرقيق المزخرف والأوانى اللامعة المختلفة الألوان ، وذكر أيضاً تقـــدم صناعة النسيج وبراعة صانعيه ، وعلى الخصوص بمدينـــة تنيس التى عجب من ثرائها ورواج أسواقهـا ، فهو يذكر أنه كانت بهـــا عشرة آلاف متجر ، فلم تعتمد على الزراعة فى أقواتهـــا بل كانت التجارة موردها الوحيد .

منذ أن انقطعت علاقة مصر بالرومان كانت التجـــارة فى حالة كساد ، واقتصرت تجارة مصر الخارجيـــة على تصدير بعض الحبوب والمنسوجات الكتانية ، وكانت تصدر بطريق

البحر والنيل والقوافل ، وكان أهم هـــذه الطرق شانا خليج أمير المؤمنين الذى كان يصل النيل بالبحر الأحمــــر ، وبقى إلى صدر الدولة العباسية حتى ردمه المنصور .

ظلت التجارة خاملة حتى جاء عهـــد الأيوبيين فنشطت بـــين مصر والغرب على أثر الحـــروب الصليبيـــة ، وأصبحت مصر سوقاً تجارية عظيمة . فزادت ثروة الأهالى زيادة عظيمـــة ظهر أثرها فيما شيـــده المماليك من الآثار . وأظهر ملوك الأيوبيين إهتماماً بفتح أسواق البـــلاد للتجارة الأوربية ، فمنح الملك العادل سنة ١٢٠٨ م تسهيلات للفنيسيين ثم لأهل بيزا .

استمرت هذه السياسة فى عهد المماليك ، فعقـــد بيبرس معاهدة تجارية مع الفونسو ملك اشبيلية سنة ١٢٧١ م ومـــع غيره من ملوك أوربا ، وكان المماليك وقتئذ أصحـــاب النفوذ المطلق فى مصر وسوريا ، ولذا وقعت فى قبضتهم جميع الموانى وطرق القوافل التى توصل الى أوربا متاجر البـــلاد الهندية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، وبذلك تمكنوا من فرض الضرائب التى يريدونها على كل كمية من البضاعة الهنـــدية التى تمر من طريق البحر الأحمر إلى القـــاهرة ثم الى الاسكندرية وكذلك من طريق الخليج الفارسى الى البصرة ، ثم بطريق القوافل إلى ميناء الاسكندرونة .

خدمت هذه الظروف المماليك فى تلك العصور ، فكان تيار الذهب يتدفق فى جيوبهـــم من كل صوب وكان عونا

عظيما لهم على البذخ والانفاق ، وتمكنوا به من حفظ دولتهم واقامة مبانيهم الهائلة الفخمة ، ونشر نفوذهم فى الشرق كله واستطاعوا به أيضا القيام بحروبهم الطويلة .

وفى سنة ١٤٩٧ م اكتشف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح ، فكان فاتحة انقلاب عظيم فى تجارة العالم بأسره ، إذ أن نقل البضائع صار ينفق عليه ثلث ما كان ينفق بالطريقة القديمة ، فوق متاعبها وطولها . فكانت النتيجة أن تحول مجرى هذه التجارة العظيمة من الشام ومصر والبحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاطلنطى حول شواطىء افريقيا .

ولم يكتف البرتغال بانتقال معظم هذه التجارة الى أيديهم بل شرعت سفنهم فى البحر الاحمر تقبض على كل سفينة مصرية تبغى التجارة فى تلك الجهات ، ووقعت بين الفريقين بعض معارك مختلفة (١٥٠٣/٤م) ، فاستاء السلطان وغضب لمهاجمتهم البحر الاحمر وضياع المتاجر والضرائب ولتعرض مكة للمهاجمة فكون أسطولا مصرياً بمعاونة البندقية ، سافر الى السويس والتقى بالأسطول البرتغالى عند شواطىء بومباى فقهر الأسطول المصرى الاسطول البرتغالى وحطم سفنه ، فلم يذعن البرتغاليون لهذا الانهزام وجمعوا اسطولا جديداً تمكنوا به من قهر الأسطول المصرى الفينيسى فى فبراير سنة ١٥٠٩ م .

كانت لنتيجة تحويل التجارة الاسيوية عن طريق مصر أثر سيئ فى ادارة البلاد ونظامها وثروتها ، الى درجة أدت الى خراب البلاد ، إذ بقي المماليك ، وبقى بذخهم ، وبقى

تعودهم الترف والنعيم ، وقل الوارد من الخارج ، فتحولوا الى امتصاص دماء الأهالى .

لم تكن التجارة فى تلك العصور حرة كما هى الآن ، بل كان المتعارف ان لكل سلعة ثمناً عادلا هو ثمن المواد الغفل وتكاليفها وأتعاب صانعها ، من غير نظر الى قانون للعرض والطلب ، ولهذا كان كل منتج تقريباً ملزما أن يبيع سلعته للمستهلك مباشرة دون وساطة تاجر الجملة .

ومن القيود الثقيلة التى عاقت سير التجارة ، اضطرار التاجر إلى دفع عوائد وضرائب متباينة على الطرق العامة وعلى المرور من القناطر والمعابر وعند دخول المدن وعبور حدود كل منطقة ، فضلا عما يحدث من ضياع الوقت والنهب ومنها اختلاف النقد من جهة الى اخرى فى حدود المملكة الواحدة ، والاخطار العظيمة التى كانت تحيط التجارة فى البحر من هجوم القرصان وقلة المنائر على الشواطيء وسوء حالة الثغور وقلة الحياض .

الدين

كان العرب يعبدون فى أول أمرهم الأصنام والاوثان ، فلما جاء اسماعيل دان كثير منهم بديانته ، وأخذوا يعظمون بعد وفاته الكعبة التى شيدها ، حتى فاقوا فى اجلالها اجلالهم لأى معبود آخر . ثم انتشرت اليهودية والمسيحية فى كثير من بلاد العرب ، إلا أن المتدينين من العرب بالمسيحية كانوا أقلية ، لأنه

لم يكن لهذا الدين تأثير حقيق فى نفوسهم ، فالمسيحية تبشر بالسلم وتأمر بالأغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن فى استطاعة العرب أن يبتعدوا عنها كما أن حل الغنائم والانتفاع بها لم يكن فى شيء من الدين المسيحى أو اليهودى .

ظل العرب شيعا مختلفة لا يدينون بعقيدة واحدة حتى نشا الاسلام على قواعد شريعة ابراهيم ، واخذ ينمو فى بيئتهم فكان ملائماً لها موافقاً لطبيعتها ، فأقر العرب على كثير من مظاهر حياتهم وبدل منها ما كان مستطاعاً تبديله ، فلم يرتفع بمستواهم الاجتماعى أكثر مما تحتمله طبيعتهم ، فبقيت أغلب النظم التى كان يمارسها العرب على ما هى عليه ، كالصوم والزكاة ونظم الزواج والتوريث والرقيق ، إلا أن الاسلام كان رغم ذلك ذا أثر عظيم فى اخلاق العرب وعاداتهم ، فقضى على المنازعات والحروب القومية ، وبالتالى حولها نحو الفتوحات الخارجية ، واصبح للعرب حكومة واحدة ورئيس واحد يسهر على مصالحهم ويقيم العدل بينهم .

منذ أن دخل العرب مصر دعوا أهل البلاد الى الدخول فى الاسلام ، فان اسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء ، وان لم يسلموا دعوهم الى أن يقبلوا حكم العرب ويبقوا على دينهم ان شاءوا ، ويدفعوا الجزية فيصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا فى ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ، ومن أجل هذا كانوا يسمون أهل الذمة ، وإن لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية اعلنت عليهم الحرب وقوتلوا .

وكانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تختلف باختلاف العهود المعطاة لكل طائفة منهم ، وباختلاف القابضين على زمام الاحكام من المسلمين ، وتنحصر أوجه الاختلاف فى العهود فى شدة أو قلة المقاومة التى أبداها أهل الذمة ضد المسلمين ، وفى كثرة أو قلة ثقة المسلمين فيمن عاهدوه منهم .

وقد عوهد أقباط مصر فى أول الفتح على ستة شروط مستحقة :

١ ـ ألا يذكر أهل الذمة كتاب الله بطعن فيه أو تحريف له ٢ ـ ألا يذكروا رسول الله بتكذيب له أو بازدراء . ٣ ـ ألا يذكروا دين الاسلام بذم له أو قدح فيه ٤ ـ ألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح ٥ ـ ألا يفتنوا مسلماً عن دينه أو يتعرضوا لحاله أو دمه ٦ ـ ألا يعينوا أهل الحرب ، ولا يأووا أغنياءهم .

ترك المسلمون القبط وشأنهم فى كنائسهم وأديرتهم ، وأعادوا اليهم ما أخذه الروم الملكانيون منهم وأطلقوا لهم الحرية فى أن يبنوا منها ما طاب لهم ، ولم يكن لعمرو هوى مع أحد المذهبين الذى قام النضال بينهما فى العهد الرومانى فنرجح أن كليهما قد بقيا جنباً إلى جنب فى مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعاً بحمايتهم .

أما ما كان دين التوحيد لا يحتمله من الشعائر الوثنية فقد قال عمرو فيها بأن الاسلام يهدم ما قبله ، لذلك أبطل سنة المصريين فى التضحية التى يقدمونها عند الاحتفال بوفاء

النيل ، وكانوا يعتقدون أنه لا يجرى إلا اذا القيت فيه كل سنة جارية بكر وزينت بأفضل ما يكون من الحلى والثياب .
غير أن العرب بعد أن صالحوا جميع من فى مصر من الأقباط أخذ كثير من ولاتهم يشتدون عليهم وعلى الخصوص لما أفضت الخلافة الى بنى أمية ، فزادوا فى شدة الشروط السالفة ، وأغضوا النظر عما كان يرتكبه عمالهم أحياناً من المظالم فى حق النصارى . فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويزيدون قيمة الجزية المفروضة عليهم . ففى القرن الثانى للهجرة هدم على بن سليمان بعض الكنائس فاحتج موسى بن عيسى والى مصر من قبل الرشيد بأن هذه الكنائس مما بنى فى عهد الصحابة والتابعين ، وافتى الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة من احبار الأمة بارجاعها إلى سالف عهدها ، وقالا بأنها من عمارة البلاد ، أما الأصنام والتماثيل فقد صدر أمر الخليفة بكسرها سنة ٧٢٢ م .
ولما تولى العباسيون الحكم ، شرعوا فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، فاحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة ، لأنهم كانوا أهل معرفة فى الحساب ، والكتابة والخراج فضلا عن العلوم الاخرى ، فقربوهم اليهم وأكرموهم وسهلوا لهم أسباب المعيشة ، وأغدقوا عليهم الرواتب الضخمة فتقاطر أهل الذمة اليهم ، وخدموا الدولة العباسية بعقولهم واقلامهم بأمانة واخلاص ، لذلك كان الخلفاء كثيراً ما يغضون عما فى العهود التى أخذت عليهم من التضييق على مظاهر عباداتهم فلا يمنعونهم من احداث الكنائس أو الاحتفال بالأعياد .

غير أن ذلك كله ، انما كان منحة يجود بها على أهل الذمة كرم أخلاق بعض الخلفاء العباسيين وسماحة صدورهم ، فيقتدى عمالهم بهم أحيانا ، ولكنه لم يكن ليمحو العهود المعطاة والمأخوذة فى أيام الفتح الأولى ، ولا لينشىء حقوقاً جديدة لأهل الذمة فى دستور الحكم الاسلامى ، فكان إذا تغير عليهم خاطر خليفه ولو كان متسامحاً ، عمد الى تنفيذ تلك العهود عليهم كما فعل موسى الهادى مثلا فى كنائس مصر سنة ٧٨٦ م . إذ هدمها على يد عامله على ابن سليمان العباسى .

كان من تأثير تضييق العرب المتواصل على الاقباط ، وكثرة المغارم والمظالم التى كان الولاة يصيبونهم بها ، قيام القبط بعدة ثورات على المسلمين ، كان آخرها الثورة التى قاموا بها (٨٣١ م) فكان بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب مريعة ، امتدت الى أن قدم الخليفة المأمون بنفسه (٨٣٢ م) فأوقع بهم وحصرهم حتى نزلوا على حكمه ، فأخذوا يعتنقون الاسلام وابتدأ من ذلك العهد الطور الحقيقى لانتشار الدين الاسلامى مصر .

اتبع المصريون منذ الفتح المذهب السنى(١) وهو مذهب

(١) كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكونت حولها أهم الفرق الاسلامية فى العصر الاول وكانت أهم هذه الفرق ١ ـ السنيون ويقولون بوجوب حصر الخلافة فى قريش ٢ ـ الخوارج ويرون أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ٣ ـ الشيعة ويحصرون الخلافة فى بيت النبي وآله ٤ ـ المرجئة ولا يتحيزون لاحد الفرق السابقة بل يقابلونها باللين والتسامح . فكان الغرض الاول لهذه الفرق سياسيا ولكن اغلبها تطور الى الناحيه اللاهوتيه فجعلها جزءا من خطته .

الدولة العباسية والطولونية والاخشيدية حتى تولى الفاطميون الحكم فتغيرت الحالة الدينية ، فبعد أن كانت فى أوائل عهد الاسلام عصر صراع بين المسلمين والقبط أصبحت صراعاً بين السنيين والشيعيين ، ويرجع ذلك الى شدة العصبية العربية ، التى حاول الاسلام أن يقضى عليها ولكنها ظهرت سريعاً تحت ستار الخلافة .

أخذ الفاطميون يبثون الدعوة للبيت العلوى ، على أنهم لم يوفقوا فى تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً ، فقد كان السواد الاعظم من المصريين يعتنق المذهب السنى فى حين كان الشيعيون أقلية صغيرة بالنسبة الى أصل البلاد .

ألغى الفاطميون الخطبة للعباسيين وأقاموها للمعز الفاطمى ومنعوا لبس السواد وهو شعار العباسيين، وقرروا لبس الملابس البيضاء ، وحرموا على الناس قراءة التسبيح فى صلاة الجمعة ونهوا عن التكبير بعد الصلاة ، وغيروا من صيغة الآذان فبعد أن كانت (الله اكبر الله اكبر) اصبحت (حى على خير العمل) وهى من العبارات المألوفة عند الشيعيين . وعلى العموم غير الشيعيون اكثر العادات التى كانت مألوفة عند السنيين .

استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدمجونهم فى جيوشهم ، لبث الدعاية باسمهم ، وبلغ عدد هؤلاء الدعاة اثنى عشر نقيباً ، وعينوا لهم رئيسا هو داعى الدعاة ، وكان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية ، ويحضر اليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون اليه محاضراتهم عن

أصـــــول المذهب الشيعى ، فيقدمها الداعى بنفسه قبـل القائها إلى الخليفة فيقر ما يقبـــله منهـا ويذيله بامضـائه ، ثم يردها الداعى اليهم .

ظلت الدولة الفاطمية تعمل من ناحية أخرى على تقويض ملك الدولة العباسية ، فعمدت الى صبغ هذه المحاربة السياسية بصبغة دينيـــة ، وتحقيقاً لهذه الغاية أسس الحاكم بأمر الله دار الحـكمة يعلم فيها الناس الالحاد .

حمـل الحاكم الى دار الحـكمة الـكتب من خزائن القصور ووقف لها أماكن ينفق عليهـــا من ريعها ، وأقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغـــة والاطباء وأجرى لهم الارزاق وأباح لسائر الناس الوصول اليها على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا وينسخوا ما شاءوا ، وقد أباح المناظرة بين المترددين اليها .

كان الطالب يتلقى فى دار الحـكمة بعض تعاليم الاسماعيليـة وهى طائفة من فرقة الباطنية التى اسسها عبـد الله بن ميمون القداح (١) وتقول بأن تعاليم الاديان باطلة ، وان الفروض التى أمرت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة أريد بهما اخضـاع الناس ، ويتلقى أيضاً بعض تعاليم المانوية التى تهدم وحدانيـــة الله ، وبعض تعاليم ارسـطو وافلاطون وغيرهم التى تقـول بأن

---

(١) كان أول من حاول تحرير الفرس سياسياً عن طريق هدم الخلافة ونشر الفوضى الدينية فأسس فرقة الباطنية لهدم الدين مقتفياً أثر أبيه الذى كان يحـارب الاسلام سراً بتزييف الاحاديث ، وكان بهذه الفرقـة شيئـاً كثيراً من عقـائد الفرس المانوية ، ويقال ان عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ينتمى فى النسب الى القداح .

تعاليم جميع الاديان يجب أن تخضع لشريعة العقل والعـــلم ، ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رجال العمل والسياسيين الذين ينشئون الحكومات ويؤسسون النظم المدنيـــة للناس ، والغرض الأخير لهذه التعـــاليم احلال الفلسـفة محل الدين ، ورفض الاديان واعتبارها حديث خرافة .

ولما انتهت الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ م ماتت فى نهايتها هذه النزعة الالحادية لأن دار الحكمة لم تعش بعد هذه الدولة .

أحدث الفـاطميون بمصر كثيراً من المواسم والاعيـــاد والحفلات الوطنية كما ابتدعوا عادة الاحتفال بموالد أهل البيت وباحياء الليالى المبـاركة ، ولم يقتصرا على ذلك بل اعتنـوا أيضاً بأكثر الاعياد القبطية .

ولما تغيرت الحالة الســـياسية فى مصر واصبح الحـــكم للايوبيين ، عادت مصر سنية يخطب خطبـــاؤها فى المسـاجد للخلفاء العباسيين ، وتغيرت كثير من النظم والعادات التى كانت متبعة أيام الفاطميين ، واسست المدارس لـكى تعنى بتـدريس المذهب السنى .

ظل الايوبيـون يحاربون المذهب الشـيعى حتى وقعت الحروب الصليبية ، فقاوموها أشد مقاومة وكان الانتصـــار حليف المسلمين ، فصدوا بذلك المسيحيين عن التغلغل فى اراضى المسلمين ولولا هذا العمل لتغيرت خريطة توزيع الدين الاسلامى فى الشرق تغيراً عظيما .

لم تدم الوحدة الدينية التى كونها الايوبيون فى مقـــاومتهم

للصليبيين ، وذلك لأن المماليك الذين كان يستخدمهم الفاطميون ـ ثم أخذت الدولة الايوبيـة فى استكثـارهم ـ كانوا سبباً فى تفـكيك هذه الوحدة .

كان المماليك من بيئات مختلفة يدينون بعقائد متباينة ، ورغم تعلمهم قواعد الدين الاســـلامى فى طفولتهم إلا أنهم كانوا فى كبرهم ينتمون اليه ظـاهراً ، فضعف شأن الدين وكثر الظـلم والاستبداد . وظل الحـــال كذلك حتى تولى الحـكم بيـبرس (١٢٦٠ م) فأراد أن يوطد مركزه ضد أعدائه بايجـاد سلطة دينية تناصره فى الحـكم ، وتآزره فى القضاء على نفوذ الشيعة الذى كان لايزال باقياً فى مصر ، فكان سبيله الى ذلك اعادة الخـلافة العباسية وجعل مقرها مصر .

بايع الشعب أحد سلائل العباسيين بالخلافة ودعى (المستنصر بالله) ، ثم أراد بيبرس أن يعيد إليه خلافته العباسية فى بغداد . إلا أن بعض الأمراء أسر الى بيبرس فى أن تكوين خلافـــة عربية قوية فى بغداد خطر داهم على استقلال مصر ، فدبر بيبرس مؤامرة قتل فيهـا الخليفة ، وولى بعـــده الخلافة أحد سلائل العباسين أيضا ، إلا أنه لم يعطه من السلطة شيئا ولم يجعل له أى نفوذ أو دخل فى شئون الدولة ، وجعله شخصاً عادياً فى الحاشية مراقباً سجيناً لا يبارح القلعة إلا بأذن السلطـان ، ومنـــذ ذلك الوقت اصبح الخليفة وليس له من الخلافة إلا اسمها ، فكان بمثابة متمم للحاشية فى الحفلات الرسميـــة المهمة . وأهم أعماله الاعتراف بالسلطان الجديد ومنحه البركة بصفته أكبر رئيس

دينى أسلامى ؛

وفى سنة ١٤١١ م ثار المماليك بزعامة الخليفة على السلطان فرج بن برقوق وقتلوه لأنه اعتبر خارجا على الدين الاسلامى لضربه سكة للملكة عليها صورته . ثم اجتمع العلماء والمشايخ وزعماء المماليك وطلبوا الى الخليفة العباسى أن يرتقى الى العرش ليصون الشريعة والدين من تلاعب المارقين فتولى العرش سنة (١٤١٢ م) ولقب بالخليفة الامام المستعين بالله .

لم يستكن المماليك لعودة النفوذ الزمنى الى الخلافة ، فسرعان ما اصبح الخليفة سجينهم ، وتولى الحكم المؤيد شيخ ، ومنذ ذلك الوقت حرم الخليفة ثانية من جميع امتيازاته وأصبح عمله الوحيد أن يتبع الجيش فى جميع غزواته ليمنحه البركة .

كما نشأت الرهبنة بجانب المسيحية فى عهد الرومان كذلك نشأ التصوف بجانب الاسلام فى العهد الاسلامى ، وكانت مصر أكثر الامم الاسلامية اهتماماً بالتصوف والمتصوفين .

عندما احتك المسلمون بالهنود والفرس (١) وعرفوا فلسفة افلاطون ، نزعت افكارهم الى الصوفية ، وتسربت هذه النزعة الى أئمة الدين وصبغت الفلسفة الاسلامية . وانتشرت الافكار الصوفية بين المسلمين فنشأت فرق اسلامية عديدة غايتها التوفيق

---

(١) كان كسرى انو شروان ملك الفرس (٥٣١—٥٧٨ م) من المتأثرين بتعاليم اليونان فأسس مدرسة فى جند يسابور ، كان يدرس بها كثير من الفلاسفة الاغريق الذين اضطهدهم جوستنيان ، وكان أغلبهم من الآخذين بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، فكان لذلك تأثير عظيم على ألافكار التصوفية التى ظهرت فى فارس فيما بعد ، ثم وصلت هذه الافكار الى متصوفة المسلمين عن طريق الترجمة والنقل والاختلاط مع رهبان النصارى فى الشرق وحران .

بين المذاهب الاسلامية والنزعات الصوفيةوامتزجت الاغراض السياسية بالاغراض الدينية ، وصارت الدولة تنشيء وتهدم بقوة هذه الفرق . فرأى خلفاء بغداد أن المبالغة فى التصوف خروج عن الاسلام وزعزعة للدولة القائمة عليه فكانوا لذلك يضطهدون المتصوفين ، فكانت مصر دائماً عش المتصوفين والاولياء لكثرة من التجأ اليها منهم .

كان نصيب مصر عظيماً من الأخذ بتعاليم الصوفية ، وازداد أمرهم خصبا ونماء بعد عهد الفاطميين ، حيث استطاعوا أن يحتفظوا بحب المصريين لآل البيت ، واشتهر كثير من الصوفيين فجعلوا مصر مظهراً جليلا للصوفية ، ومقراً محترماً لتعاليمهم ، بل كانت مصر بفضلهم مرجع كافة الأمم الاسلامية فيما يتعلق بتعاليم الصوفية .

التشريع والقضاء

القرآن والسنة هما أعظم مصادر التشريع الاسلامى ، ويحتوى القرآن على نحو مائتى آية تتعلق بالأحكام ، نزلت بمناسبة حوادث تحدث ، تحاكم فيها المتخاصمون الى الرسول ، غير أن العرب كانوا يسيرون فيما لم يرد فيه حكم اسلامى ، على المألوف عندهم فى الجاهلية حتى يغيره الاسلام أو يقره .

تعرض القرآن لأغلب الامور الدينية والمدنية ، فاهم الشرائع الدينية وضعت عن الصلاة والصيام والحج والزكاة ، وقد اعتبر فقهاء المسلمين القاعدتين الأخيرتين

من العبادات رغم كونهما من الشرائع الاجتماعية ، ووضعت أهم الشرائع المدنيـــة عن نظام الاسرة من زواج وطلاق وميراث وعن المعاملات من بيع واجارة وربا وعن الشئون السياسـية كالقتـــال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهـــود ، وغنائم الحرب .

شرع القرآن فى الاحـوال الشخصية الزواج بواحـــدة الى أربع ، ولـكنه اشترط لذلك أن يعدل المتزوج باكثر من واحدة بينهن ، وأمر باعطاء النســـاء مهراً عند التزوج ولـكنه لم يجعل لهـذا المهر حداً معيناً ، وشرع الـكتاب نظاماً للطلاق جعل فيه الطلاق مرتين يخير الانسان بعـدهما بين الامســاك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تـكون بعـدها الفرقـة المؤبدة . وفصل الـكتاب ،أمر الميراث واليتـامى فامر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها .

أما فى المعاملات ، فقد أمر الـكتاب بالوفاء بالعقود ، أى جميع الالتزامات التي يلتزمها الانسان للانسان ، ونهى عن أكل الناس بالباطل وأدلى بذلك الى الحـكام ، وأباح الربح من التجارة إلا أنه نهى عن الربا أشد نهى .

وشرع الـكتاب القصـــاص فى القتلى على أن لا يتجاوز القاتل ، فالحر يقتل بالحر ، ولا يقتل به غيره مهمـا تـكن قيمة القاتل والعبـــد يقتل بالعبد ولا يتجاوز ذلك الى سادته ، أما الحدود فقد ذكـر منها اربعة ، حد الزانى وقد جعله الـكتاب مائة جلدة وحد القذف ثمانين جـــلدة وحد السارق قطع اليد

وحد قطاع الطريق القتل أو الصلب أو قطع الايدى والارجل لم يتعرض الكتاب فى ذلك كله كثيراً للتفاصيل الجزئية انما يتعرض غالبـاً للامور الكلية ، فترك ذلك الى الرسول يبينه بقوله وفعله . لذلك كانت أحاديث الرسول هى السنة التى بينت كثيراً من آيات القرآن والخصومات التى قضى فيها النبى بالحديث لابالقرآن ، كان قضاؤه فيها تشريعاً .

يتبين من ذلك أن أساس القانون الاسلامى الكتاب والحديث ، وليست لأية سلطة حق فى مخالفتهما ، ولا الخروج على ما ورد فى نصوصهما ، انما اجتهد المجتهدون فيما لم يرد فيه نص فكانت حرية الفقهاء والخلفاء محدودة فى دائرة فهم نصوص القرآن ، ومقدار الثقة بالحديث وعدمها ، فلما امتدت فتوح المسلمين ، واجهوا مسائل كثيرة فى كل شأن من شئون الحياة تحتاج الى تشريع لم يكونوا فى حاجة اليه وهم فى جزيرة العرب ، فنتج عن هذا أن الصحابة كانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص ، فنظم بعد ذلك الرأى وسمى القياس واصبحت له مدرسة تدافع عنه كما كان لأهل الحديث مدرسة أخرى . فكان النزاع بين هاتين المدرستين شديداً .

ظل نظام الاجتهاد سائداً فى العالم الاسلامى حتى انتشر مذهب الامامين ابى حنيفة ومالك ، وابتدأ التدوين فى منتصف المائة الثانية للهجرة . وكانت على العموم دائرة الاجتهاد ضيقة لم تتعد غالباً تشبيه ما لم ينص عليه فى القرآن أو الحديث بما نص عليه لعلة تجمعها ، وعلى هذا الاساس كانت الفروق بين

المذاهب الاسلامية قليلة .

اتبعت المدينة مذهب مالك، واتبعت بغداد مذهب أبى حنيفه، فأخذت مصر فى أول الأمر المذهب الأول لقربها من المدينة ولوجود فريق كبير من الصحابة والتابعين من رواة الحديث فيها ، ولما كان مذهب مالك مستنبطاً فى الاكثر من نصوص الاحاديث وجد الميل فى مصر الى الاخذ به ، وكذلك كان لليث بن سعد (٧٩١ م) نفوذ وعلو كلمة فى الدولة فلما أخذ بمذهب مالك ، اقتدى به كثير من المصريين ، وعاونه فى نشره كثير من أئمتهم . لم يكن مذهب أبى حنيفة معروفاً فى مصر وقت صدوره رغم قيام القضاء والافتاء على أساسه ، فكان قضاة الحنيفة الذين قد يرسلهم الى مصر خلفاء بغداد ، يقابلون فيها بكثير من النفور والفتور ، وكانت احكامهم مصدر نقاش بين العلماء والفقهاء .

بقى مذهب مالك منتشراً فى مصر أكثر من سواه الى وقت دخول الفاطميين (٩٦٩ م) اذ انتشر مذهب الشيعة وظل بمصر حتى جاء صلاح الدين الايوبى فابطله وأعاد العمل بالمذاهب التي كانت معروفة فى ذالك الوقت فى جميع العالم الاسلامى ، وانشأ مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية وثالثة للحنفية (١١٧٠ م) .

كان عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الامراء ، فكان قضاؤهم قاصراً على فصل الخصومات المدنية ، أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة

الامصار فكانت الدائرة القضائية ضيقة ، ولم يبلغنا أيضا أن قضاة الامصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى ، ولربما كان ذلك لقلة القضايا والخصومات .

ظل القضاء فى عهد الدولة الأموية على بساطته ، إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم الى تسجيل الاحكام ، وظل القضاة بعيدين عن التقيد برأى فى أحكامهم ، إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقرها الخلفاء ويحتمون العمل بمقتضاها فكان الأمر راجعاً الى القضاة أنفسهم أو الى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين ، فلما بدأ التدوين وجمعت الاحاديث ، ووجد الفقه ورتبت أصوله وأحكامه سهل على القضاة أمر مهمتهم .

كان الخلفاء والولاة يلتمسون فيمن يختارونه لمنصب القضاء شروط الأهلية والعلم والتقوى وذلك لعظم شأنه . كان قاضى الفسطاط ينيب عنه قضاة البلدان الاخرى أو يعينهم الوالى رأساً ، وكان مجلس القاضى إما فى المسجد غالباً وإما فى داره وقلما يجلس فى دار الأمارة ، ولم يكن يشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً او على مذهب أحد الأئمة ، وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم المناصب وأكثرها عملا ، كان يجمع بين الفصل فى الخصومات ، تنفيذ الأحكام ، وتعيين النواب والكتاب ، وتعديل الشهود ، والنظر فى بيت المال والأوقاف ، ومراقبة أموال اليتامى وكان يضاف الى عمله أحياناً فى مصر وظائف أخرى كالحسبة ورآسة الشرطة للاستعانة بها على تنفيذ الأحكام والقصص .

كان ارهاق القاضي بكل هذه الأعمـــال أمراً غير محتمل فأخذت تفصل منه شيئاً فشيئاً وتسند الى موظفين أو دواوين مستقلة عنه . فوجد أول ديوان للاوقاف بمصر سنة (٧٣٦ م) واصبحت مراقبـــة الموازين والمكاييل ومنع الغش وغيرها من اختصاصات المحتسب ، وصار صاحب الشرطة هو المسئول عن استتباب الأمن ، وجعل صاحب المظالم بمثابة النائب العام ، ينظر فى العرائض والشكاوى التى ترفع اليه من الرعية تظلما من عمـــال الحكومة أو غيرهم ، فيفصل فى بعضها بنفسه أو يحيل النظر فيها على القاضي .

كانت أحكام القضاء تجرى طوال هذا العصر على المسلمين أما القضايا التى يكون فيها أحد الخصمين قبطيا ، فقد كان لنواب القبط حق الدخول فيهـــا والعمل بمقتضى قوانين القبط الدينية والمدنية .

الفن

لم يقبل العرب فى أول عهدهم على الصناعات والفنـون ، ولم ينم لهم ذوق فيها ، ولذلك لم يدرك المسـلمون من جمـال الآثار الفنية إلا أنهـا كانت للغنيمة إذا كانت مما يغـنم ، أو للتحطيم إن أن كانت صوراً أو دمى . وكان الاسـلام فى أول أمره شديد الوطأة على الدين المسيحى وآثاره يمحوها ويعفى أثرها ، ولا شك المسلمين كرهوا مافى كنائس النصارى من كثرة الصور والرسوم المنقوشة بالألوان ، فحق لهم بعض الحق أن يخلطوا بين المسيحية

وعبادة الاوثان .

نشأ الفن الاسلامي من امتزاج العرب بالامم المغلوبة واقتباسهم لفنها ، ولكنهم مالبثوا أن غيروا فيه تغييراً يوافق بساطتهم وبداوتهم ، وقد نقل العرب أكثر فن العمارة من مبانى البيزنطيين والفرس ، وشمل طور الاقتباس والتقليد عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وأوائل العباسية ، أخذ العرب عن الفرس القباب التى تعلو جزءا اسطوانيا والعقود التي تشبه نعل الفرس والعقود ذات المراكز المتعددة وكسوة الجدران بالقاشانى ، وأخذوا عن البيزنطيين الشبابيك ذات الزجاج الملون وقباب الاركان القائمة على مقرنصات .

ولما تقدمت الحضارة العربية ، تقدم فيها فن المعمار وابتدأ يجد عناية واهتماماً ، وتقلب فى طور الممارسة والابتكار ، فاستعد المسلمون لاحتضانه ، واجتهدوا فى ترقيته وانهاضه ، وأهم ما اشتغل به القائمون بالفنون الاسلامية بناء المساجد والمدارس والقصور والحمامات والمقابر ، وتنحصر أهم مزايا الفن العربى فى خلوه من الصور والتماثيل ، وبساطته التامة ، وزخارفه الخالية من النتوء والبروز والتى تكاد تكون على مستوى واحد غير أنها تمتاز بالتلوين والتذهيب ، ومما أكسب المبانى العربية جمالا ورونقاً العقود ذات الزوايا والجص المزخرف والمقرنصات والافاريز وغيرها ، والقباب الشامخة المزينة ، والمنارات الشاهقة والابواب العالية مع صغر المدخل ، ولقد اعتنت الفنون الاسلامية بوجه خاص بتنسيق الفسحات الواسعة دون الاهتمام

كثيراً بزينة الوجهات الخارجية بسبب تحريم الاسلام تصوير الأجسام ، الا أن جل العناية كان يبذل فى الزخرفة الداخلية التى كانت خالية من الاحياء . فكان يعتمد رجال الفن فى اختيار زخارفهم على ثلاثة مصادر : النقوش العربية والزخارف الهندسية والكتابة المزخرفة .

ويراد بالنقوش العربية الزخرفة الزهرية التى قوامها المنحنيات ولا يتبع فيها النقل الصحيح عن الطبيعة ، فما يكون فيها من الاشكال التى تمثل ساق النبات والورق اصطلح فيها على أن تكون زخارف مرسلة تتكون من تكرارها عصابة طويلة .

والزخرفة الهندسية تتكون من أشكال ذات أضلاع نجمية مقرون بعضها ببعض .

والكتابة المزخرفة عبارة عن آيات من القرآن مكتوبة بالخطوط الكوفية والثلثية والنسخية على مختلف الاشكال .

كان الفن الاسلامى فى أوائله فى مصر عبارة عن الفن القبطى بعينه مع تطبيقه للعقيدة الجديدة . كأخفاء علامة الصليب وصور الديانة وغير ذلك ، ومما يجدر ذكره أن الزخارف التى ببعض المصاحف الشريفة الاثرية وجد ما يماثلها ببعض الاناجيل الاثرية ، وكذلك نرى كثيراً من الاشكال الهندسية متماثلة فى الفن القبطى والعربى .

لما شيد عمرو بن العاص مسجده أخذ الأعمدة اللازمة له من كنائس قصر الشمع ، وقد حدث مثل ذلك فى كثير من المساجد

التى بناها العرب، زينوها بالمآزن والزخارف المختلفة من انقاض معابد الاسكندرية ومنف وهليوبوليس، حتى أن كثيراً من بلاطها نقل اليها كما هو بغير تهذيب أو تغيير، وظلت الاعمدة الحجرية تنقل من الآثار القديمة، حتى بنى جامع احمد بن طولون فأقيمت الأعمدة لأول مرة من الآجر، كذلك نجد على باب جامع السلطان حسن فى حجر المدخل قطعة نقش عليها شكل كنيسة، ويحتوى جامع الاشرف على أعمدة نقشت عليها الصلبان كما أن هناك بعض الجوامع كانت كنائس فى الاصل ومن أوجه الشبه أيضاً بين الفنين القبطى والاسلامى أن الفسيفساء القبطية والعربية يندر أن تعمل من الزجاج كما كان الحال فى أوربا بل من جزيئات دقيقة جداً من الرخام الطبيعى الملون والصدف على شكل مربعات أو مثلثات أو دوائر تنسق على أشكال لاتحصى، ولم يعمل منها صوراً تمثل أشخاصاً.

كان التأخر من نصيب الفن القبطى منذ أن دخل الاسلام مصر، إلا أن الفاطميين لما تولوا الحكم، أجازوا للأقباط الاستمرار فى فنهم والعمل فيه واتقانه فانتعش بعض الانتعاش ودخلت عليه زيادات من الشام وايران وغيرهما زادته بهاء ورونقاً، وزها فن العمارة الاسلامية وبلغ درجة عالية من الجمال، فقد سمح الفاطميون بتصوير الذوات الحية، ونبغ كثير من المصورين، صوروا القواد والشعراء وكبار الدولة صوراً حقيقية.

كان لأتصال المشرق بالمغرب بعد الحروب الصليبية أكبر

أثرفى الابنية الاسلامية ، بدأ ظهور هذا الأثر فى الشام فتعلم مهندسو الشرق اشكالا جديدة من الكنائس والابنية العظيمة التى شيدها الصليبيون على طريقتهم الغربية ، ولم يقلد الشرقيون تماماً هذه الطرز المعمارية المغايرة لطرازهم ، بل اقتبسوا منها ماراوه قريب الانطباق والاتفاق مع طريقتهم فى العمـــارة ، ويظهر تأثير الغرب فى المبـــانى الشرقية فى زخرفة بعض المبـــانى باشـــكال غربية الأصل ، إلا أن هذه الزخارف طبقت خطأ فأصابها التحوير لمحاولة التوفيق بينهـــا وبين مقتضيات الذوق الشـرقى .

ينحصر التطور الحقيقى فى فن العمارة فى عهد الايوبيين فى وجود نظام المدرسة ، فشيدت الجوامع لتجمع بين الصلاة والعلم ، ولأجل العلم أخذت طريقها وشكلهـا من الناحيـــة المعمارية ، فبدلا من الصحن العظيم المكشوف فى وسط الجامع حيث يجتمع المصلون أنشىء مربع صغير وكان فى أغلب الاحيان مسقوفاً بالخشب ، واقيمت بمنتصفه قبـــة أو منور . وأقيم فى كل جانب من جوانبه الاربعة ايوان مقبب ، وخصص كل ايوان لتدريس أحد المذاهب الاربعة .

وتمتاز زخرفة هذه المدارس بجمـال النقوش المستعملة ، والتى اتخذت نماذج للزخـــرفة فى كثـــير من آثار الاعصر التالية ، فمن هـــذه الزخارف العصابات المفلجة ، وتعـــدد حنيـــات خراطيم الزوايا ، بعـــد أن كانت مكونة من حنية واحدة ، واستبدلت نقوش الأخشـــاب الواسعة بنقوش

عربيــــة دقيقــــة .

كان عصر المماليك أهم عصر فى تاريخ الفنون المعمارية ، فمن مخلفات هذا العصر الجوامع العظيمة التى تمتاز بواجهــــة رائعة تشمل الافاريز والفجوات والــكرانيش والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية ، وتمتاز أيضاً برقة ورشاقة مآذنها التى شيدت من الحجر المتقن النحت وحليت بمقرنصات وشرفات دائرة حولها ، والميزة الأخيرةهى اتخاذ القباب الكبيرة والصغيرة فوق المحراب أو المدخل . ولم تكن العمارة العربية قبل عهد المماليك تزخرف من الخارج ، وإن تناولتها الزخرفة فانما تقتصر على البوابة والمأذنة وبعض المرافق الأخرى حيث تكون سائر العمارة فى غاية البساطة والتجرد من التأنق ، بينما كانت البناية فى عهد المماليك مثال التأنق والزخرفة فى جميع واجهاتها الخارجية .

ولما كثرت الجوامع بمصر أقتضى ضيق الفضاءإيثار الشكل المتعاقد فى بناء المساجد لأنه يساعد على تصغير حجمها ، فأصبح من النــادر تشييد جوامع ذات إيوانات ، ولا شك أن صغر الجوامع فى هذا العصر جعل من السهل تسقيف صحونها .

ولما كان من المتعـين إنشاء مرافق أخرى عـديدة مع عدم الخروج بها عن خطوط تنظيم الشوارع التى كانت قد اخذت فى الاتساع ، إحتـال المهندسون على ذلك بمــا إبتدعوه من طرق ، ومن هــذه المرافق المدارس والأســبلة والكتاتيب والبيمارستانات والأربطة والخانقاهات والفنادق

والوكائل والأحـــواض .

فكانت الأسبلة والكتاتيب التي هى مـــلازمة للجوامع تبنى فى أظهر نواحى الجوامع . والخانقاة والأربطة من محـــال العبادة تبنى على رسم الجامع والمدرسة وبهـــا ملحقات لسكن الدراويش والفقراء .

وفى أواخر القرن الخامس عشر أحييت خطة الفاطميين فصارت القبور تبنى فى جميع العمارات على إختلافها من مساجد ومدارس وأربطة ، والجزء الذى يخصص منها للضريح كان يتكون دائماً من بناء على شكل مكعب ترفع عليه قبة .

ولما كانت العمارات الأهلية دون المساجد والمـــدارس فى الفخامة والاحكام ، شيدت القصور وأستخدمت فيهـــا جميع أفانين الصناعة الدقيقة ، واتخذت فيها لاستقبال الزائرين مقاعد ذات بوا كى تطل على صحون واسعة ، وكسيت جدران قاعاتها الواسعة بالفسيفساء ، وموه سقفهـــا بالذهب وركبت فيها المشربيات ليدخل منها الضوء .

وعلى العموم إمتازت الآثار التى كثرت فى مصر فى ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا ، وبلغت الصناعـــة المصرية أوج تقدمها .

لم نذكر شيئاً عن الموسيقى عند ما تكلمنا عن الفن فى العصر الاغريق الرومانى ، والواقع أن الموسيقى كانت فى ذلك العصر تسير كما كان الحال عند قدماء المصريين ، خصوصاً وأن الآلات الموسيقية التي كان يستعملها قدماء المصريين هي التى نقلهـــا

عنهم الاغريق قديماً . ولم يكن الرومان ميالين للموسيقى فقد شغلتهم كثرة الفتوحات عن الاهتمام بها ، ولم يهتم بها أيضاً العرب قبل فتوحاتهم . فلم يعرفوا غير الغناء ، وبعض الآلات الموسيقية كالدف والمزهر . أما الموسيقى من حيث هى فلم يعرفها العرب إلا فى ظل الاسلام .

عند ما فتح العرب بلاد الشام وفارس . إستمدوا موسيقاهم من الموسيقى الفارسية ، وساعدهم الموالى الذين من أصل فارسى أو يونانى على نقل صناعة الموسيقى وآلاتها ، وتعلموا العربية وأخذوا يلحنون الاشعار العربية ، وأخذ العرب يستعملون كثيراً من الآلات الموسيقية كالعود والطنبور والقانون وآلات الضرب والصاجات والرق والرباب والناى والغاب .

على أن فن الموسيقى لم يبلغ درجة الكمال إلا فى العصر العباسى الأول ، وبدأ دور البحث النظرى فى الموسيقى من حيث هى فن على يد أبو النصر الفارابى فقد ألم بهذا العلم من الوجهتين العلمية والعملية . ولما اشتغل المسلمون فى نقل العلوم الدخيلة كان من جملتها كتب الموسيقى للاغريق والهنود ، فتناولها المسلمون ودرسوها ، وصبغوها بصبغة ميولهم وطباعهم فأصبحت الموسيقى لديهم علماً ذا أصول ، بلغ من الاتقان درجة لا بأس بها .

وحينما فتح العرب مصر لجأت الموسيقى القديمة إلى الكنائس وتركت مكانها للموسيقى العربية التى كانت تسير تبعاً للموسيقى العربية فى حواضر الاسلام وهى المدينة ومكة

ودمشق وبغداد ، فاقتصرت الموسيق فى مصر منذ ذلك العهد على فن الغناء وتعاقبت عليها المدنيات العربية المختلفة حتى بلغت عصر الفاطميين ، فوجدت فى هذا العصر بعض العناية من الخلفاء كسائر الفنون ، ولكن اقتصرت هذه العناية على تشجيع المشتغلين بالموسيقي على التأليف فى علومها وجمع أغانيها بينما كانت جميع الملاهى محرومة على الشعب ومنها الموسيق ولم تكن الابحاث النظرية ذات نفع لأنها كانت بعيدة عن التطبيق لذلك ظلت الموسيقى طوال العصر الاسلامى فن محرم مضطهد .

اللغة والأدب

اللغة العربية هي احدى اللغات السامية التى نشأت فى جزيرة العرب ، وهى أقرب اللغات الى اللغة الأصلية التى تفرعت منها اللغات السامية ، نظراً لاحتباس العرب فى بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين اليها ، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم ، غير أنه منذ حل ابراهيم بمكة ابتدأت تدخل اللغة العربية كثير من الكلمات العبرانية والمصرية القديمة بعد ان تغيرت قليلا وفقاً للسان العربى .

تمتاز اللغة العربية بكثرة مرونتها وسعة مشتقاتها ، هذا الى كثرة المترادفات ومعانى الكلمات المجازية ، ولكن غنى العربية لم يتعد الحدود التى رسمتها بيئة العرب ، مناظرها واحدة مطردة اطراداً يدعو الى السآمة والملل ، والحياة العربية وشئونها

بسيطة ، لذلك كان العرب أغنياء فى الجمل وما اليه ، والصحراء وما فيها ، ونظام القبيلة وما تفرع منها والفاظ العواطف المحدودة التى تجيش فى صدورهم ، ولكن ليسوا أغنياء فيما خرج عن هذه الحدود .

وجد العربى فى الصحراء القاحلة ذات المناظر الواحدة المتكررة ، العابسة ، القاسية ، فتغنى شعراء العرب بنوع واحد من القول ونغمة واحدة ، وظلت المعلقات وما حوته من وصف الاطلال والبكاء على الآثار ووصف مشاق السفر والتغنى بمجد القبيلة ووصف الناقة ، رغم مرور الزمن نموذجاً للقصيدة لا يحيد عنها الشاعر قيد شعرة .

ابتدأ نتاج الأمة العربية اللغوى والأدبى منذ نيف وقرن سبق البعثة ، ولم ينته القرن الأول للهجرة حتى تضخم هذا النتاج ، ولكنه لم يكن محرراً فى كتب ، وانما كان شفويا إلا فى القليل النادر ، وأخذ يتناقله جيل عن جيل ، فدخل هذه الثروة نقص وزيادة وتغيير وتبديل .

كان هذا النتاج الأدبى متعدد النواحى ، فشعر كثير متنوع الوزن ، متنوع المعانى ، أودع شعراء العرب فيه فخرهم وهجاءهم ، وتغنوا فيه بعواطفهم وشعورهم ، ولوعتهم وحنينهم الى الوطن ، ووصفوا طبيعة أرضهم : ونباتهم وحيوانهم ، ترك العرب أيضاً الكثير من الخطب التى كانوا يستعينوا بها فى تهييج القبائل فى الجاهلية ، وفى تنظيم الاحزاب السياسية فى الاسلام ، ويصلون بها الى تحقيق أغراضهم ، وبث أفكارهم

فى السلم والحرب ، وجمع الكلمة وتفريقها ، وتركوا أيضاً الكثير من الأمثال والحكم ، والعديد من الاخبار عن أبطالهم فى الكرم والحرب والوفاء والضيافة والكهانة ، وعن أيامهم وأصنامهم وعباداتهم ويهودهم ونصاراهم . والجم من القصص عن وفودهم واسواقهم ، وحكامهم وفرسانهم ، وعدائيهم ولصوصهم .

ولما جاء الاسلام اتصلت به الثقافة العربية اتصالا وثيقاً حتي كان من الدين التثقف بها ، والعلم بلغتها وأخبارها ، بل عمل الاسلام عملا كبيرا فى رقيها وتقنيها ، ذلك أن القرآن الكريم والحديث عربيان ، ومن حسن الاسلام تعلم لغته فكان الاسلام أكبر البواعث فى نشوء هذه الثقافة والعناية بها .

غنيت الثقافة العربية فى الاسلام بما كان فيها من أحداث فسيرة رسول الله وأخبار الخلفاء ، والغزوات والفتوح ، وما تخللها من شعر وأدب وقصص ، وما كان يفد على الخلفاء والولاة من شعراء وما كانوا يقولون ، وما تكون من مذاهب دينية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، ومما كان لذلك من أدب ، وما كان من أحزاب سياسية وانحياز الشعراء والخطباء الى هذه الأحزاب ، كل هذا كان ثقافة عربية ، يتثقف بها من كانوا عرباً فى أصلهم ، ومن اسلموا وتعلموا العربية من سكان المملكة الاسلامية .

بعد أن فتح المسلمون كثيراً من الأقطار والممالك الشرقية والغربية ، أصبحت الأمة الاسلامية خليطا غير تام التجانس

لم يصبر طويلا على التوحد المركزى ، ففى الناحية السياسية بدأت تتشعب منه الدويلات المستقلة من عهد مبكر ، وكانت مصر من أسبق هذه الدويلات ظهوراً ، وكذلك ظهر اختلاف الأقاليم فى الآراء الاسلامية وتوزع المذاهب الفقهية المختلفة ، الى غير ذلك من مظاهر التخالف ، وكذلك الحال فى الأدب ، استقل كل قطر بطريقته الأدبية الخاصة .

منذ أن استقل العرب فى مصر أصبحت العربية الفصيحة اللغة الرسمية فى التعليم والسياسية والقضاء والتعبد ، إلا أن طبيعة البلاد اقتضت أن تصبغ الآداب العربية فيها بصبغة موضعية قومية ، وإن لم تخرجها هذه الصبغة عن طبيعتها الأصلية من وجهة البلاغة والذوق العربى وطرق الاداء والتفاهم .

كان جامع عمرو أشبه بناد للمجتمعات الاسلامية يأوى اليه الصحابة فى غير أوقات الفرائض للتشاور فيما يعرض من أمور الدين ، فكانت تعقد فيه مجالس القضاء والفقه والحديث وكان ذلك بدء النهضة الأدبية ، ولكنها كانت دينية ، وما لبثت أن امتزجت بالأدب ، حيث كان معظم الفقهاء أدباء ، خصوصا فى الفترة التى نزل فيها الامام الشافعى حيت كان يجتمع فى مجلسه علماء عصره لغزارة علمه ، وسمو خلقه ، واقتصر الأدب العربى فى القرن الأول على الشعر والخطابة والأمثال ، وتوخى الكتاب البلاغة ما استطاعوا فى مكاتباتهم الرسمية .

وفى القرن الثالث للهجرة تقدمت النهضة الأدبية فكثر اجتماع العلماء والاعلام ، وكان ابو تمام الشاعر الذائع الصيت

يشترك فى هـــذه المجالس التى كانت تجمع بينه وبين الشافعى واضرابهما ، فراجت ســـوق الأدب وكثر الأدباء وأصبحت المساجد دار ندوتهم ، يجتمعون فيها للمناظرات والمطارحات الشـــعرية .

دخل الشعر والنثر فى العصر العباسى الأول شيء من الصنعة ، فكثر فيهمـــا البديع والطباق والتقسيم والتجنيس ، فاصبح الادب عبـــداً للصنعة ، وعلى الرغم من أن مصر قد استوفت قسطها من هـــذا اللون من الأدب فقد بقى فيها الشعر والنثر كلاهما يحملان طابعهـا الخاص : حلاوة فى اللفظ ورقة فى الغزل ، ودقة فى وصف مشاهد الطبيعة .

ولما استقل محمد بن الأخشيد بمصر ، كان الشعراء مغمورين لا يكاد يحس الباحث بوجودهم ، وان كان من المؤكد أن مصر فى هـــذا الوقت لم تخل من شعراء قد يكونون مجيدين ، ولكنهم لم يسعدوا بالشهرة وبعـــد الصيت ، أو لم يتصل شعرهم بملك مشهور يرتفع برفعته ، ويذكر فى التاريخ بذكره وقد يكون لقصر مدة دولة الاخشيد شـــأن فى هذا ، فانها لم تتجاوز أربعاً وثلاثين ســـنة ، واشهر المعروفين من الشعراء فى هذا العصر ابو القاسم احمد بن طباطبا وابراهيم الجيزى .

وفى مستهل القرن الرابع اضمحلت دولة الأدب فى بغداد ، وكانت مصر تتحفز لحمـــل لواء الزعامة الأدبيـــة الاسلامية فى المشرق ، وكانت الفسطاط حينئذ تضم بين جوانبها فئة غير قليـــلة من رجال العلم المفكرين واقطاب الادب البارزين

أمثال أبى بكر بن الحداد قاضى مصر وسيبويه المصرى وابى عمر الكندى ، فكان اجتماع هؤلاء بعضهم الى بعض سبباً من اسباب تقدم الحركة الفكرية ، ونمو الاجتماعات الأدبية .

استمرت الفسطاط حاملة لواء الأدب ، حتى انشئت القاهرة (٩٦٨ م) قاعدة الفاطميين ، وانشىء الجامع الازهر مسجداً للصلاة ، فبدأت القاهرة والازهر ينافسان الفسطاط والمسجد الجامع ، فاخذت الفسطاط تفقد أهميتها تدريجياً ، وإن انتعشت بعض الاحيان لأسباب إلا أنها كانت تعود الى الضعف ثانية ولما أن كثرت المدارس والمساجد بالقاهرة فى القرن السابع بدأ جامع عمرو يفقد أهميته شيئا فشيئا ، وما جاء القرن الثامن حتى قضت القاهرة على الفسطاط ، وقضى الازهر على حلقاتها الأدبية ، وأصبح مقصد العلماء والادباء فى انحاء العالم الاسلامى وأخذ الأدب العربى فى مصر يتأقلم ، وما برح يطرد فى هذا حتى أصبح يحمل الطابع المصرى الخالص .

كان الخلفاء الفاطميون ينافسون بغداد فى كل شىء من أسباب العلم والادب والحضارة ، كثرت فى أيامهم الأعياد التى كانت مجالا فسيحا للشعر ، فكثر الشعراء والتفوا حول الخلفاء وتسابقوا الى مديحهم ، فنشأ عن ذلك ارتفاع شأن الشعر ورواج سوقه ، ومن أشهر شعراء هذا العصر ابو حامد احمد بن محمد الانطاكى وابو الحسين على البغدادى ومحمد بن القاسم والصالح ابن رزيك والمهذب بن الزبير والجليس بن الحباب وتميم

ابن المعز ، وعمارة اليمنى .

كان شعراء هذا العصر المتصلون بالقصر مرتبين على حسب منازلهم فى الاجازة والاحسان ، لذلك كانوا يتنافسون فى القول ليصلوا الى منازل فوق منازلهم ، كما أنه كانت لهم مرتبات جارية عليهم غير ما كان يوهب لهم من الصلات .

لم يقتصر تشجيع الفاطميين على الشعر بل تعداه الى القصص فبعد أن كانت القصص متداولة على السن بعض الرواة شجع الفاطميون تدوينها ودعوا العـــامة الى استماعها فى مجتمعاتهم ، وكانت أغلب القصص التى دونت هى ممـــا وقعت حوادثها فى العصر الجاهلى كقصص الزير سالم ، وسيف بن ذى يزن وعنترة العبسى ومنهـــا ما وقعت حوادثها فى عصـــور الدول الاسلاميـــة كقصص ابو زيد الهلالى والظاهر بيبرس وذات الهمة ، وكانت هـــذه القصص صورة للحياة الدموية وتصويراً للتمرد والفروسية ، وعرضاً لمعارك دامية بين قبائل متعددة من قبائل العرب التى خلقت للحرب ومرنت على الغزو ، واستطابت حياة النضـــال والغلبة ، فلما دونت هذه القصص أدخل بعض الكتاب فيها شيئين تاريخ العرب وكبار رجالهم ، ونقلوا اليهـا بعض ما فى كتب الأدب المعروفة من شعر ونثر وأمثال وحكم ، وجاروا العامة فى ميولهم وأساليب التفكير لديهم .

لم يكتف صناع القصص بذلك فاستغلوا احتكاكهم بالتجار الاعاجم ، وكان هؤلاء يحمـــلون القصص الخرافية والاخيلة الغريبـــة التى ورثوها عن آبائهم واجدادهم الفرس

والهنود ، فذاع أمر هذه القصص بين عامة الشعب حتى امتلأت باللهجة العامية ، فتناولها صناع القصص ، وأضافوا اليها كثيراً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وادخلوا فيها شيئاً من الاشعار المعروفة والامثال السائرة ، وكانت قصة الف ليله وليله أشهر هذه القصص .

وفى عهد الدولة الايوبية قامت الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين ، فاثارت العقيدة الدينية الشعراء ، والتفوا حول صلاح الدين وأحاطوا بعرشه ، وهتفوا بمخلصهم وبطلهم وتوجوه تيجان المجد والفخار ، وكان من أشهر هؤلاء الشعراء نصر الله بن قلاقس وابن سناء الملك وابن الساعاتى وابن النبيه وابن مطروح وعمر بن الفارض وبهاء الدين زهير .

وفى عهد المماليك سلك الشعر السبيل التى اختطها الشعراء لأنفسهم فى أخريات العصر العباسى الثانى من الميل إلى الصناعة اللفظية ، وأفرط شعراء هذا العصر فى تحلية الشعر بأنواع البديع ، والتلاعب بالألفاظ فى مهارة ولباقة ، وشغفوا بالتورية وأبدعوا فيها إبداعاً حتى لقد كانت وحدها دليل نبوغ الشاعر وعبقريته ، ومما أغرم به شعراء هذا العصر التضمين وهو أن يمزج الشاعر بشعره شيئاً من شعر غيره ، وكان من أكبر مظاهر الشعر المصرى ظهور الروح المصرية الخفيفة ، وجمال النكتة وحسن التأتى لها ، إلا أن الشعر كان فى هذا العصر على العموم شعر الألفاظ والزينة ، ويظهر أن لنضوب القرائح فى هذا العصر من الأفكار والمعانى والقدرة على التوليد ،

وإنصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأناً كبيراً فى ضيق مدى الشعر وجدبه ، وخلوه من الابتكار . ومن الأشياء التى استحدثت فى هذا العصر الأوزان المولدة كالموشح والدوبيت والزجل ، الذى مالت إليه آل قلاوون وآل برقوق وأجازوا عليه الزجالين وأحسنوا صلتهم ، وكان أشهر الزجالين وقيم الزجل بمصر فى ذلك الوقت الشيخ خلف الغبارى . وأكثر شعر هذا العصر قيل فى الغزل والوصف والمجون ، ثم فى المديح والرثاء والشكوى ، وقال الشعراء فى الطرد محاكاة للعصر العباسى ، وكثر نظم الألغاز والأسئلة الفقهية واللغوية ، كما كثر الشعر فى مدح النبى ونظم العلوم والفنون .

زال عن الشعر تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهمه ، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ ، الذى كان ينظم الشعر ويلحنه ، ثم السلطان الغورى ، وقليل منهم جداً من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال فى العصر العباسى ، فلم يكن هذا العهد عهد الصلات وعهد الأغراق ، فلم يجد الشعراء فى الشعر مرتزقا .

وأشهر شعراء وأدباء هذا العصر ابن نباته والشاب الظريف وابن الوردى وجمال الدين بن هشام وابن منظور ونصير الدين الحمامى وصلاح الدين الصفدى وصفى الدين الحلى .

العلم والتعليم

كانت حياة العرب بسيطة ، عاشوا فى صحراء قاحلة . يكتنفها الفضاء الواسع والقفار ، تصهرها الشمس المحرقة تارة وتهب عليها الزوابع أخرى ، لاهم للعربى إزاء هذه الحياة الجافة سوى انتجاع المراعى سعياً وراء الكلأ لرعى ابله ، والتنقل فى أطراف البادية طلباً للراحة ، وهرباً من غضب الطبيعة القاسية .

فى هذا المحيط نشأ الفكر العربى ، وكان لا يتعدى معلومات أولية وملاحظات بسيطة ، لم يكن للعرب علم وفلسفة ، فما كان لهم من طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزة ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، ومثل هذا يقال أيضاً فيما ورد عنهم من الكلام فى الأنواء والسماء فهى معلومات بنيت على تجربة ناقصة تصيب أحياناً وتخطىء أحيانا ، ويتناقلها الناشئون عن آبائهم . كذلك لا أثر للمذاهب الفلسفية عندهم ، وكل ما عندهم من فلسفة لا يتعدى بعض خطرات فلسفية وجدت فى الشعر الجاهلى .

ولما جاء الاسلام أفاد العلم فيما يتعلق بالناحية الدينية ونعني بها البحث فى الشئون الدينية من تفسير للقرآن وحديث وتشريع . وما نشأ عنها من جمع السيرة النبوية ، للتحقق من الأماكن والأحوال التى أنزلت فيها الآيات أو قيلت بها

الأحاديث، واشتغالهم فيما بعد فى ضرب الخراج على البــلاد جر إلى إختلافهم فى بعضها هل فتحت عنوة أو صلحاً؟ وفى شروط الصلح أو الأمان. فأجــبرهم ذلك على تدوين أخبار كل بلد على حدته، كما أن مقدمات الفلسفة الاسلامية نشأت عن الجدل الذى قام بين النصارى والمسلمين.

ظل العرب طول القرن الأول للاسلام لا يشتغلون الا بالرياسة والسياسة، عائبين على كل عربى اشتغاله فى اللغة والتعليم، قائلين عنــه (انه يشتغل بصناعات الموالى) وبلغ من غلوهم فى ذلك أن بعض الخلفاء الراشدين منعوا من تدوين ذات العلم الاسلامى البحت، الا وهو القرآن والتفسير ورواية الأحاديث، واكتفى العرب بالتخصص فيما يتقنونه من ضروب الفروسية والحــرب، أى فى ترويض أجسامهم على مشقاتها.

يرجع السبب الأكبر لهذا الجمود عند العرب إلى شدة العصبية عندهم، والتى كان من أثرها كراهيتهــم لكل ما هو أجنبى عن أدبهم، ولكل ماهو غير عربى، فتولدت عند العرب أنفة جعلتهم يعتقدون أن لهم من المــزايا والصفات ماليس للأمم الأخرى، وأن كل جديد ليس من ورائه سوى الفساد والعطب ولذلك كان أغلب التقدم الذى أصابه العــرب على يد الموالى فقد كان أثرهم عظيما فى جميع نواحى الثقافة العربية.

ما كاد القرن الثـانى للاسلام يقبــل حتى شعر العرب باحتياجهم الى مدونات يصونون بها ما أوجــده الدين بينهم

من علوم لأن لغتهم كانت قد فشت فى البـــلاد التى افتتحوها وأفسد متكلموها من الأعاجـــم استعمالها ، فأقبل العـــرب يستكتبون الكتـاب من الموالى ، لأنهم ظلوا يستنكفون من التدوين بأيديهم ، ويمـــلون عليهم علوم القرآن والحديث والفقه .

استمر العرب طول مدة حـــكم بنى أمية مقتصرين على العلوم الدينية من التفسير والحديث والتشريع والسيرة النبوية وسيرة رواة أسانيد هذه العلوم ، لا يبغون عنهـــا مخرجاً ، رغم مساعى علماء الروم والفرس فى البـــلاد التى افتتحوها فى تحبيب علوم الأوائل لهم ، لاسيما الطب والفلسفة .

وفى العصر العباسى الأول هجم العلماء من عرب وموال على الثقافة العربية يبحثون عنها من نواحيها المتعددة ، ويرحلون الى البادية أحيانا ، والى الأمصار أحيـــاناً ، ويسمعون للرجال والنساء والصبيان ، والخاصة والعامة ، وكان أهم عمـــل لهؤلاء تحويل الثقافة العربية من ثقافة لسانية شفهية الى ثقافة كتابيـــة تحريرية ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى ليتناول العلمـــاء بعد ماجمع ، ينقحونه ويميزون خطأه من صوابه ، ويضعون له القـــواعد .

كانت الكتب التى ألفت فى هـــذا العصر أساساً للتأليف فهى التى حددت نوع القالب الذى يصب فيه العلم ، فكتـاب سيبويه فى النحو حدد الطريقة التى يتبعهـــا النحاة فى التأليف وكل ما عملوا بعـــده أن وضحوا أو بسطوا أو اختصروا .

وكتب محمد بن الحسن الشيبانى حددت طريقة التأليف فى الفقه ، وكتب المنطق الأولى هى التى سارت عليها كتب المنطق الأخيرة ، وكان أثر البيان والتبيين للجاحظ فى الادب كأثر هؤلاء .

ظل بالاسكندرية أثر الفتح قبس من الثقافة القديمة ، فكان بها حركة لاهوتية طبية فلسفية ، غير أن هذه الحركة قامت على اللغات الاغريقية والسريانية والقبطية ، فلم يفد منها العرب شيئاً ، لجهلهم هذه اللغات وانشغالهم عنها فى بادىء أمرهم بالحروب والثورات ، ولأقدامهم فيما بعد على الأخذ بأسباب العلوم الاسلامية البحتة دون غيرها ، وهى التى كانوا فى حاجة اليها لتوطيد دعائم سلطانهم السياسى والاجتماعى .

بقيت حركة الثقافة القديمة بالاسكندرية مدة العهد الأموى واستمرت الى العهد العباسى ، واقتصرت الحركة الاسلامية فى الأغلب على الفسطاط ، واستمرت ثقافة الشعب فى القرى والبلدان على النمط القبطى قبل الفتح ، حتى اذا أخمدت ثورة القبط وانتشر المسلمون فى البلاد وتغلغلوا فيها عقب سنة ٨٣١ م حملوا معهم ثقافتهم الدينية واللسانية ونشروها فى أنحاء القطر .

لم يكن الغرض من بناء المساجد مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية ، واجتماعية أيضاً . ومن ثم أصبحت المساجد مراكزاً للثقافة الاسلامية ومجامعاً للعلماء والفقهاء ، وأمكنة لاذاعة الأخبار الهامة .

كانت الصلاة والعبادة تؤدى بجامع عمر حتى سنة ٦٥٦ م

ومن هـــذه السنة شرع فى ذكـــر القصص ، وتلك القصص كانت دينية أخلاقية يقصد بها تعليم المسلمين وتهـــذيبهم ، ثم أخذت الدروس الدينية تنمو وتزدهر بجامع عمـــرو ويزداد الاقبال عليها ، وأخـــذ ينزل بمصر بعض العلماء الذين كانوا أساساً لمدرستها وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ويزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعـــد ومحمد بن ادريس الشافعى .

أصبح العلم منحصراً فى الدين وما اليـــه ، واقتصرت المؤلفات على مذهبى الامام مالك والامام الشـــافعى ، وعلى الأحاديث والفقه . وظلت الحركة العلمية بعيدة عن الأمور الفلسفية والدنيوية ، فكان شأنها فى مصر شأن جميـــع المراكز العقلية فى العالم الاسلامى اذ ذاك .

ظل الأمـــراء المسلمين ، الذين يولون مصر ، يشيدون المساجد ، توطيداً لسلطانهم وتخليداً لذكراهم ، وكانت تمتاز جميعها إذ ذاك بأن التدريس كان أحد أغراضها . فبنى الفضل بن صالح الخليفة العباسى مسجد العسكر سنة ٧٨٥ م وتبعـــه احمد بن طولون فشيد جامعه سنة ٨٧٨ م وعين به جمـــاعة من العلماء والفقهـــاء ، وأجرى عليهـــم الرواتب ، لتـــدريس العلوم الدينية .

وفى عهد الفاطميين شـــيد الجامع الازهر ، وكان الغرض الأساسى منه ، اقامة الشعائر الدينية ، ونشر الدعاية السياســـية العلوية ، وتأييد مذهب الشيعة الفاطمية ، لامتزاج الدين

بالسياسة وقتئذ ، واستمر الأزهر يسير على نظام سهل يكاد يكون نظريا ، أساسه التقوى ، وقوامه احترام الدين وأهله .

كثر فى عهد الفاطميين انشاء المكاتب وخزائن الكتب وكان أعظمها هى التى أسسها العزيز بن المعز (٩٧٥ - ٩٩٦ م) وقد بذل الأموال فى الاستكثار من جميع المؤلفات المعروفة فى ذلك العصر فى الأدب والتاريخ والفقه والنحو والحديث والنجم والروحانيات والكيمياء والنجوم والهندسة والفلسفة .

ولما دالت دولة الفاطميين صار التدريس فى الازهر على مذهب أهل السنة ، ولما أراد صلاح الدين أن يمحوا كل آثار الفاطميين أنشاء المدارس لتدريس فقه الشافعية والمالكية ، ثم أخذ نطاق الدراسة يتسع فى الأزهر فتناول بعض العلوم العقلية والدخيلة .

ظلت الدراسة مستمرة بجانب الازهر فى المساجد التى شيدها الامراء المسلمين ، واتسعت برامجها فى أغلب هذه المساجد حتى أنه كان يدرس بجامع احمد بن طولون سنة ١٢٩٦ م القرآن والحديث والطب .

وفى عصر المماليك كثر ورود العلماء الى مصر ، خصوصاً بعد أن سقطت بغداد فى يد التتار ، فتطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الاسلامى الى مهرب يلتجئون اليه ، فلم يجدوا غير مصر .

أصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الاسلام جميعا ورغم كثرة المظالم وفداحة المكوس ، والمجاعات والطواعين والاضطرابات فان مصر نهضت نهضة علمية مباركة ، كان

دافعها الأول غيرة العلماء وحرصهم على اعادة مجد الاسلام الذى بعثرته أيدى التتار ثم معاضدة الملوك والامراء لرجال العلم وأهله .

الحالة الاجتماعية

لما وصل العرب مصر كان سكانه ينقسمون الى ثلاثة أقسام : الاقباط وهم الاغلبية الغالبة ومنهم المزارعون والصناع وأرباب الوظائف الوسطى والصغرى ، وبقايا الروم وهم أهل الدولة ، واليهود وهم أهل التجارة .

سبب فتح العرب لمصر عملية مزج فى الدم وفى النظم الاجتماعية والآراء العقلية والعقائد الدينية ، فكان من أثر ذلك سيادة النظم القوية ، سواء كانت للعرب أو لأهل البلاد ، ولكن العرب انتصروا فى شيئين عظيمين ، اللغة والدين فأما لغتهم فقد سادت البلاد جميعها وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد وصارت هى لغة السياسية والعلم ، وكذلك الدين فقد ساد البلاد واعتنقه الكثيرون .

كان العرب الذين جاءوا مصر يسمون بالمقاتلة أو أصحاب الديوان أى أصحاب الأعطيات التى تصرف لهم فى الديوان كل سنة ، كان كل عربى ينزل الى مصر يفرض له ولأولاده وعياله فرض فى الديوان ، وكانوا ينهون عن الاشتغال بالزراعة ويعاقبون على ذلك لئلا ينسوا ملكة الحرب ، ولما كثر عددهم وزادوا عن مقدرة الديوان زاولوا الزراعة ودخلوا فى غمار

الفلاحين بالتدريج ، وكان ذلك عقب الامر الذى أصـــدره الخليفـــة العباسى باخراجهم من الديوان وحرمانهم من العطاء ووضع الترك بدلهم ، فحلت الجيوش العربيـــة ، وثاروا على الحكومة مراراً فقهرتهم ، ومن ذلك تضعضع سلطان العرب فى مصر وزالت دولتهم ، واشتغلوا بالزراعة ، وضربت عليهم الضرائب التى كانت تضرب على القبط .

كان نظام الطبقات الاجتماعى فى العالم الاسلامى يســـير على نسق واحد تقريباً ، وقد ابتدأ هذا النظام بسيطا ثم أخذ يسير نحو التعقيد فلم يصل العصر العبـــاسى حتى بانت الهيأة الاجتماعية مقسومة الى ستة أقسام .

١ ـ الامراء وكانوا أرفع الناس قدراً بعد الخليفة ، ويسمونهم الأشراف ، لهم الرواتب الباهظة ، فضلا عما يحاطون به من نعم وهدايا ، ولهم المناصب العالية فى الجندية والسياسة .

٢ ـ رجال الدولة من الوزراء والقواد والكتاب ومن ماثلهم من أرباب المناصب العاليـــة ، وكانوا يختلفون نفوذا وسطوة باختلاف الخلفاء وأخلاقهم ، على أن السجية الغالبة عليهم كانت خنوع المرؤوس منهم لرئيسه ، واســـتبداد الرئيس بالمرؤوس وبالرعية على العمـــوم .

٣ ـ أهل البيوتات وهم الاشراف غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى اتصال جل قرباهم ، إما عن صحـــة وإما عن مجرد زعم مســـلم به ، بالنسب النبوى ، وبقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ، ويفرضون لهم الاعطيات والرواتب

ويقدمونهم فى مجالسهم .

٤ ـ أتباع الخاصة من أعوان وموالى وخدم وجند ، وكانوا كثيرى العدد ، كان من الجند رجالا للخليفة يأتمرون بأمره ، ومنهم من كانوا رجالا لبعض الخاصة من الوزراء والعمال ، ينفق هؤلاء عليهم من أموالهم ، وربما ابتاعوهم غلمانا وربوهم للاستعانة بهم على أعدائهم وقت الحاجة .

٥ ـ العامة ويتكون منهم الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحائكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم ، والباعة الذين يبيعون البقل واللحوم وغيرهما من أصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الزهيدة ، أما التجار باعة السلع الثمينة كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمينة والثياب الفاخرة ، والآنية والرقيق ، والصناع المتفننون الذين يصنعون الوشى المذهب والاسرة المرصعة والفسيفساء المفضضة وغير هؤلاء جميعاً كانوا اعلى طبقة من الاولين وقد عرفوا بانهم المقربون من الخاصة .

٦ ـ الرقيق وكان لهم نظام خاص فى الاسلام ، فكان الرقيق يعد مملوكا للسيد كالمتاع له الحق فى بيعه وهبته ، واذا كان أمة جاز للسيد أن يستمتع بها ، واذا ولدت الامة من سيدها فالولد ابنه وتسمى هى (ام ولده) وتبقى ملكا له بعد ولادتها يستمتع بها ، ولكن لا يجوز أن يبيعها أو يهبها ، واذا مات عنها فهى حرة ، وللمالك أن يعتق عبده أو أمته ، أى أن

يرد له حريته ولكن تبقى هناك صلة بين المعتق والمعتق ، وهذه الصلة تسمى الولاء. ويظل المعتق ينسب الى من اعتقه ، ويظهر أثر هذه الصلة فيما اذا مات المعتق من غير وارث فان المعتق يرثه .

وقد كانوا أحياناً يبيعون الولاء مع بقاء الرق ، وهناك نوع آخر من الولاء ليس سببه العتق ، إنما سببه أن يسلم رجل على يد رجل آخر ، ويتعاقد معه فيكون ولاؤه له .

ولكن الولاء قد يطلق بمعنى أوسع من ذلك فكثيرا ما تطلق كلمة الموالى على كل من دخل الاسلام من غير العرب سواء استرق أو لم يسترق .

أما حالة المرأة وعلاقتها بالرجل فكانت على أسوأ ما تكون كانت المرأة فى الجاهلية وصدر الاسلام ، عظيمة الشأن ، عفيفة النفس ، مستقلة الفكر ، تشارك زوجها فى جميع أطوار حياته ، فلما أتى الاسلام زاد فى بادىء أمره تلك المناقب رونقاً وجمالاً ، ولكن كثرة التزوج والتسرى ما لبثت منذ عهد الراشدين أنفسهم أن أخذت تبدل طباع المرأة وتقلقل قواعد عفتها . وما لبث عهد الأمويين بما زاد من تكاثر الجوارى والغلمان فيه وإنتشار المخنثين وتغير خلال العفة والأباء فى الرجل أن عبث بعفة النساء وبكثير من أخلاقهن الحميدة .

فلما أتى العصر العباسى ، وكانت الجوارى قد أصبحت طوفاناً ، وشاع تسرى الرجال بهن شيوعا عاما ، وذهبت الغيرة من قلوبهم حتى صاروا يتهادون بهن ، انحطت المرأة ، وذهبت عزة نفسها وضاع استقلال فكرها ، وفقدت عفتها واباءها ،

فأحتقرها الرجل وأساء الظن بهـا ، وأخذ يوصى بعدم الركون اليها ، ويقفل عليها النوافذ ويوصد الأبواب ، ويسد فى وجههـا الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج لئــلا يرى قوامهـا ومن الكلام لئلا يسمع صوتها ، ويتحـاشى ذكرها ، ويأبى أن تذكر أمامه إلا بعبارات مبهمة لا تحضر شخصها إلى ذكر السامع .

تطرف المسلمون فى ذلك تطــرفاً إزداد شدة كلما إزداد بعد رجالهم عن الفضائل ، وأخذوا يطعنون فى طبــاع المرأة وسوء سريرتها ، وينظمون فى ذلك الشعر ، ويضعون الأحاديث والروايات ، فزاد جميع هذا فى إنحلال العائلات .

ظلت الطبقات الاجتماعية فى مصر على ما هى عليه ، حتى إعتـاد الخلفـاء العباسيون استدعاء قبــائل همجية من التركمان إلى بغداد لتساعدهم ، فسنوا بذلك سنه سيئة نحا نحوهم فيها الفاطميون فى مصر وقفى على أثر هؤلاء صــلاح الدين واتباعه فكانت نتيجة ذلك كله ظهور طبقة المماليك .

كان المماليك لفيفاً من العبيـد تختلف رتبهم والقابهم بين البكوات وعامة الجند لايختلفون فى كونهم كلهم مماليك خارجين من سوق النخاسة ، يؤلفون طبقة خاصة لا شبيه لها فى التاريخ تتباين عن الطبقات الأخرى بأنها لا وطن لهــا ولا أسرة ولا تقيم شــعائر دين ما ، وان انتمت ظاهراً الى الاسلام . كل علمها منحصر فى ركوب الخيل وتقليب الأسنة ، عيشتهـا عيشة انتباز لـكل قانون أو نظام أو عرف ، كان النخاسون يجلبونهم من بلاد فارس وملدافيا والافلاخ والقوقاز واليونان

ويجلبون معهم أطفالا يسرقون أو يشترون بثمن بخس من آبائهم البائسين ، هؤلاء الاطفال والسواد الأعظم منهم مسيحيو الأصل ، كانوا يساقون الى مستودعات بالاسكندرية ومصر يعنى فيها عمال بغسلهم وتزيينهم وتهيئتهم للبيع بعد تعليمهم قواعد الدين الاسلامى ، وكان النخاسون يختارونهم صباح الوجوه أشداء البنية ، ظاهرى الفطنة ، صالحين للفروسية ، ثم يخرجون من أسواق النخاسة الى منازل البكوات فيصبحون حشمهم وجنودهم وأحيانا ورثتهم .

كانت هذه الظروف الغريبة تجعل المماليك خلائق خارجة عن المألوف ، مسلمة بحكم الضرورة ، ليس لها يقين بدين ولا تعتاض عن الدين بمبادىء فلسفة ما ، ومن أجل أنها ربيت بعيدة عن ذويها بين الجيوش وعتادها ، لم يكن لها شعور إلا شعور الانحياز العسكرى ، وكانوا لا يخالطون غيرهم من الناس غرباء بعضهم عن بعض ، لا تصلهم رحم كما تصل سائر الخلق لا أقارب لهم ولا ولد ، لم يحسن اليهم الماضى فلم يقدموا عملا صالحاً بين يدى المستقبل . الجهل غالب عليهم ، والخرافات مالكة عقولهم ، شديدو المكر كثيرو الائتمار والكتمان ، جبناء يرتكبون أنواع المفاسد والمفاسق ، القتل يردهم وحشيين والصخب والهياج يدفعهم الى الثورة ، ولا بدع فان الثورة كانت حالة عادية من حالاتهم ، فلم تكن أيامهم إلا معارك متصلة ، ومذابح ومناحر فيما بينهم لا تنقطع لتخاطف السلطة ، فلم يعبأوا بمصر إلا لسلبها وإرهاقها .

لم يكون المماليك بالزواج والمصاهرة أمة مختلطة منهم ومن أهل البلاد ، وكذلك لم ينشأوا اسرا ظاهرة متميزة أو طبقة اورستقراطية بزواجهم من جوار جنسهم ، كان الطفل منهم لا يخلف والده ، بل كان المملوك يخلف سيده المملوك فيصبح ولى أسرته ووصيها ، فكان يضم أزواج سيده الى حريمه واذا لم يقتل الأطفال عاملهم معاملة تودى بحياتهم ، أما المماليك الذين عاشوا فى عزلة عيشة مدنية وتزوجوا وصار لهم ذرية فقد اندمجوا بعد جيل أو جيلين فى المصريين .

كانت النساء اللائى يسبين فى الحروب مع بناتهن يؤتى بهن الى مصر فيحتفظ بعضهن المماليك ويبيعون البعض ، ولم يكن هؤلاء السبايا كافيات لأن يكن زوجات للماليك لكثرة عددهم ، فكان يؤتى بكثير من الجوارى من آسيا وبلاد اليونان ولم يتزوج المماليك من نساء مصر إلا قليلا جداً ، فتزوج بعضهم من بنات القضاة وكبراء المسلمين ولكن زواجهم هذا لم يغير من عادة العزلة فيهم ولم يدعهم الى الاختلاط بغيرهم ، وظل مبدأهم عدم الاستيطان الدائم وعدم الاتحاد والاختلاط ، رغبة منهم فى الاحتفاظ بمركزهم السياسى .

عاشت مصر فى عهد المماليك نفس المعيشة التى عاشها العالم فى عهد الاقطاع فقد كان السلطان يقطع العقارات لمماليكه الخواص وهؤلاء يقطعونها لمماليكهم كل بدوره ، فكان السلطان إذا احتاج لجند للقيام بحرب يلجأ الى مماليكه يطالبهم بالخدمة فينضم هؤلاء اليه ومعهم مماليكهم والآخرون ومعهم اتباعهم

وهكذا ، ولكن لما أصاب البلاد الفقر وقلت مواردها صـار المماليك يتخلصون من مماليكهم الاصاغر بالحاقهم بجيش السلطان كما حدث فى عهد المؤيد شيخ .

كانت أمور الحكم فى أيدى سلاطين المماليك والامراء والجند ، وكانوا عند ما يحتاجون الى المال يلجأون الى مظالم مالية يرهقون بها الشعب الآمن الوادع ، فكان يظهر ألمه وشكواه الى جماعة العلماء الذين أصبحوا على مر الزمن رؤسائه الوطنيين وكان نفوذهم يزداد عند الشعب والحكام على حد سواء بازدياد البعد بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة ، وكان السلاطين اذا سمعوا شكوى الشعب يرددها العلماء لا يسعهم إلا الاجابة وازالة الشكوى فى أكثر الأحوال .

بعد أن انقطع سيل الأوربيين عن مصر منذ احتلال العرب لها ، عاد ورودهم اليها فى عهد المماليك واتخذوا التجارة ونقل البضائع مهنة لهم فى السواحل المصرية ، ولما كانت حاجة المماليك اليهم عظيمة فى تصريف تجارة الشرق التى احتكروها أباحوا لهم الاستيطان فى الديار المصرية ، والبقاء فيها بقصد الاتجار فأصبح لهم قناصل فى جميع الموانى والسواحل وداخل البلاد ، وعقد السلطان أبو النصر مع جمهورية فلورنسا (١٣٨٨ م) معاهدة تنظم حقوق الأجانب وامتيازاتهم فى الديار المصرية والبلاد التابعة لها .

ثم عقدت بعد ذلك عدة معاهدات فى صورة أوامر عالية منها الأمر العالى الذى أصدره السلطان قايتباى لأهالى

فلورنسا (١٤٩٥ م) يسمح لهم بالتجارة بثغر الأسكندرية وإقامة قنصل لهم، ومنها الاتفاق الذى عقد بين السلطان قانصوة الغورى وملك الفلورنسيين (١٤٠٤م) يسمح لهم باقامة قنصل فى مدينة الاسكندرية .

واستمرت هذه القوانين متبعة بل زيد فى الحرية التى أعطيت للاجانب تشجيعاً لهم للحضور الى مصر، فكثر عدد الوافدين منهم وأكثروا من الاستيطان خصوصاً فى بلاد السواحل، وكان أكثر هؤلاء الأجانب من البندقية وبيزا وفلورنسا وكانت كل طائفة منهم تنزل فى خان خاص بها يقفل من الداخل فى المساء ولا يفتح عند الحاجة إلا باذن من القنصل .

وقبل أن نختم هذا الفصل يجدر بنا أن نورد تقسيم الطبقات الاجتماعية فى عصر المماليك الذى وضعه المقريزى (١٣٠٥ م) فقد قسمها الى سبعة أقسام :

١ - أهل الدولة ٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة ٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار وأصحاب المعاش وهم السوقة ٤ - أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف ٥ - الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ٦ - أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن ٧ - ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس .

العصـــر الحديث

الحالة السيـاسية

كانت مصر فى عهد العثمانيين مشهداً للفـــتن والمشاحانات إما بين سلائل المماليك ، وإما بينهم وبـــين الولاة العثمانيين وإما بين هؤلاء وجنود الحامية االعثمانية .

ظل تاريخ مصر فى القرنين الأولين من الفتـــح العثمانى ، لا يشمل من الحوادث غير سلسلة من الولاة لا يكاد الواحد منهم يعين حتى يعزل ، وكان ولاة القرن الأول وأكثر الثـانى على شىء من العدل وضبط الأمور فكانوا خيراً ممـا أتى بعدهم ثم أخذ نفوذ الولاة فى الاضمحلال ، لعجز كثير منهم ، وزيادة شوكة الجنود بالبلاد وتدخلهم فى كل شؤونها ، حيث أخـذوا يدأبون على جمع السلطة فى قبضتهم ، فأصبح الولاة ألعـــوبة فى أيديهم ، فعجزوا عن ردعهم وتأمين الرعايا شر مفاسدهم وصارت كل طائفة من الجند تأخذ فى حمايتها جملة من المزارعين أو التجار أو الصناع فيقتسمون معهم الارباح ، وفى نظـــير ذلك يحمونهم من أداء حقـوق الحكومة ، وما زالوا فى شغب مع الولاة ، حتى عظمت قوة البكوات المماليك ، فقضـــوا على نفوذ الطائفتين .

كان من أهم الأسباب التى ساعـــدت المماليك على القبض على السلطة تمهيدهم لاتحادهم باختيارهم زعيما من بينهم ، وهو

حاكم القاهرة المسمى إذ ذاك شيخ البلد ، فصار للماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها فى عزل من أرادوا عزله من الولاة ، بل أخذوا يطمحون إلى التخلص من السيادة العثمانية جملة .

كان على بك الكبير أحد المماليك الذين قوى شأنهم ، فطمح إلى الاستقلال بمصر ، وانتهز كل فرصة للوصول إلى غرضه ، فاستطاع أن ينفر المماليك من الباب العالى ، حتى خلعوا الباشا وأخرجوه من مصر ، فاعلن فى الحال على بك إستقلال مصر (١٧٦٩ م) وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى .

ولاشتغال الدولة بمحاربة الروسيا لم تتمكن من الالتفات إليه ، فانتهز على بك هذه الفرصة لتوطيد ملكه بمصر ، ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب ، فاستولى على جدة ، وأخضع باقى جزيرة العرب ، وأنفذ جيشاً لفتح الشام فكان النصر حليفه واستولى على كثير من مدنها ، وعقب هذا الفتح إتفق أكبر قواده محمد بك أبى الذهب مع الباب العالى على نزع الملك من على بك ، فقصد مصر بالجيش الذى كان معه بالشام ولم يلبث أن استولى على البلاد ، ففر على بك إلى عكاء واحتمى بحاكمها وهنالك وجد أسطولا روسياً ، ففاوضه بشأن تحالفه مع روسيا ، فأمده الأسطول بالذخيرة والرجال وبذلك استرجع المدن السورية التي كان قد فتحها له أبو الذهب ، وعادت إلى الدولة بعد رجوع أبى الذهب عن الشام . ثم خرج إلى مصر فانهزمت جيوشه وأخذ أسيراً

الى القاهرة فمات بها بعد بضعة أيام . كافأ الباب العالى أبا الذهب على خدمته فمنحه لقب باشا وولاه حكم مصر (١٧٧٢ م) فظل فى الحكم عامين مات بعدهما .

قبض على أزمة الامور بعد ذلك اثنان من المماليك وهما ابراهيم بك ومراد بك ، واتفقا على أن يتوليا شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب ، فوقع بينهما شىء من الخلاف فى أول الأمر ، ثم تم الصلح بينهما وبقيا قابضين على مقاليد الأمور من ذلك الحين ماعدا فترة من ١٧٨٦ الى ١٧٩٠ عاد النفوذ العثمانى فيها الى العثمانيين .

دخلت الحملة الفرنسية مصر ١٧٩٨ م بقيادة نابليون ، وكان أهم حادث تركه فى سياسة مصر الديوان الذى أمر بتشكيله ، فابتدأت العناصر الوطنية تشترك فى الحكم ، وكان لهذا أثره فى نفسية تلك العناصر ، فقد بدأت تحس بشىء من الحيوية وتعلم فى النهاية أنها لم تكن أقل جدارة من غيرها بتسلم زمام الحكم فى البلاد .

أجلى الفرنسيون عن مصر بعد ثلاثة سنوات من حكمهم تاركين مصر فريسة للقوات التى كانت تعمل متضامنة على خلاصها ، وهذه القوات هى الاتراك والمماليك والانجليز ، فظهرت فى خلال هذا النضال قوة الشعب المصرى ، وبزغت فكرة الاستقلال المصرى فى عقل المصريين وكان المحرض الأول لها ولسانها الناطق المعلم يعقوب القبطى ، ولكن لسوء حظ مصر فاجأه الموت العاجل فى اغسطس سنة ١٨٠١ م فحال بينه وبين عرض غايته أمام حكومات أوربا والدفاع عنها .

كان محمد على أحد الذين اشتركوا فى الوقائع الحربية التى انتهت بجلاء الفرنسيين عن مصر ، ومنـــذ ذلك الحين أخذت الظروف تسوق اليه الفرص التى انهت بتعيينه والياً على مصر بارادة زعماء الشعب (١٣ مايو ١٨٠٥ م) وبذلك تم انقلاب خطير فى نظام الحكم فى مصر .

كان عهد محمـــد على عهد فتوحات واصلاحات ، قضى على المماليك وهزم الوهابيين وفتح السودان واستولى على الشام فقوى نفوذ مصر واصبحت منذ ذلك الوقت لا يربطها بالباب العالى إلا الجزية .

تولى بعد محمـــد على ابراهيم وعباس وسعيد ولم يكن لهم شأن كبير فى تاريخ مصر غير أن الأخير كان ميالا للاجانب فمنح المهندس دلسبس إذنا بحفر قناة السويس .

جاء اسماعيل (٢٥ ابريل ١٨٦٣) بعد سعيد فزاد فى أملاك الامبراطورية المصرية وقام بكثير من المشروعات التى أثقلت كاهل الخزينـــة المصرية بالديون وعلى الخصوص فتح قناة السويس فاضطربت ماليـــة الحكومة وآل الأمر الى تداخل الدائنين فعينت لجنـــة مختلطة لمراجعة دخل الحكومة ثم أنشأ صندوق الدين، ثم عينت الدول الدائنـــة ناظراً انكليزيا للمالية وآخر فرنسياً للاشغال .

اشتدت وطأة حكم اسماعيل ، فكان لذلك أثر كبير فى ازدياد الاستياء العـــام ، فالشعب عامة كان يتألم من سوء حالة البلاد المالية والادارية والسياسية ، فى حين أن الطبقات المتنورة منه

كانت تتألم من حرمانها من الوظائف العالية فى الادارة والجيش ، وساءهم وقوع هـذه الوظائف فى يد الاتراك والاجانب الذين كانوا يتنازعون السلطة والسيادة، هذا الى أن العنصر المصرى كان شـــديد الاستياء والتذمر من سوء معاملة رؤسائه من الاتراك والشركس ، وبالأخص منـذ حمـلة الحبشة (١٨٧٦ م) فـكان من أثر تذمر الضباط المصريين تأليف جمعيـــة سرية برياسة على الروبى للدفاع عن مصـــالحهم ، ثم انضم اليها احمد عرابى وأصبح له فيها النفوذ الأول .

أخذ النفوذ الأوربى يزداد شيئا فشيئا ، وأخذت الوزارات الوطنية تحارب هذا النفوذ حيناً ويحاربها الخديوى حيناً آخر فاثار ذلك حقد الدول ، فعرضت على اسماعيل الاستقالة فأبى وأحال الأمر الى الاستانة ، فاخذت الدول تستعمل نفوذها لدى السلطان حتى نجحت فى الحصول على موافقته على عزل الخديوى (٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩)

تولى محمد توفيق باشا الحـكم فابتدأ بتشكيل اللجنة الاوربية القديمة (لجنة التصفية) فاخذت فى تنظيم مالية الحـكومة وتوحيد الديون وارجاع أملاك الاسرة الخديوية الى الحـكومة فلم يرض الوطنيون عن تدخل الأجانب فقامت الثورة العرابيـــة ولمـا استفحل أمرها ، خافت أوربا عاقبة تمادى زعيمها عرابى باشا وخشيت الخطر الذى كان يهـدد منافعها فى مصر فارسلت فرنسا وانجلترا اسطولين الى الاسكندرية (مايو سنة ١٨٨٢) لتهدئة الحال ، ثم انسحب الاسطول الفرنسى من الميـدان

ووقعت بعد ذلك بين العرابيين والانجليز عدة وقائع ومناورات حربيـــة انتهت بهزيمة العرابيين فدخل الانجليز البلاد واعلنوا أن احتلالهم مؤقت .

ولما توفى توفيق (١٨٩٢) تولى الحكم عباس حلمي الثاني وفى عهده قررت الحكومتان المصرية والبريطانية فتح السودان بالاشتراك (١٨٩٦) وبعد أن تم فتحه اتفقت مصر وانجلترا على أن يكون السودان شركة بينهما .

ولمـــا أعلنت الحرب بين بريطانيا والمانيا (٤ اغسطس ١٩١٤) اعتبرت مصر بقرار من الحكومة فى حالة حرب مع الدولة المعادية لانجلترا فاعلنت الأحكام العرفيـــة ، وفى ١٨ ديسمبر ســـنة ١٩١٤ أعلن رسمياً أن سيادة تركيا أصبحت ساقطة عن مصر . وفى نفس السنة تولى الحكم حسين كامل . وبعد وفاته انتقل الحكم الى الســـلطان فؤاد الأول ثم قامت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ عقب نفى زعماء الوفد وبعدها صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣ وبه الغيت الحمـــاية وأصبحت مصر مملكة مستقلة ذات سيادة رسمية .

النظام الادارى

قام النظام الادارى فى مصر منذ العهد العثمانى على أســاس نظام الحكم السياسى الذى كان منقسما الى ثلاث سلطات .

السلطة الاولى للوالى ويلقب بالباشـــا مقره القلعة ، وهو نائب السلطان فى حكم البلاد . كان يمثله ويبلغ أوامره لرجال

الحكومة ويراقب تنفيذها ، وله الرياسة على عمالها ، على أن سلطته محدودة مقيدة ، فكانت مدة الوالى سنة واحدة تنتهى ولايته بنهايتها ما لم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى وذلك خوفاً من أن يطمح الولاة فى الاستقلال والخروج على حكومة الأستانه .

والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق الموجودة بمصر وكان عددها يبلغ نحو اثنى عشر الفا ، وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة وامهات المدن ومنتظمين فى ست فرق تسمى كل فرقة (وجاق) ولكل فرقة ضباط يسمون (الوجاقلية) ومن اجتماع أولئك الضباط يتألف مجلس شورى الباشا المسمى بالديوان ، ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى إدارة الحكومة . لأن الباشا لا يستطيع أن يبرم أمراً إلا بموافقة أعضائه ، واذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه الى أن يرفع إلى الاستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة واشراف على سلطة الوالى .

والسلطة الثالثة هى سلطة الأمراء المماليك ، وجدت لتحفظ الموازنة بين السلطتين الآخرتين ، وكان يسمى هؤلاء المماليك السناجق ، أى حكام المديريات .

كانت الادارة المحلية للبلاد تتألف من حكام المديريات (السناجق) و (الكخيا) أى نائب الوالى و (الدفتردار) ووظيفته إدارةالشئون المالية وضبط الخرج والدخل وبيده

ســجلات ملكية الاراضى و (الروزنامجى) ووظيفته إدارة الخراج وضبط حساباته ،وأمير الحج ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل سنويا الى الحرمين الشريفين . (والخازندار) وهــو أمين الخزانة يحمل الخراج سنويا الى الاستانة .

ولما دخل نابليون مصر جمع المشايخ وطلب اليهم أن ينتخبوا منهم عشرة اشخاص لتكوين الديوان الوطنى على أن هذا الديوان لم يمثل كل عناصر الامة وطبقاتها فعمدوا الى تشكيل مجلس عام يؤلف من الطوائف القاطنة فى مصر على اختلاف عناصرها وطبقاتها ومذاهبها ، ومتى اجتمعوا ينتخبون من بينهم ديواناً مؤلفاً من ستين شخصاً سمى الديوان الخصوصى .

أخذ الديوان المذكور يوالى اجتماعته ولا يبرم نابليون أمراً مهماً بمصر إلا شاوره وأخذ رأيه فيه ، وانما كان شغله بالأكثر النظر فى المسائل الوطنية ، فكان هذا الديوان الخصوصى خطوة عظيمة نحو السلطة النيابية فى مصر .

وعلى هذا النمط سار نابليون فى حكم الاقاليم فقد أمر بتشكيل ديوان من سبعة أعضاء فى كل مديرية ليساعد الحاكم على استتباب الأمن والعمل على راحة السكان .

ولما تولى محمد على مصر نجح فى إيجاد نظام خاص للحكم فأنشأ المجالس والدواوين لتساعده فى الحكم ، ولو أنه لم تكن لها أى سيطرة على إرادته ، بل كانت كلها مجالس إستشارية لا تقيد شيئاً من سلطته ، فبقى هو الحاكم المطلق المتصرف

للأمور طول مدة حكمه .

أنشأ محمد على أيضاً الديوان العالى وكان مقره القلعة ، وكان يرأسه الوالى أو الكتخدا أى نائبه ، وكان عمله الفصل فى الامور التى ليست خاصة بالقاضى الشرعى ، فكان هذا الديوان يفصل فى القضايا التى يعرضها عليه ضابط القاهرة .

وفى سنة ١٨٣٧ وضع قانون أساسى يعرف بقانون (السياستنامة) أحاط بنظام الحكومة واختصاص كل مصلحة من مصالحها العامة ، وقد حصر السلطة فى سبعة دواوين .

١ ـ الديوان الخديوى وينظر فى شؤون الحكومة الداخلية العامة وله سلطة قضائية إذ كان يفصل فى بعض الدعاوى الجنائية .

٢ ـ ديوان الايرادات وهو قسمان ، أحدهما يختص بحسابات كافة المديريات وجزيرة كريد والحجاز والسودان والثانى يختص بايراد مدينتي مصر والاسكندرية والجمارك والمقاطعات والذمامات .

٣ ـ ديوان الجهادية وإليه يرجع النظر فى نظام الجنود البرية وضبط وربط حركاتها وتعليماتها وكل ما يتعلق بالمصالح العسكرية .

٤ ـ ديوان البحر وإليه يرجع النظر فى إدارة وتنظيم (الدونمة) أى الأسطول والترسانة والمخازن والخزينة البحرية وتجهيز المهمات والمؤونة .

٥ ـ ديوان المدارس وإليه يرجع النظر فى أمور المدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية والكتبخانة ومخازن

الآلات والأدوات ومطبعة بولاق وإدارة الوقائع المصرية .

٦ - ديوان الأمور الافرنكية والتجارة المصرية وإليه يرجع النظر فى العلاقات الخارجية ومعاملة الأجانب وبيع متاجر ومشتريات الحكومة .

٧ - ديوان الفابريقات وينظر فى كل ما يتعلق بشؤون المصانع .

كان مفروضاً على رئيس كل من هذه الدواوين أن يقدم للباشا تقريراً فى كل أسبوع عن أحوال ديوانه وكشفا شهرياً بحساباته إلى تفتيش الحسابات وميزانية سنوية عن الايراد والمصروف . وعهد بادارة جميع هذه الدواوين أو معظمها إلى مديرين ورؤساء مصريين وكلها ترجع بأحكامها إلى ديوان المعاونة الذى كان ينظر فيما يعرض عليه من هذه الدواوين ومن المديريات وسائر الجهات .

وبجانب هذه المجالس الحكومية أنشىء مجلس المشورة الملكى (١٨٢٩) وكان يختار محمد على أعضاءه بنفسه من كبار رجال الحكومة والأعيان والعلماء . وكان هذا المجلس ينظر فى شئون البلاد الهامة ، ولكنه لم يبق طويلا .

وفى عهد سعيد أخذت الحكومة تشرف على الحكام الذين كانوا يستبدون بالرعية ، وألغت وظائف المديرين وجعلت المآمير ومشايخ البلاد تحت سلطة نظارة الداخلية مباشرة . ثم حولت بعض الدواوين إلى نظارات ، فأنشئت نظارات ثلاث هى الداخلية والمالية والحربية ، كما أنشىء مجلس الحكومة وتناولت دائرة اختصاصه وضع اللوائح الادارية

وفحص جميع القرارات والأعمال المهمة قبل أن تعرض على الوالى .

وفى عهد اسماعيل قسم القطر الى ثلاثة أقسام كبرى ، هى البحرى والمتوسط والصعيد ، وقسمت هذه بدورها الى أربع عشرة مديرية وثمان محافظات ، وكان يشرف على إدارة الاقاليم مفتشون ورؤساء مفتشين .

وتحولت فى هـــذا العهد باقى الدواوين الكبري كالبحرية والخارجية والاشغال والمعارف الى نظارات ، كما انشئت نظارة جديدة (١٨٦٥) هى نظارة الزراعة .

وأكبر الاصلاحات الادارية هى إنشاء هيئات نيابيـــة فى المراكز والمديريات ، بتكوين مجالس إدارية يســـتعين مأمورو المراكز بآراء أعضـــائها فى ادارة أعمالهم . كما يستعين المديرون بآراء مجالس محليـــة ينتخب الأهالى أعضاءها لهذه الغاية ، واستبدل المديرين الأتراك بالمصريين الذين تخرجوا فى المدارس المصرية ، حتى اذا ما أتى عام ١٨٧٧ م كان معظـم المديرين من المصريين .

بعد أن تعطل المجلس المخصوص ومجلس المشاورة فى أيام عباس وسعيد أعادهما اسماعيل ووسع فى دائرة عملهما ، ووكل الى الأول فحص جميع المشروعات التى كان يريد تنفيذها ، حتى أصبح يشبه مجلس الوزراء الآن ، ولكن هذا المجلس لم يشارك اسماعيل فى السلطة ، فقد كان الخديوى مطلق التصرف فى جميع الشئون ، غير أن تغير الظروف السياسية والمالية أدى الى التدخل الأجنبي ، وكان من نتيجة هـــذا التدخل ارغام الخديوى

على التنازل عن سلطته لمجلس النظار في اغسطس سنة ١٨٧٨ . فكان أول مجلس نظار انشىء في مصر .

أما المجلس الثاني فسماه مجلس شورى النواب وكان أعضاؤه ينتخبون من أهل البلاد غير أن المديرين كانت لهم كل السلطة في انتخاب هؤلاء الأعضاء ، وقد افتتح هذا المجلس لأول مرة في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ ، وكانت هذه السنة مبدأ الحياة الدستورية في مصر ، وكانت تعرض على المجلس حالة البلاد المالية ، ومشروعات الحكومة التي تمت أو المزمع عملها ، وعلى العموم كل ما يتعلق بشئون البلاد ومما ترى الحكومة عرضه عليه .

غير أن الخديوي لم يشأ قط أن يقيد سلطته بهذا المجلس أو يسمح له بالتدخل في أمور البلاد ، وإنما كان يقصد أن تلقى على عاتقه جزء من المسئولية ، ولكي يظهر للملأ أن مصر كغيرها من الدول الراقية تتمتع بمجلس نيابي .

وفي عهد توفيق صدر أمر في أول مايو سنة ١٨٨٣ بتشكيل المجالس الجديدة وغيرها على الصورة الآتية .

١ ـ مجالس المديريات ويجوز لها أن تقرر رسوماً فوق العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية إنما لا تكون قراراتها في هذا الشأن قطعية إلا بعد تصديق الحكومة عليها .

٢ ـ مجلس شورى القوانين وينظر في القوانين التي تسن قبل نشرها ولا يجوز إصدار قانون أو أمر يشتمل على لائحة إدارية ما لم يتقدم إلى هذا المجلس لأخذ رأيه فيه .

٣ - الجمعية العمومية وهذه لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم على منقولات أو عقارات أو عـــوائد شخصية فى القطر المصرى إلا بعـــد مباحثة الجمعية العموميـــة فى ذلك واقرارها عليـــه .

٤ - مجلس الحكومة ، وقد صدر الأمر بتشكيله وتأجيل بيان أعماله .

ومنذ الاحتلال البريطانى دخـــل النظام الادارى كثير من التحسن ، وشغل كثير من الانجليز الوظائف الاداريـــة إذ أن المصريين ظلوا يحلون محلهم مع توالى الأيام .

الحالة الاقتصادية والمالية

كانت النظرية السائدة فى مصر منذ القدم أن الملك أو الحاكم هو المالك لجميع الأرض يتصرف فيها كيف شاء ، فكان يقسمها بين اتباعه واعوانه وبين المزارعين والفلاحين ، وكان هؤلاء يستغلون الأرض نظير دفع الضرائب والاتاوات المفروضة عليها فلم يكن لهم حق ملكية الأرض .

ولما وقعت مصر فى قبضـــة السلطان سليم ، صادف هذا النظام هوى فى نفســـه ، فامر بابقائه وبذلك أصبح المالك لجميع أراضى الديار المصرية ، ثم أمر بمسح جميع الأراضى الزراعية وبتقسيمها بين الأهالى كما أمر بتسجيل هـذه الأراضى وأسماء المنتفعين بها وما فرض عليها من ضريبة .

ولما أخذت قوة الوالى والديوان فى الضعف بعد مضى قرن

على الفتح العثمانى ، وقويت شوكة المماليك وأخذوا يستبدون بالأمر فلم يراعوا حرمة قانون ولم يكترثوا بما كان موجوداً من قواعد ونظام ، ولذلك اخذوا يتصرفون فى الاراضى حسب ما كانت تملى عليهم ارادتهم ومنفعتهم حتى اصبحوا مالكين لنحو ثلثى الاراضى المنزرعة وما بقى كان موزعاً بين الاوقاف والفلاحين وغيرهم .

أقبل كثير من الناس على وقف أراضيهم خوفاً من ضياعها ولأن الاراضى الموقوفة على الاعمال الخيرية كانت معفاة من دفع الضرائب ، ولكن الحكومة انزعجت من هذه القبائل فامرت أن لا يتم وقف الا باذن خاص منها ، وكان نظار هذه الاوقاف هم عادة من بين طائفة العلماء الذين كانوا يستغلون هذه الاراضى ويتصرفون فيها كانما هى ملكهم الخاص .

أصابت هذه الفوضى الزراعة بالرغم من أنها كانت أهم مصدر لثروة البلاد ، فلم تنظر الحكومة بعين الاهتمام الى وسائل الاصلاح ، وعلى الاخص عند ما استبد المماليك بالأمر دون الوالى والديوان ، وكان همهم الأكبر أن يحيطوا حياتهم بأنواع البذخ والنعيم ، واهمل الحكام الرى وتوزيع المياه واقامة القناطر والجسور ، وحفر الترع والمصارف وتطهير ما هو موجود منها حتى ضعفت الأرض وانحطت الزراعة وقلت المحاصيل .

غالى المماليك فى ابتزاز الأموال من الأهلين وانقسموا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، وصار أهل البلاد

فى فقر مدقع ، فلما اختفت رؤوس الأموال من الاهالى ، أصاب الصناعة من ذلك رشاش شوه جمالها وذهب بدقتها ، فتناولتها عوامل الاضمحلال ، والواقـــع انه كان للسلطان سليم يد فى هــــذا الاضمحلال إذ أنه جمع أمهر الصنـــاع وأكفأ الأخصائيين فى الفنون وبعث بهم إلى الاستانة لينشروا فيها ما أوتوا من علم ومهارة وحذق فى الصناعة ولم يبق بالبـــلاد غير الصناعات الصغرى التى بقيت فى بعض مراكز الصناعة .

منذ أن اكتشف البرتغاليين طريق الرجاء الصالح فقدت مصر أهميتها التجارية ، غير أن موقعها الجغرافى وهـــو الملتقى الطبيعى للقارات الثلاث أوربا وآسيا وافريقيا ساعـــدها على أن تحفظ شيئاً من مركزها التجارى القديم فبقيت لها صلات تجارية بفرنسا وتركيا وآسيا الصغرى شمالا ، وبالشام وفلسطين شرقاً ، وبلاد المغرب غرباً ، ثم بالسودان والحبشا واليمن وبلاد العرب جنوباً .

لما دخلت الحمله الفرنسية مصر قام نضـــال بين انجلترا وفرنسا كان من شأنه محاصرة الاسطول الانجليزى للسواحل المصرية فقطع سبل الاتصال بينها وبين البـــلدان الأجنبية فكان هذا سبباً فى كساد الحركة التجارية والصناعية مما كان له أكبر الأثر فى إنحطاط الثروة العامة . غير أنه كان للفرنسيين بعد ذلك فضل عظيم فى وضع النواة الأساسية للنشاط الصناعى والتجارى بالبلاد . فقد اضطر الفرنسيون فى مـــدة إقامتهم إلى إنشاء عدة معامل ومصانع لتموين الجيش ، فكانت تخرج

كميات عظيمة من البنادق والمدافع والبـــارود ، وقدراً عظيما من المنسوجات والجلود المدبوغة .

كذلك أصبحت الطرق التى مهدها الفرنسيون لمرور فرق جيشهم فى جهات القطر المختلفة من الوسائل المهمـــة لتنشيط التجارة والزراعة والصناعة ، إذ ساعدت على ربط أجـــزاء البلاد بعضها ببعض بسهولة أكثر من ذى قبل ، كما أن تأديب الفرنسيين عرب الصحراء الذين كانوا خطراً على الأمن والأرواح بغاراتهم المتكررة على المـــدن والقرى كان له أثر عظيم فى توليد روح الطمأنينـــة فى السكان وارتياحهم إلى ضمان بقاء ثمرة مجهوداتهم فى أيديهـــم سواء أكانوا زراعاً أم تجاراً أم صناعاً ولهذا كرسوا أوقاتهم على العمل والانتاج .

أخذت الأحوال الاقتصادية تسير سيرها الطبيعى غـــير أن نابليون احتاج إلى المال فقرر تحصيـــل ضرائب متنوعة منها رسوم تسجيل حجج العقـــارات والتصرفات العقارية ورسوم عن قيد المواليد وأخـــرى عن التصريح بدفن الموتى وعن إثبات الوراثة وهلم جرا . فزادت هذه الضرائب والرسوم فى ارهاق المصريين .

ولما تولى محمد على الحكم وجه عنايته الى الزراعة ، ولكى يجعل زراعة جميع الاراضى تحت اشرافه عزم على نزع ملكية الاراضى ليستغلها على نفقته الخاصة ، فاستولى على معظم الاراضى الموقوفة التى كانت تحت رعاية العلماء ، وجعل الوقف تحت رقابته من غير أن يحله ، ثم استولى على أملاك المماليك فى الوجه البحرى

بعـد حربه مع الانجليز عام ١٨٠٧ وطرد المماليك من ريف مصر الى صعيدها ، ونزع بعد ذلك ملكية الاراضى التى كانت لبقية الافراد وكانت تحت ادارة الملتزمين ، فالغى نظام الالتزام .

اعتبر محمد على هذه الاراضى ملكا للحكومة ، مدعياً حق التسلط عليها لأنه الحاكم النائب عن الخليفة ، ثم وزع منفعتها على الفلاحين كاطيان مؤجرة ، وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أفدنة أو أربعة أو خمسة ، وبذلك آلت له حقوق الملتزمين وسلطتهم ، وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة بعد أن كانت علاقتهم بالملتزمين ، واصبحوا ينتفعون بالأرض ماداموا يدفعون ضريبتها فاذا تأخروا عن أداء الضريبة نزعت الارض من تحت يدهم ، واعطيت لفلاحين آخرين ينتفعون بها .

خصص محمد على لمشايخ البلاد جانباً من الأرض أعفاه من الضريبة فى مقابل نفقات ضيافة جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون فى بلادهم ، وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام واعتبر تلك العطايا مسموح المشايخ أو مسموح المسطبه وهى تقابل الأواسى فى عهد المماليك .

قسمت الأراضى الى مناطق وخصصت كل منها لزراعة محصول خاص ، واذا جاء الحصاد اشترت الحكومة من الفلاح حاصلاته بالثمن الذى تحدده طبقا لنظام الاحتكار ، فكان لهذه الخطة مزايا كبيرة اذ تمكنت الحكومة من ادخال عدة تحسينات فى طرق الزراعة ، واستطاعت شراء الآلات الحديثة لاستعمالها وتزويد الفلاح بما كان فى حاجة اليه من ماء

أو مواش أو ارشادات ، وتمكنت الحكومة أيضا من ادخال محصولات جديدة فى مصر وأهمها القطن والقنب والنيلة والخشخاش والتوت .

ومن العوامل التي أدت الى ترقية الزراعة وازدياد مساحة الاراضى المزروعة ، حفر الترع الكثيرة واقامة الجسور والقناطر ، ومن اكبر هذه المشاريع شأنا ترعة المحمودية والقناطر الخيرية .

أراد محمد على أن يستغني عن الدول الأجنبية فى شراء المصنوعات المختلفة ولوازم الجيش ومعدات الاسطول ، فأنشأ المعامل والمصانع فى البلاد حتى يكون مسيطراً بنفسه على جميع الموارد التى يمد منها جيشه واسطوله .

ومن أهم ما أنشأة معامل الغزل ونسيج القطن والحرير والكتان والصوف ومعامل الجوخ والطرابيش وكذلك معامل السكر ومعاصر الزيت ، هذا الى المصانع الكثيرة التى كانت تقوم بصنع المعدات اللازمة للجيش والاسطول .

ونظراً لاعتماد هذه المصانع على سلطة الحكومة وخزينتها ونظراً لما تتحمله من الخسائر ، أخذ الوالى بجبر الفلاحين على استبدال حاصلاتهم بمصنوعات معامل الحكومة فادى ذلك إلى اهمال جانب كبير من هذه المصانع فى المدة الأخيرة من حكم محمد على .

بعد أن احتكر محمد على أراضى مصر وصناعتها احتكر حاصلاتها أيضاً ، فكانت الحكومة تشترى الحاصلات من

الفلاحين بأثمان تقررها هى ، وكانت تخصم من الثمن ماعليهم من الضريبة وتدفع لهم الباقى نقداً ، ومنذ أن تحول طريق التجارة الى المحيط الأطلسى، كانت التجارة فى كساد ، عمد محمد على على الاستفادة من مركز مصر الجغرافى العظيم فانشأ طريقاً للنقل بين السويس والقاهرة ، وأقام فى الطريق مبانى خاصة ليستريح فيها المسافرون ، وحفر ترعة المحمودية (١٨١٩) فاصبحت السفن تستطيع أن تسير من القاهرة الى الاسكندرية وبالعكس ، وأصلح مرفأ الاسكندرية حتى يتناسب مع الطريق الجديد ، واستعمل الطريق البرى الى الهند لأول مرة فى سنة ١٨٤٧ وانشئت مصلحة خاصة بهذا الطريق البرى الذى عاد بالربح الوفير على الخزينة وعلى الاهلين الذين استفادوا مما كان ينفقه التجار والمسافرون .

ومما ساعد على تقدم التجارة فتح السودان لأنه كان بمثابة سوقاً جديداً لتجارة مصر .

كانت مالية الحكومة فى عهد محمد على تتكون من الموارد الناشئة من نظام الاحتكار ومن كثير من الضرائب والمكوث أهمها ضريبة الأراضى وفرضة الرؤوس ، وكانت الأولى على عدة أنواع وذلك وفقاً لتقسيم الأراضى الى درجات مختلفة فكان لكل درجة من الأرض ضريبة محدودة ، ثم عدلت هذه الضريبة غير مرة بوضع تقسيمات جديدة للأراضى حسب مراتبها ، وكان الغرض من هذه التعديلات زيادة سعر الضريبة ، أما فرضة الرؤوس فتحصل على الدخل من الأفراد بواقع جزء

من اثنى عشر جزءاً من الدخل ، وتجبى هذه الضريبة من الذكور المراهقين بالمدن وعن المنازل بالقرى ، وقد بلغ ماحصل منها سنويا نحو سدس إيراد الحكومة .

رغم سوء النظام الاشتراكى الذى فرض على مصر فى عهد محمد على فأن مصر بقيت غير مدينة بأى دين ، بعد أن حكمها محمد على ثلاثا واربعين سنة أنفق فيها بسخاء على جيشه العظيم واساطيله العديدة والمعامل والحصون والحروب فى السودان وجزيرة الموره وكريت وسوريا وعلى البعثات والمدارس والمصانع والمعامل الحربية وغير ذلك مما قام به من المشاريع العظيمة .

وفى عهد عباس باشا استمر الفلاح المصرى مقيما على أطيان لا يملك منها شيئاً واستمر يزرع ما لا نصيب له فى اختياره ويجنى محصولا لا يستطيع التصرف فيه ، ولهذا أخذ يقل اهتمامه بالأرض وتضعف رغبته فى العمل ويزداد انصرافا عن الانتاج لا سيما وقد كانت على رأس البلاد حكومة ظالمة ووال مستبد يعصر جسم الفلاح ليحصل على ما يريد من مال يصرفه على ملذاته وتحقيق رغباته الخاصة .

ترك كثير من الصناع صناعاتهم فى عهد محمد على وآثروا الاشتغال بالزراعة على الاشتغال عمالا لحساب الحكومة والاستهداف لسوء معاملة موظفيها ، وكان من نتائج ذلك هبوط جودة المصنوعات عما كانت عليه حين كانت الصناعة حرة ، فأخذت الصناعة تسير فى تأخر مستمر حتى بادت البقية

الباقية من المصانع التى أنشأها محمد على فى عهد عباس .

اقتفت التجارة فى هذا العهد أثر الزراعة والصناعة ، فظلت مهملة لم يفدها الا مد الخط الحـــديدى الذى يربط القاهرة بالاسكندرية (١٨٥٦) وتمهيد الطريق بين القاهرة والسويس ولـكن اقتصرت فائدتهما على مصلحة المسافرين والبريد .

وفى عهد سعيد تحسنت الزراعة قليـــلا وانتعش الفلاح على أثر اصـدار قانون الأراضى (١٨٥٨) وهو الذى وزعت بمقتضاه الأراضى على الفلاحين الذين يقومون بزراعتهـــا ليتصرفوا فى زراعتها حسب مايشتهون ، غير أن هذه الملـكية اقتصرت على حق البيـــع والرهن على أن تـكون (أثرية) الأرض لا الأرض نفسها موضوع ذلك التصرف . وكان طبيعياً أن ساعد هذا القانون على انشاء الزراعـــة وأدى الى اعتناء الفلاحين بأراضيهم ، لأنهم أصبحوا يستفيدون من كل إصلاح يقومون به فيها على الدوام .

وفى هذا العهد أصبحت التجارة حـــرة فالغى الاحتكار وصار الفلاح يزرع أى محصول يختاره لنفسه ، ويبيع محصوله أنى شاء ولمن يشاء ، وأصبح التجار أحراراً فى اختيار الوسائل التى ينقلون بها محصولاتهم براً وبحراً ، ثم ألغيت عمـــوم الدخوليات والجمارك الداخلية التي كانت عقبة فى سبيل انتشـار التجارة لأنها ترفع أثمـان البضائع ، وأخـيراً أنشئت البورصة المالية فى الاسكندرية ولما نشبت الحرب الأهليـــة بأمريـكا (١٨٦٢) ارتفعت أسعار القطن فسبب ذلك رواجاً كبيراً .

كان لكراهية سعيد للأجانب تأثير كبير فى انتقال التجارة الداخلية إلى أيدى الوطنيين الذين استطاعوا أن يحلوا محل التجار الأجانب فى داخلية البلاد . وقد ساعدهم أيضاً على ذلك معرفتهم لغة البلاد وطباع أهلها وعاداتهم ، فأصبحت معظم التجارة الداخلية فى أيدى الوطنيين ، كانوا يبيعون القطن والمحاصيل الفائضة عن حاجة البلاد الى التجار الأجانب بالاسكندرية .

كانت مصلحة الجمارك فى حالة مختلة لأنها كانت تعطى فى عهد محمد على التزاماً نظير مبلغ معلوم يدفعه الملتزم ، فرأى سعيد أن يصلح من شأنها بجعلها مصلحة أميرية مستقلة والغى نظام الالتزام .

أما الحالة المالية فى عهد سعيد فكان أهم الاصلاحات التى حدثت فيها تعديل نظام الضرائب ، فقد حلت الضرائب النقدية محل العينية ، وعدلت أوقات جمع الضرائب فأصبحت تتناسب مع زمن بيع المحاصيل ، كما حددت قيمة الضرائب نفسها وقيدت فى سجلات خاصة ، وألغى نظام التضامن لما فيه من غبن وظلم ، فقد كان يقضى هذا النظام بوجوب تضامن أهل القرى والمراكز المتجاورة فى دفع الضرائب للحكومة بحيث إذا عجز سكان قرية أو مركز عن دفع ما عليهم منها قام جيرانهم بدفع ذلك على سبيل التضامن .

كان سعيد مسرفاً مبذراً ، فساءت الادارة المالية ، واضطر فى أواخر حكمه الى فتح باب الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية

وعقد قرضاً بنحو ثلاثة ملايين جنيه ، هذا الى جانب دينه السائر الذى بلغ حوالى العشرة ملايين جنيه .

وفى عهد اسماعيل نالت الزراعة قسطاً وافراً من عنايته فتحسنت أحوال البلاد الزراعية ، وأصلح من الأراضى ما لا يقل عن مليون ونصف فدان أصبحت صالحة للزراعة ، فزادت بذلك الاراضى المزروعة فى مصر بنسبة ٣٠ ٪ وحفرت أكثر من مائتى ترعة وسهلت طرق المواصلات بمد الطرق الزراعية واقامة الكبارى ، وحفرت ترعة الابراهيمية التى تعتبر من أكبر ترع العالم ، وقد عادت على الزراعة فى مصر بأجل الفوائد .

حاول اسماعيل ترقية الصناعة فى البلاد ، ولكنه لم يصادف نجاحاً فى هذا السبيل ، فانه اشترى الآلات الكثيرة من الخارج لتشييد المعامل والمعاصر فى مزارعه ولكنه لم يشيد فيها فيها الا جزءا فقط مما كان عازما عليه ، واخفق المشروع فى النهاية غير أنه أنشأ معامل أخرى لنسج القطن والتيل والصوف ، كما أنشأ المعامل لصنع الابسطة والبفتة والورق وكانت بجانب هذه معامل لصنع المدافع والبنادق والذخيرة والزجاج كما وسع نطاق المطبعة الأميرية لتقوم بطبع كل ما تحتاج اليه حكومة البلاد .

اعتنى اسماعيل بتحسين التجارة وتوسيع نطاقها ، فبنى خمس عشرة منارة فى البحرين الأبيض والاحمر لتهتدى بها السفن التجارية التى تقصد البلاد المصرية واصلح ميناء السويس والاسكندرية وأنشأ الشركة العزيزية وكانت سفنها تنقل المتاجر

والبريد من مصر والبلاد الواقعة على شواطىء البحر الابيض الشرقية والبحر الاحمر وفى سنة ١٨٧٢ اشترى جميع اسهمها وسميت شركة البوستة الخديوية ، كما اهتم أيضا بشركة الملاحة النيلية فنظمها من جديد ، واخذ عدد الخطوط الحديدية والاسلاك البرقية يزيد شيئاً فشيئاً ، ثم اشترت الحكومة مصلحة البريد (١٨٦٥) وأسست كثير من المكاتب فى جميع أنحاء القطر .

ومنذ فتح قناة السويس تأثرت التجارة المصرية الى حد بعيد بسبب تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب عنها بعد أن كان يعبر القطر من السويس الى الاسكندرية ، وقد أدى أيضاً افتتاح القناة وتقدم المواصلات البحرية الى زيادة أهمية الحاجيات من الاسواق الاجنبية ، وكان فى ذلك القضاء المبرم على الصناعة المصرية ، على أن هذا لم يكن العامل الوحيد فى شراء مصر جميع حاجياتها من الخارج لأن التجارة الاجنبية ابتدأت تأخذ أهميتها العظمى من عهد محمد على عند ما رأى الفلاح الخير كله فى الاخذ بزراعة القطن وكان مخصصاً للتصدير ثم أنه توسع فى زراعته مدفوعاً بغلاء ثمنه ابان الحرب الاهلية الامريكية فازدادت قوة المصرى الشرائية وتمكن من شراء جميع حاجاته من الخارج .

كان تاريخ المالية المصرية منذ أن تولى اسماعيل العرش تاريخ تبذير واسراف على متعه وملاذه الشخصية ، وتاريخ بذخ للسرعة والاعتساف فى الاخذ بأهداب المدنية الغربية .

داخل اسماعيل الغرور بثروة البلاد فى أوائل حكمه بسبب

ارتفاع أسعار القطن الفجائى عند نشوب الحرب الاهلية بأمريكا ، فعقد القروض لسد النفقات الجسيمة التى اقتضتها مطامعه فاثقل كاهل البلاد بدين أصبحت عاجزة عن تسديد فوائده .

استدان اسماعيل من أسواق أوربا بشروط فاحشة فساعد على التدخل الاوربى فى جميع شئون مصر الداخلية والخارجية . واستدان من الاهالى بمقتضى قانون المقابلة ودين الرزنامة فارهق البلاد رغم ظروفها المالية السيئة .

على أن اسماعيل لم يكتف بذلك فارهق كاهل الفلاح بكثير من أنواع الرسوم الثانوية التى اضيفت الى الضريبة العقارية الاصلية فجاءت مساوية لها بل مربية عليها أحيانا ، تلك الرسوم كانت تجبى آناً باسم اعانة الحرب ، أو برسم الاشغال العمومية والرى ، وتؤخذ آنا فى شكل رسم فعلى على الضريبة العقارية بنسبة سدسها ، وفى اصغر القرى لم يعف متجر وإن قل من أتاوة يؤديها ، كما لم تعف من مثل ذلك المهن والصناعات الصغيرة ، ومما زاد تلك المغارم ثقلا أن كبار المزارعين الوطنيين كانوا يفلتون منها فى الغالب ، وأن الملاك الاجانب كانوا غير مطالبين بها ، فكان كل عبئها يقع على افقر الطبقات .

وفى عهد توفيق سويت الحالة المالية على يد لجنة التصفية فقدرت دخل الحكومة بما يقرب من ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه ، وقسمت هذا المبلغ قسمين متساويين تقريباً ، خصصت أحدهما لسد نفقات الادارة والحكومة والمشروعات

الهامة الضرورية وابقت الآخر لسد أقساط الديون وفوائدها .

ومنذ سنة ١٨٨٢م اجريت كثير من الاصلاحات الادارية والمالية ، فاهتمت الحكومة بتحسين طرق الرى وتوسيع نطاق الاراضى المزروعة ، فاصلحت القناطر الخيرية وطهرت رياح البحيرة وانشئت قناطر زفتى وقناطر اسيوط وقناطر اسنا وكان أجل هذه الاعمال الهندسية قدراً خزان اسوان ، ثم أن الحكومة أخذت تغير طريقة رى الحياض فى الوجه القبلى واستبدالها بالرى الدورى تدريجاً .

وبالنظر إلى الاحوال المالية الغيت معظم الضرائب الصغيرة وحددت مواعيد جمع الضريبة بحيث تدفع الاقساط فى أوقات تناسب المزارعين وخففت ضريبة الارض فى المديريات الصغيرة ، وأبطلت ضريبة الملح وغيرها ، والغيت السخرة التى هى الحقيقة نوع من الضريبة ، وفرضت ضريبة المبانى على الاجانب اسوة بالوطنيين .

كان من أثر الانقلاب الصناعى فى أوربا فى القرن التاسع عشر أن تكاثرت رؤوس الاموال ، فكان ذلك لسوء حظ مصر ، حيث وجه اليها أصحاب الاموال ورجال الاعمال انظارهم ، وأمها عدد كبير منهم وبدأوا يؤسسون الشركات والبيوتات المالية ويستغلون ظروف البلاد ، يشجعهم ما يمنحون من الامتيازات والمساعدات . فاخذت تستغل موارد مصر وتلتهمها اقتصاديا وسياسياً .

أخذت رؤوس الاموال الأجنبية تسيطر على التجارة ،

فاصبح الماليون الاجانب يشرفون على تجارة الصادر واغلبها القطن ، وكل ما يتعلق به من محالج ومكابس ومخازن ونقل وتأمين واسواق ، وكذلك الحال فى تجارة الوارد استأثر بها الاجانب من تجار جملة وقطاعى ووكلاء بالعمولة ونواب معامل .

ولما نشبت الحرب العظمى أوجدت فى نفوس المصريين روح الاعتماد على النفس ، إذ أن صعوبة المواصلات وقلة الانتاج أجبرت الشعب على القيام بسد حاجاته ، فنشأت عدة صناعات وأخذت تنمو سريعاً ، فلم يكد يهل عام ١٩٢٠ حتى أنشأ عدداً من المصريين بنك مصر فعمل على إنشاء كثير من المشاريع الصناعية التى تتمتع بمساعدته وتعضيده .

الدين

فتح السلطان سليم مصر (١٥١٦) بمعاونة الخليفة المتوكل والقضاة وبعض قواد المماليك الخونه ، فمنح سليم فى بادىء الأمر الخليفة سلطة عظيمة حتى إنه ما كان ينفذ حكماً شرعياً فى مصر إلا بعد موافقته ، ولكن ما لبث السلطان سليم أن انقلب على الخليفة فاتهمه بتبديد أموال اليتامى التى عهد بها إليه بحكم وظيفته الدينية فسجن بالقسطنطينية وبقى بها سجيناً ولم يطلق سراحه إلا فى عهد السلطان سليمان القانونى ، وتنازل الخليفة بعد ذلك عن الخلافة لسلاطين آل عثمان ، فلقبوا بألقاب الخلافة من ذلك اليوم .

وبعد أن أصبح الخليفة شخصاً عديم الأهمية بتنازله عن

ألقابه ووظيفته سمح له بالعودة إلى القاهرة، فظل بهـــا حتى قضى نحبه بائساً سنة ١٥٣٨ م .

حطم هذا الحادث الرابطة التى كانت تربط الدين بالسياسة فلم يعد لقب الخلافة إلا اسمـــاً . وطبيعى أن يستهين النـاس بعد ذلك بالخلافة ، فبعد أن كان الخليفة يجمع السلطتين الدينية والمدنية ، وبعد أن كان المصريون يرعونه رعاية الاحـــترام والتقديس أخذوا يجادلون فى حقه ، ثم ينكرون سلطة الخلافة المدنية ويقولون انها ليست من الدين .

منذ أن فقد الدين اعتماده على السياسة ، ضعفت مكانتـــه عند الناس وأخذت تدخله كثير من البدع والمستحدثات التى أفسدت غاية تعاليمه ، فاذا نظرنا مثلا الى الصوفية وهى أكثر الحركات الاسلامية روحانية وأبعدها اتصالا بالدنيـا ، وجدنا أن التغيير الذى طرأ عليها كان عظيماً .

كانت الأفكار الصوفية فى الأصل تقـــول بأن الله ليس شخصاً خارجاً عنا بل هو قوة تشمل الكون وانه فى امكان الانسان بمجاهدة الشهوات التى تربطه بالمادة أن يتصل بهــــذه القوة فتحل فى نفسه وتكشف له بذلك أسرار الكون ، وتعتقد الصوفية أيضاً بأن بنى الانسان كلهم اخوة لأنهم كلهم يعبرون عن هذه القوة الحالة فيهم ، فصلة التعامل بينهم يجب أن تكون صلة الحب لا المنافسة أو التنازع .

لم ينتصف القرن السابع عشر حتى حلت الدروشة محـــل الصوفية ، وكانت الدروشة عبارة عن أساليب خاصة فى الذكر

والعبادة ، وغرضها الاتصـــال بالله بواسطة طرق عـــدة ومقامات جمة ، منتزعة مادتها من الحديث والقـــرآن وأقوال الأولياء وأكثرها متشـــابه من حيث الجوهر ، ولو اختلفت وجهـــات النظر باختلاف المؤلف أو المجتهد.

قامت الفرق على أثر هذه الحركة وكان أشهرها المولويه والرفاعية ، وتعددت هذه الفرق واختلف بعضها عن بعض إختلافاً كبيراً وصار الناس لا يفـرقون بين الشعوذة والدين والعلم ، فخالف الدراويش وخاصة عامتهم سنن الزهد والتصوف وخرجوا الى الأعمال جماعات لا رابط يجمعها ، ويقال أن الطريقة القادرية فى مصر تميزت بصيد السمك ، وان رجالها كانوا يحملون فى أيام الأعياد والمواسم أعـــلاما من الشبك مختلفة الألوان والأشكال .

استمـــد الدراويش كثيراً من نظمهم كطرق السير والأعلام والكاسات من بقايا نظم الجند عند الفـاطميين ، أما درجاتهم من مريد الى نقيب نقباء الى خليفة الى خليفة خلفـاء الى نائب ، فانها بعينها درجات الجند ومراتبهم عند الفاطميين .

اتخذ الدراويش التكايا دوراً لعبادتهم ، فـكان يؤمها من لا كسب ولا غلة له ، وكانت أشبه بالملاجىء منها بدور العبادة .

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر نشأ جيل جديد وحضارة حديثة فأخذ يزداد احتكاك مصر باوربا ، وابتدأ العلم الأوربى والتقليد الغربى يزاحمـــان الثقافة الاسلامية ، فكان من ذلك ظروف وتطورات اجتماعية كان لابد أن تتأثر بها الحيـــاة

الدينية وقد تأثرت بهما فعلا .

أصاب التغيير الذى طرأ على الدين أغلب النـــواحى التى ظن الناس أنها من الدين والواقع أنها بعيـــدة عن جوهره. غير أن أعظم تأثير وقع على الحيـــاة الدينية ومظاهرها ، هو تغيير كثير من جوانب الحكم الشرعى والذى يرجع إلى أحكام الاسلام والأوضاع الاسلامية ، فبعد أن كان المصريون يفزعون من أن يحتكموا إلى غير قوانين الاسلام ، لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح فى القرآن ، اصبحت القوانين تؤخذ من تشريع أوربا ولا يرى المصريون حرجاً فى أن يحتكموا إليها او يخضعوا لها وافقت الفقـــه الاسلامى أم لم توافقه ، وما كان ذلك إلا خضوعاً لحكم الظروف الاجتماعية والتطورات التي نشأت مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد .

كان للظروف الاقتصادية أيضاً تأثير بين فى الحالة الدينية ، كان الربا الذى يحرمه الاسلام ممقوتاً من المصريين ، فلمـــا أخذوا بأسباب الحضارة الحديثـــة كثرت مطالبهم ، ودفعتهم ضروريات الحياة إلى التماس المـــال فانشئت بينهم البنـــوك وصناديق التوفير وشركات التأمين على الحياة وغيرها ، وما لبث المصريون أن أقبلوا عليها وتعاملوا على شروطهـا ، وبجانب هذا كان من أثر الظروف الاقتصادية أيضاً اضطرار النساء إلى الخروج الى ميدان العمل . وقد تبع ذلك انتشـــار السفور وقـــلة احتجاب النساء عن مجالس الرجال .

كان الازهر دائماً ربيب السياسة وآلة الحكام السياسيين

وسندهم ، ولكن منذ أقبل المصريون يعملون على تحديد سلطة الحكومة وضبط نظام الحكم على قواعد الحياة النيابية والدستورية ، تأثرت الحياة الدينية فى مصر بهذا التطور السياسى ، فبعد أن كان لعلماء الأزهر نوع من السلطان ضعف مقامهم وتلاشى سلطانهم وخلص المصريون من ربقة التحكم الدينى ، وبعد أن كان مشايخ الطرق مثلا يحكمون أتباعهم حكما دينياً نافذاً قوياً ذهب عن النفوس سلطانهم وتحرر أتباعهم من هذا التحكم الروحى .

بينما كانت جميع نواحى النشاط الاجتماعى تسير سريعاً نحو الرقى ، إذ رجال الدين فى جمود لا يتمشى مع التطور الاجتماعى الذى أصابته البلاد ، فكان من نتائج هذه الحالة ظهور بعض الشخصيات المفكرة التى كان لها أثر عظيم فى الحالة الدينية .

كان أعظم هذه الشخصيات أثراً فى حياة مصر الدينية السيد جمال الدين الأفغانى أحد أقطاب النهضة فى الشرق . كان يرمى إلى توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين وجعلهم كلهم مملكة واحدة يأتمرون وينتهون بأمر واحد ، وقد بذل فى هذا السبيل كل مرتخص وثمين ، ثم تبعه الأستاذ الامام محمد عبده وكان عالماً فذاً جمع بين حكمة الشرق وتصوفه وفلسفته ، وبين مدنية الغرب وآرائه ومذاهبه الاجتماعية .

كان أهم أثر تركه محمد عبده ينحصر فى الاصلاح الدينى وقد اتخذ لذلك موضعين رئيسين ، إصلاح الأزهر وقد تناول

الناحية الادارية والصحية والخلقية ، وإصلاح المحاكم الشرعية وقد تناول تنظيمها ورفع وظائفها وإنشاء مدرسة القضاء الشرعى .

وضع محمد عبده تفسير جزء عم وسورة البقره وغيرها وكتب تفسيره بروح بلاغية وعلمية وتحلل من اخطاء السابقين فاتبع طريق المنطق الصائب صارفا النظر عن الأساطير التى علقت بتفسير القدامى ، ومن أحسن ما كتبه كتاب (الاسلام والنصرانية) دافع فيه عن الاسلام أمام مزاعم المسيحيين أمثال رينان وهانوتو وغيرهما ممن أخذوا يهاجمون الدين تمهيداً للاستعمار مستدلين على دعاويهم بالانحطاط الذى أصاب المسلمين لتهاونهم فى أمور دينهم ، وأثبت فى الكتاب أصول الاسلام وعلاقته بالحضارة مستعرضاً تاريخ المسلمين وما أدوا من خدمات للعلوم والمعارف بأنواعها .

وجه الأستاذ محمد عبده همته الأولى إلى تصفية الدين مما يعتقده الناس من الترهات التى ألصقت به ، وجعل العقل مقياس الدين ، فكل ما لم يتفق مع العقل من تفاسير السابقين اعتبره دخيلا لا يستحق البقاء وكان أكبر همه من ذلك موجها لما يختص بالعقائد ، لذلك كان أصدق ما يكون حملة على مسائل الأولياء والنذور وأمثال هذه الطقوس مما هو دخيل على الايمان بالله .

غير أن الطقوس الدينية الدخيلة على الايمان كانت أقوى من أن تحارب ، فأغلبها يرجع الى جذور فرعونية قديمة ، لذا ظلت ماثلة فى كثير من مظاهر الدين ، وكانت

شاهداً على أن البيئة كانت أقوى من الدين . ومن أمثلة هذه التقاليد الدينية كثير . يقدس القرويون بعض بقايا تماثيل عتيقة ، وأحجار قديمة ، ومعابد مهدمة لا يدرى الفلاح أو الفلاحة كنهها ، ولكن لها فى القلوب رهبة وأثر عجيب ، وكثيراً ما تحج النساء إلى تلك الآثار وتحوم حولها وتتمسح بها معتقدة أن فى زيارتها شفاء لمرض أو تحقيقاً لرغبتها فى أن ترزق طفلا .

كان التمساح فى عداد الآلهة المصرية القديمة وكان المصريون يقدسونه ويقدمون له الضحايا والقرابين ، وقد ظل المصريون يحنطون التمساح ويضعون جثته على أبواب المنازل ، كتميمة من التمائم التى تجلب الخير ، وكذلك كان المصريون يعبدون الثعبان ضمن ما عبدوا ، وقدسوا الحية ، وقد ظلت المرأة المصرية تلبس الأساور التي تشبه الثعابين فى شكلها تبركا بها .

كان من خصائص المدنية الفرعونية شدة اكرام الموتى والمبالغة فى ندبهم ، والاهتمام بأرواحهم لما يعتقدون من خلود الروح وعودتها إلى الجسد ، ومن ثم ظهر اهتمام المصريين بالقبور وزيارتها فى كل مناسبة ، وظل يعتقد كثير من الفلاحين أن الروح تشعر بوحشة شديدة إذا تركت وحيدة فى ظلام القبور ، لذلك يعمدون إلى المبيت فى القبور ليالى عديدة كل عام .

كان للسيد البدوى عجل يتبعه أنى يسير ، ويهديه إليه الاتباع والمريدون فى مستهل الربيع من كل عام ، فكان الناس يحترمون هذا العجل ويتبركون به حتى إذا أتى الصيف نحر السيد هذا

العجل لاتباعه ومريديه فتحتفل البلد كلها بهذا العيد ، وينحرون بدورهم العجول إكراماً للسيد ولعجله ، وتشبه حيـــاة السيد البدوى وعجله حياة الآله فتاح والعجل أبيس تمـــام الشبه ، بل إن ذكراهما نفسها قد بقيت فى السيد البدوى وعجـــله فدل المصريون بذلك فى صميم تقـاليدهم على أنهم ما زالوا مصريين رغم إختلاف الأديان وتطورها .

التشريع والقضاء

بقى النظام القضائى فى العهد العثمانى فترة من الزمن كما كان قبل الفتح ، فكان يتولى القضاء قضاة أربعة من المذاهب الأربعة يسمى كل منهم (قاضى القضاة) الحنـــفى والمالـكى والشافعي والحنبلى . ولكل من أولئك القضاة أن يعين نوابه فى القضـاء ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام ، وإنمـا عين قاضياً عثمانياً جعله أميناً على قضاة مصر ، ولمـــا تولى السلطان سليمان أبطل نظام قضاء القضاة الأربعـــة وأمر بتنصيب قاضياً تركياً يسمى (قاضى مصر) يرسلونـــه من الاستانة وهو بمثـــابة قاضى القضـــاة .

لم يـكن للتقاضى رسوم معلومة ولا جعل محـــدود ، بل كان كل قاضى يتقاضى فى كل دعوى ما يقـــدره من الأجر ، وإذا كان قاضياً متورعا فانه لا يطلب أجراً معلوماً بل يكتفى بما يعرضه أرباب القضايا وبذلك ينال احترام الناس ومحبتهم وكان القضاة لقـــلة بضاعتهم من العلم يرجعون الى فتاوى

العلماء للفصل فى القضايا ، فكانت هذه الفتاوى تقدم كمستندات فى الدعوى ، ولفتاوى العلماء قيمة فى نقض الأحكام بعد صدورها ، ومن ذلك جاءت كثرة الفتاوى فى ذلك العصر ، كما أن تعدد مذاهب القضاة وتعدد الأقوال فى كل مذهب كان من أسباب الفوضى فى الأحكام والمعاملات ، وذلك أن المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعواهم أمام مختلف المحاكم وبخاصة مع ماجرى العمل من أن للمدعى الخيار فى أن يذهب الى أى قاض أراد . فكان المدعى يختار القاضى الذى يعرف عن مذهبه أو القول الذى يأخذ به من أقوال هذا المذهب ما يؤيد دعواه وهذا النظام من شأنه أن يزعزع الثقة فى المعاملات .

رأى الديوان أثناء وجود الحملة الفرنسية بمصر ان يبقى نظام القضاء على ما كان عليه وأن لا يتغير شيء من ترتيب المحاكم ونظامها ، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضى التى تدفع للقضاة وموظفى المحاكم ، وطلب أيضاً أن يكون تعيين القضاة فى كل مديرية من حقوق الدواوين المؤلفة بها .

وضع الديوان أيضاً نظاماً جديداً لاثبات الملكية على قاعدة تسجيل مستندات الملكية فى مقابل رسوم تدفع للتسجيل ثم صدر أمر بأن يقدم جميع ملاك العقارات حجج ملكيتهم القديمة والجديدة لتسجيلها فى مقابل دفع ٢ ٪ من قيمة العقار إلا أنه استعصى تنفيذ هذا المشروع فاستعيض عنه بفرض ضريبة على العقارات ذاتها .

أنشئت أيضاً فى هـــذا العهد محاكم تجارية مؤلفة من اثنى عشر عضواً ستة من الأقباط وستة من التجار المسلمين، وفوض اليها النظر فى القضايا التى تقع بين التجار والعامة وفى المواريث ونحوها، وكانت تلك القضـــايا تنظر الى ذلك الحـــين فى المحاكم الشرعية.

وفى عهد محمد على لم يتغير النظام القضائى كثيراً عمـا كان عليه فى العهد العثمانى، غير أن محمد على جعل للديوان الخديوى اختصاصاً قضائياً، وأنشأ هيئة قضائية جديدة (١٨٤٢) تسمى (جمعية الحقانية) جعل من اختصاصها محاكمة كبـــار الموظفين على ما يتهمون به فى عملهم، وتحكم أيضاً فى الجـــرائم التى تحيلها عليها الدواوين، وكانت تؤلف من رئيس وستة أعضـاء منهم اثنان من أمراء الجهادية واثنان من البحرية واثنان من ضباط البوليس. وأنشأ أيضاً محكمة تجـــارية تسمى (مجلس التجار) للفصل فى المنازعات التجارية بين الأهلين، أو بينهم وبين الأفرنج، وتتألف من رئيس ونائبه وثمانيـــة أعضاء من التجار خمسة منهم من الوطنيين وثلاثه من الأجـانب، وكان بكل من القاهرة والاسكندرية محـكمة من هذا النوع.

كان المـــديرون يجمعون بين السلطتين القضائيـــة والادارية، ولهم اختصاص جنائى واسع المدى يصـــل الى الحكم بالاعدام، ومن هنا جاء اسرافهم فى الظلم والارهاق.

وأول قانون سن فى عهـد محمد على هو القـانون المعروف بقانون الفلاح (١٨٢٩) ويشتمل على بيان كثير من الأحكام

التى تتعلق بالزراعة والضرائب وغيرها وفى سنة ١٨٤٦ صدرت لائحة المسائل التجارية ، وكانت مقتبسة من التشريع الأوربى ، فكانت أول خطوة موفقة من نوعها . ثم خطت جمعية الحقانية خطوة أخرى موفقة فيما يختص بالعقوبات فوضعت لائحة تشتمل على تفصيلات وافية ومبادىء جديدة لم تكن معروفه من قبل فكانت دليلا على تقدم الأفكار التشريعية وبذلك سلكت مصر نهائياً ، فى تشريعها الجنائى والتجارى ، مسلك التشريع الأوربى الحديث واعتنقت مبادئه .

أما التشريع المدنى فكانت خطواتها فيه أبطأ وآثاره أقل فلم تظهر فى الفترة من عهد محمد على باشا الى نهاية عهد سعيد إلا قليل من اللوائح والقوانين المدنية اكثرها خاص بالنظام العقارى ، وذلك لأن حكومة مصر الناشئة شعرت أولا بالحاجة الى القوانين الجنائية الرادعة لحماية النظام الجديد ورقابته وتثبيته وكذلك كان النظام العقارى عرضة للتغيير والتبديل لكى يصل الى نظام الملكية الفردية ، وقد اقتضى هذا التغيير زمناً طويلا واستمر الى ما بعد صدور اللائحة السعيدية (١٨٥٨) فكان طبيعيا أن لا تبدأ حركة اصلاح القوانين المدنية إلا بعد ثبات النظام العقارى .

وبالرغم من جهود الحكومة فى اصلاح التشريع والقضاء فان سير العدالة لم يكن مرضيا لعدم تجانس التشريع فقد كانت القوانين خليطا من اللوائح القديمة والقوانين العثمانية والنصوص الشرعية والقوانين الفرنسية ،ولم تكن هناك حدود معروفة

لتطبيق هـــذه القوانين المتنافرة ، يضاف الى ذلك أن كثيراً من أعضـاء المجالس القضائية كانوا غير أكفاء للقيام بالواجب عليهم فى توزيع العدالة لقـــلة علمهم وعدم كفايتهم القانونية ، ومما زاد الشكوى من ســير العدالة تدخل الادارة فى القضاء فكان المدير أو المأمور بحكم وظيفته عضواً فى المجلس القضائى الكائن فى دائرة عمـــله ، وكان هو المسيطر على سائر الأعضاء ورأيه هو النافذ ، كما أن إعلانات الجمهور وغيرها من اعمـال الاجراءات وتنفيذ الاحكام والقرارات كانت بواسطة الادارة ونشأ من ذلك تعطيل الاجراءات واهمال التنفيذ اهمالا شنيعا .

بدأت المصالح الاجنبية تتكاثر فى مصر وتتعدد نواحيهـا فى أيام ســعيد ، ولما كان الوالى لين الجانب شديد الاكرام للاجانب ، أخذ قناصل الدول يستغلون هذه الظروف ويغتالون حقوق السلطة المحلية التشريعية والقضائية حتى هدموا كل اركانها فلم يعودوا يقنعون بالنظر فى شئون رعاياهم المدنية والتجـارية وبحمايتهم من أى ضيم قد يقع عليهم من الحكومة ، بل تعـدوا ذلك الى الاختصاص دون الحكومة بالنظر فى المخالفات والجنح والجنايات التى يرتكبها رعايا دولهم ، والزام الاهالى بالحضـور أمام المحاكم القنصلية إذا كانت لهم دعاوى ضد أحد الأجانب ، وقد تطرفوا فى مسلكهم هـــذا الى حد أنهم استدعوا نفس الحكومة أمام هـذه المحاكم ليقاضوها ، وكانوا غالبا ما يحكمون عليها بتعويضات جسيمة فى مصلحة رعاياهم ، ومما زاد الطين بلة وأدى الى اضطراب مجارى العـــدالة فى البلاد أن تلك المحاكم

القنصلية التى كان عددها سبع عشرة لم تكن متضامنة فى تشريعها وأحكامها ، وكانت كل منها لا تعترف بأحكام الأخرى ، فضلا عن أن هذه المحاكم كانت ابتدائية فقط ولا تستأنف أحكامها إلا فى إحدى محاكم وطن المدعى عليه .

استدعت هذه الحالة القيام ببعض الاصلاحات فى عهد اسماعيل منعا لتعدد السلطات وضمانا لسير العدالة ، وعلى ذلك الغيت المحاكم القنصلية واستبدلت بالمحاكم المختلطة .

تمت أيضاً فى عهد اسماعيل بعض الاصلاحات القضائية وكان أهمها تشكيل مجالس الأقاليم ومجلس القاهرة ، فرتبت أعمال هذه المجالس من حيث تشكيلها ونظام الاعمال فيها حتى اكتمل لمصر فى بضع سنوات نظام قضائى مستوف وانتشرت المجالس فى كل انحاء القطر للفصل فى المنازعات والخصومات .

ولما أصبحت قوانين البلاد غير وافية بحاجاتها ولا تتناسب مع ما بلغته من الرقى والمدنية الاوربية الحديثة ، عقدت النية على تهذيب القوانين المصرية وجعلها على نسق القوانين الاوربية .

وفى عهد توفيق باشا الفت الحكومة لجنة لوضع لائحة بانشاء المحاكم الأهلية ولجنة أخرى لوضع القوانين التى تطبق بمعرفة هذه المحاكم وقد تم وضع اللائحة سنة ١٨٨١ ولكن عاقت الثورة العرابية تنفيذها فاعادت الحكومة النظر فى المشروع ووضعت لائحة جديدة سنة ١٨٨٣ وفى نفس السنة صدر القانون المدنى وقانون التجارة والقانون البحرى ، وقانون المرافعات وقانون تحقيق الجنايات وقانون العقوبات .

أنشات هـــذه القوانين توحيداً فى التشريع لأنها قوانين كاملة مستمدة من مصـدر واحد هو التشريع الفرنسى وبذلك تخلصت البلاد من اللوائح القديمة التى كانت ناقصـــة مختلفة المبادىء سقيمة التركيب مبعثرة هنا وهناك .

كما أن المحاكم نظمت بواسطة هذا التشريع تنظيما حديثاً اخرجها من وصـاية الادارة وجعلها قوة هائلة لحفظ الحقوق واحترام القوانين وضمانة كبرى لصيانة الحريات

الفن :

لم يبتدىء العهد العثمانى حتى وقفت النهضة القـديمة للعمارة ، فلم ينشأ بمصر غير أبنية قليلة وهى أصغر من أن يكـون لها قيمة فنية ، لاتعادل قيمة الأبنية التى تركها المماليك .

لم يستحدث الأتراك فى مصر إلا الشـكل التركى للجوامع وهو شكل أصله من كنائس بيزنطة القديمة ، وأهم ممـــيزات الوضع الجديد للجوامع اتخاذ القباب ، ورغم مخالفة هذه البدعة للتقاليد القديمة إلا أنها صارت الأساس المعول عليه فى زمن الترك ، وأصبحت تتخذ فى وسط الجوامع بعد أن كانت اشارة للاضرحة والقبور فى الزمن القديم .

أما من حيث الزخرفة فأهم تغيير طرأ عليها هو استحداث القيشانى فى كسوة الجدران من داخل الأبنيـــة ، ولم تتقـدم الزخرفة على العموم ، فـكان أغلبها ينم عن تحرى الاقتصـــاد

خلافا لما كان يبذل فيها من التحسين ودقة الصنعة فى الأزمنة السابقة .

ظل الموثرون وأهل الفن من الأهالى يعنون ببناء مساكنهم الخصوصية ، فكانوا يتخذون فيها الفساقى ويفرشونها بالفسيفساء الدقيقة ذات الاشكال اللطيفة وتحلى سقوفها كما كان الحال عليه فى القرون السابقة .

تقدمت الفنون فى أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، بينما تناولتها فى مصر عوامل الاضمحلال ، ومما ساعد على ذلك محاولة الحكام إصلاح البلاد على النمط الاوربى ، فاقتضى ذلك إنشاء الشوارع المستقيمة وغالى القائمون بهذا الاصلاح ، فهدموا كثيراً من الآثار النفيسة لايجاد فضاء للشوارع أو الميادين المراد انشاؤها ،فأهملت الآثار العربية ، وزاد الطين بلة ان الحكومة استولت على ريع الأوقاف التى كان يصرف منها على صيانتها .

ولما جاء اسماعيل وكان ميالا الى المدنية الأوربية ، ظامئاً الى اقتباسها وإدخالها فى مصر ، أخذت الطرق المعمارية القديمة تسير الى الزوال ، وحلت مكانها الطرق المعمارية الحديثة ، وشيدت القصور الضخمة .

تبعت مصر فرنسا منذ أوائل القرن التاسع عشر فى اقتباس الفنون المعمارية المستعملة فى الثانية ، فكان الطراز الأغريقى الرومانى هو الغالب ، ومن حاول من مهندسى هذا العصر الابتكار لم يزد على أن جعل للمبانى الكلاسيكية زخرفاً حديثاً .

وبعد أن انتصف القرن التاسع عشر طرأ انقلاب عظيم على فن العمارة الذى اتخـــذ اتجاها جديداً تحت تأثير عاملين قويين : (١) انتشار روح البحث عن الحقيقة والميل الى الواقع (٢) استخدام الحديد .

لم يعد المهندسون يتقيدون بفن خاص فاخذوا تارة يقلدون فن الاغريق والرومان وتارة يقلدون صدر النهضة وتارة الفن البيزنطى الى غير ذلك من فروع الفن القديمة ، وعلى العمـــوم كانوا ينحون نحو تبسيط هذه الطـرز واقلال زخارفها غير انهم لم يخرجوا عن الأساليب التى ابدعها سواهم فيما مضى ، وظل الفن متجها الى مختلف الأساليب القديمة حتى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مايمكن تسميته (الطراز المنتقى) وليس فيه من جديد غير أنه جمع بين كثير من مميزات الطرز المختلفـــة ، وقد ظل هذا الطـراز الى آخـر القرن التاسع عشر .

وفى أوائل هذا القرن ظهر فى فن البناء الروح العملى وروح مواجهة الحقيقة والأمر الواقع ، وكان من أثر هذا مايسمونه (الطراز المعقـول) الذى يتفق ومزاج العصر ومطـالبـــه ، فاصبح المسكن خاضعاً لحاجة الساكن،وأخذ المهندسون يختارون للبناء الاوضاع التى تلتئم مع الغـرض من بنـائه ومع المواد التى سيبنى منها ومع الجو الذى بنى له فاستطاع هؤلاء المهندسون أن يجدوا مجالا لتطبيق مبتكراتهم فى بنـــاء كثيراً من المنازل والقصور الخاصة .

هذا وقد مهدت أيضاً الحاجات الحديثة للمهنسين فرصة تطبيق طرزهم المستحدثة ، فتقدم طرق المواصلات نشأ عنه تشييد المحطات ، وانتشار التعليم أدى الى تشييد عدداً عظيما من المدارس ، وهكذا أخذ فن العمارة يواجه كثيراً من المسائل الجديدة ، فأخذ يحاول الوصول الى طريقة تتفق اتفاقا تاماً مع التطورارت الاجتماعية التى طرأت على البلاد .

وعلى العموم أخذت تذهب عن الفن منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر الصفات القومية لا فى مصر وحدها بل فى انحاء العالم اجمع ، وذلك للاتصال الاقتصادى والفكرى الوثيق الذى وجد بين الأمم ، بل أن وحدة العالم الفنية فاقت وحدته الاقتصادية والفكرية .

وقد شملت الديموقراطية التي امتاز بها هذا العصر الفن أيضاً فبعد أن كان من محتكرات قصور الملوك وفئاتهم أصبح فى متناول طبقات الشعب من الموثرين وأصحاب النفوذ ، فكان لأغلبهم من القصور والمنازل ماحوى من الفنون أبدعها وأجملها ، أما من لم يتيسر لهم من الشعب التمتع بذلك ، فقد وجدت عاطفتهم الفنية غذاءها فى المتاحف والمعارض وغيرها .

أما فن التصوير فظل مجهولا بمصر مدة من الزمن ، حتى جاءت الحملة الفرنسية ووفد على مصر كثير من المصورين الفرنسيين أعجبوا بطبيعتها وآثارها فخلدوها على لوحاتهم ، وكان أول هؤلاء المصورين دوزات وتبعه ماريلهات وبرشير وجيروم وفرونتان وأخيراً فان دونجن ومارکت وفرجيه

سارات وأخذ كل منهم ينقل الطبيعة المصرية على لوحته متأثراً باحساسه الخاص .

ظل فن التصوير والنحت مهملا فى مصر حتى اينعت الحركة الفكرية فاصدر المرحوم الامام الشيخ محمد عبده فتواه فى أن التصوير والنحت لا يتعارضان مع الشريعة الاسلامية ، وكذلك أخذ قاسم أمين وغيره من زعماء الحركة الفكرية يرفعون من شأن التصوير وباقى الفنون الجميلة .

فلما كانت سنة ١٩١٢ أنشأ البرنس يوسف كمال مدرسة الفنون الجميلة وإليه يعود الفضل فى احياء فن النحت والتصوير وكان أغلب الشبان الذين رفعوا شأن الفن فى مصر من خريجى تلك المدرسة ثم أسست جمعية محبى الفنون (١٩٢٣) فساعدت على تقدم حركة الفنون الجميلة بمصر ، بما قدمته من معونة لرجال الفن وما أقامته من معارض .

ومنذ تلك النهضة أخذ المصريون يشعرون بجمال طبيعتهم فظهر منهم عدة مصورين تأثر أغلبهم فى أول الأمر بالمدرسة الفرنسية ، ثم أخذوا يتحررون من هذه المدرسة ، وابتدأ كل منهم يحاول التعبير عن طبيعة مصر بطريقته الخاصة ، إلا أن أغلبهم أخذوا يستلهمون الفن الفرعونى القديم فلم يقلدوه وبخال أنهم استمروا فى تكميله .

كانت الموسيقى المصرية فى حالة اضمحلال حتى عصر محمد على فصادفت منه بعض العناية ، وكان محتاجاً لموسيقيين للجيش فأسس عدة مدارس للموسيقى فى جهات مختلفة من

القطر ، وجلب أساتذتها من الألمان والفرنسيين ، فمهر الفلاحون المصريون فى توقيع النغمات الموسيقية على النوتات بما أدهش أهل الفن ، ونبغ بعض المصريين فى الموسيقى وكان على رأسهم محمد القبانى الذى عين كبيراً للملحنين . واشتهر أيضاً محمد المقدم الذى تعلم عليه عبده الحمولى ومصطفى العقاد .

وفى أيام اسماعيل دخلت موسيقى الجيش بعض ألحان مصرية ، وصارت تعزف فيه فتطرب منها الآذان المصرية ويحس المصريون عند سماعها بشعور قومى يملأ جوانحهم .

على أن انشاء دار الأوبرا كان فتحاً فنياً عظيماً فقد عرف المصريون حينئذ ما للفن الموسيقى من منزلة وما لرجاله من مكانة واعتبار ، وأخذت الطبقة العليا فى مصر تجد متعة فى سماع الموسيقى وفى مشاهدة القطع التى يقترن فيها التمثيل بالغناء .

ثم استحضر اسماعيل من الاستانة فرقة تركية استفاد منها الموسيقيون فى مصر كثيراً وأخذوا عنها كثيراً من الألحان والبشارف والمقامات ، فلما جاء عبده الحمولى أشهر مغني هذا العصر أخذ يغير ويبدل فى الأغانى القديمة بما يلائم الذوق المصرى وأضاف اليها بعض النغمات التركية . فكان له فى الموسيقى مدرسة جديدة كانت نواة النهضة الموسيقة العربية فى مصر .

وفى سنة ١٩٠٠ أفتتح معهد الموسيقى الشرقية ، فنهض بأمر الموسيقى المصرية وأنشئت به مدرسة لتعليم الموسيقى ثم أدخلت بعد ذلك فى المدارس وقررت فى برامج الدراسة

وأخيراً ظهر سيد درويش وكان من أشهر رجال الموسيقى فى مصر . فقـــد أدخل على الموسيـــقى المصرية كثيراً من ضروب التجـــديد .

اتصلت نهضة التمثيل بالموسيقى ، وابتدأت هـــذه النهضة منذ أن أنشأ اسماعيـــل دار الاوبرا ومسرح الكوميـــدى (١٨٦٧) ثم أعقب ذلك إنشاء عـــدة مسارح بالقاهـــرة والاسكندرية وفى العهد الأخير وجهت العنـــاية إلى المسرح العربى فظهر كثير من الفرق والجمعيات والنوادى لرفع شأنه وارتقى التأليف والترجمة للمسرح ، وأخذت الفرق الأجنبية الممتازة تحضر مصر فى كل عام لاحياء المواسم التمثيلية والغنائية فكانت سبيلا لاذاعة الثقافة المسرحية الأوربية .

الثقافة والتعليم

ان الفوضى السياســـية التى المت بمصر فى العصر التركى ، تبعتها فوضى أدبيـــة ، فحل الجمود بمصر ، وأصبح المصريون فى شـــبه غيبوبة ، فبينما كان النشاط مستمراً فى أوربا ؛ وكانت العلوم تتقدم باضطراد والمخترعات تتوالى كان المصريون لا يعرفون شـــيئا غير العلوم الاسلامية ويعتقدون أن غيرها من العلوم من أعمال الشياطين والجن ، ولعل العلم الوحيد الذى انتشر بين المصريين وكان دليـــلا على التأخر الفكرى هو السحر والتنجيم ، إن صح أن نسميهما من العلوم .

على أننا لا ننكر وجود بعض مصـــادر للثقافة فى هذا

العصر كان أهمها الأزهر ، فقد ظل مزدهراً . فكان أكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية وتدريس العلوم الدينية وعلى الخصوص بعد أن ضعف شأن العنصر العربى فى سائر المملكة الاسلامية ، ولم يقتصر فضل الازهر فى احياء اللغة العربية ونشرها فى الديار المصرية ، أو ماجاورها من البلاد العربية لكنه شمل سائر البلاد الاسلامية .

ظل بمصر بعض المعاهد الدينية فى القاهرة وفى امهات المدن الأخرى ، على أنها كانت تستمد من الأزهر مدرسيها وبرامجها وقامت بجوار هذه المعاهد الكتاتيب وكان لا يخلو منها بلد ولا قرية ، ولا يكاد يخلو منها فى المدن حى ولا درب ، وكانت وحدها الينبوع الأول الذى يطلبه الناس لتعليم أبنائهم ، وفيها يتعلم الصبيان القراءة والكتابة وحفظ القرآن .

لم تلق العربية فى هذا العهد من يأخذ بيدها ، لأن اللغة التركية حلت محلها ، وأصبحت لغة الكتابة والدواوين ، وغزتها بكثير من الكلمات التركية التى تفشت فى كتابة الأدباء فى ذلك الحين تظرفاً وتشبثاً بمحاكاة الاتراك ، وطوى بساط ديوان الانشاء الذى كان له الفضل الاكبر فى احياء اللغة العربية وآدابها ، وبلغت اللغة واصولها من الضعف دركاً أصبح فيه كثير من الكتاب عاجزاً عن التحرز من اللحن ، والنجاة من أرزاء العجمة والعى والجهل .

وفدت الحملة الفرنسية على مصر فكان أعظم نتائجها أثراً وأكثرها خلوداً نتائجها العلمية ، فقد استصحبت الحملة معها فريقاً

من العلماء الاخصائيين فى مختلف فروع العلوم يكونون فرقا للهندسة والفلك والميكانيكا والكيمياء والمعادن والحيوان والنبات والجراحة والطب والاقتصاد السياسى والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى ، وكذلك عدة مترجمين ، وضم الى هؤلاء الكثير من الصناع وأصحاب الحرف وجهزت الحملة بكثير من الأدوات العلمية ومطبعة عربية وأخرى يونانية وثالثة فرنسية ولم ينس نابليون اعداد مكتبة عظيمة تشمل ما كتب المؤلفون والباحثون عن مصر خاصة والشرق عامة لكى يقرأها الضباط وهم فى طريقهم الى مصر .

أراد نابليون أن تنتظم أعمال هؤلاء العلماء فأصدر أمراً (١٧٩٨) بتأسيس المجمع العلمى المصرى وتقسيمه الى لجان اختصت كل منها يبحث خاص ، غير أن هذا المجمع لم ينشط للعمل بهمة إلا فى أيام كليبر ومينو ، فقد ضاعف المجمع جهوده لا سيما بعد أن قسم الى عشر لجان لدرس جميع شئون مصر .

لم يدخر أعضاء المجمع العلمى وبعثة العلوم والفنون وسعاً فى القيام بالأبحاث العلمية فى مختلف العلوم والفنون ، فأنشأوا فى المجمع مكتبة تحوى انفس الكتب التى احضروها من فرنسا أو جمعوها من خزائن الكتب فى القاهرة ، وانشأوا به معملا للطبيعة والكيمياء جهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأخذوا يجوبون البلاد ، فاكتشفوا الآثار وازاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسموا

خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها، وبحثوا في طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن المصرية، ودرسوا مياه النيل وطميه وطبقات الأرض، كما جابوا الواحات والبحيرات .

لم يقتصر المعهد العلمى على دراسة العلوم والفنون، بل كان أيضاً مجلساً استشاريا فنيا مؤلفا من أعضاء واخصائيين لدرس المسائل والمشروعات التى تعرضها عليه الحكومة، فقد تناول المسائل الاقتصادية والمالية والمسائل الخاصة بالتشريع .

نفع هذا المعهد مصر بآثاره وأعماله ، وتعد مذكرات أعضائه التى جمعت وطبعت تحت اسم كتاب (وصف مصر) نواة للابحاث العلمية الخاصة بمصر، كما أن اكتشاف حجر رشيد (١٧٩٩) كان سبباً فى الوصول الى حل رموز اللغة الهيروغليفية على يد شمبليون (١٨٢٢) ومنذ ذلك الحين بدأ العلماء يهتمون بدراسة آثار مصر حتى نشأ علم الآثار المصرى Egyptology

ولما شرع محمد على فى تنظيم شؤون البلاد واصلاح ادارتها، شعر بالحاجة الى رجال متعلمين، يمكنهم الاضطلاع بالأعمال الفنية فى الجيش والمصالح الادارية، فارسل البعوث الى أوربا لدراسة مختلف العلوم والفنون وفتح مدارس كثيرة للتعليم على النظام الغربى، وكانت على ثلاثة أنواع : ابتدائية، وتجهيزية وخاصة، ومن هذه المدارس الخاصة مدرسة الطب، ومدرسة الهندسة ، والطب البيطرى ، والفنون والصناعات والزراعة والالسن .

كانت هـــذه المدارس فى مبـــدأ أمرها ترمى الى خدمة الاغراض العسكرية ، فلمـــا اتسعت رقعة التعليم ، وتنوعت فنونه ، واقتصرت أكثر مدارســـه على الاغراض العلمية . انشئت له ادارة ملكيـــة خاصـــة (١٨٣٩) سميت ديوان المدارس .

كان أول عهـد مصر بالترجمة العلمية فى هذه النهضة ما كان يقوم به المترجمون فى مدرسة الطب بين الاسـاتذة وتلاميذهم ولم يقتصر هؤلاء على ذلك ، بل قاموا بترجمة طائفة من الـكتب الطبية التى وضعها بعض أولئك الأسـاتذة الأجانب فى لغاتهم فى الطب والتشريح والأقرباذين والفسيولوجيا والطب البيطرى والصباغة وغير ذلك . وبجانب ذلك قام رجال البعثات بعـــد عودتهم بترجمة وتأليف الـكثير من الـكتب فى مختلف العلوم ، يعاونهم فى نشرها المطبعـــة الاهلية ببولاق . تلك المطبعة التى كانت عماد النهضة العلمية الحديثة فى مصر .

لم تتناول يد الاصـــلاح الازهر فظل على نظامه القديم ولعل السبب فى ذلك خوف محمـد على من أن يثير سخط العلماء والجماهير اذا هو عرض لنظام التعليم فيـه أو اقدم على اصلاحه وجعـله يسـاير حركة التقـــدم العلمى الحديث ، فظل علماؤه بعيدين عن حركة التجديد والانشاء ، فعجزوا عن الاشـتراك فى حروب مصر ، أو فى ادارة حكومتهـا أو سياستها وأعمـال العمران التى قامت بهـــا ، وبديهى أن انعكافهم على المسائل الدينية ، وعجزهم عن الاشتراك فى الأعمـــال العامة التى تمت

فى عصرهم ، كل ذلك كان له أثره فى تضاؤل نفوذهم واضعاف كلمتهم .

ظلت النهضة التعليمية على أقوى ما يكون من النشاط حتى قيدت معاهدة لندن (١٨٤٠) من سلطة محمد على بانقاص الجيش ، فضعفت القوة المحركة للاصلاح وهبطت تبعاً لذلك حمى هذا الاصلاح فى أواخر عهد محمد على فاهملت المدارس ، وكان عصر عباس متمما لهذه الفترة ، إلا أن النهوض فى ترجمة الكتب وطبعها ظل مستمراً ، ولم يكن التعليم فى عهد سعيد خيراً منه فى عهد عباس ، غير أن ميله للاجانب كان مشجعاً لكثير من الطوائف الاجنبية على النزوح الى مصر ، فكثرت المدارس الاوربية التى انشئت فى عهده ، ولم يكن لهذا العهد من محاسن إلا احياء المجمع العلمى الذى أسسه نابليون وانفض برحيله ، فأسس من جديد (١٨٥٩) تحت اسم مجلس المعارف المصرى .

تسلم اسماعيل زمام الحكم فى البلاد وحالة التعليم فيها متأخرة للغاية ، فقام بنشر التعليم بين جميع طبقات الأمة ، فشكلت لجنة تحت رياسة على مبارك باشا لوضع قانون أساسى للتعليم العام ، ونظام خاص للمدارس المختلفة ، فاصدرت اللجنة لائحة (١٨٦٧) ترمى إلى توحيد نظام التعليم ومناهج الدراسة فى جميع مدارس القطر وقسمت المدارس الى ابتدائية وثانوية وعالية ، وذلك خلاف المدارس الخاصة ، ووضع أيضاً أول قانون للازهر (١٨٧٢) وتوجت هذه المفاخر بقيام دار الكتب المصرية (١٨٧٠) وقيام دار الآثار المصرية .

نشطت الصحافة فى هذا العصر فاخذ المصريون ينشئون المجلات العلمية والصحف السياسية وبجانب هذا ظهرت الجمعيات العلمية والخيرية لنشر الثقافة وتوليد روح البحث العلمى واليقظة الفكرية ، فظهرت الجمعية الجغرافية (١٨٧٥) وتأسست الجمعية الخيرية الاسلامية (١٨٧٨) .

وفى سنة ١٨٨٠ ألفت لجنة للنظر فى حالة المدارس فوضعت تقريراً عظيم القيمة ، يشتمل على اصلاحات جمة وعلى برنامج قومى لاصلاح التعليم ، وقد عاقت الحوادث السياسية التى حدثت عقب ذلك تنفيذ هذا البرنامج ، ولكن لما استقر الأمر أخذت الحكومة ابتداء من سنة ١٨٨٥ تعمل على تنظيم التعليم ونشره ، مسترشدة بما فى تقرير اللجنة السالفة الذكر من الآراء والمقترحات .

ولما شعر المصريون بمزايا التعليم ، عظم اقبالهم عليه ، وتمشت الحكومة مع هذا الاقبال بقدر ما سمحت به مواردها المالية ، وهب الأهالى لتكميل النقص ، ففتحت مئات من المدارس الاهلية تحت اشراف الافراد أو الجمعيات الخيرية ، وتم هذا المجهود بانشاء الجامعة المصرية (١٩٠٨) بأموال اكتتب بها الأهالى وباشراف نفر من كبار المفكرين فى مصر .

ولما ازداد هذا النشاط العلمى من جانب الأمة ، اضطرت الحكومة أن تمنح مجالس المديريات (١٩٠٩) سلطة فرض ضرائب محلية وصرفها فى نشر التعليم .

بقى التعليم الدينى القديم محتفظاً بنظمه وتقاليده حتى كانت

سنة ١٩١١ فادخلت عليه تغييرات جوهرية ، إذ قسمت الدراسة فيه إلى ثلاث درجات ، ابتدائى ، وثانوى ، وعالى ، وانشئت فوق ذلك كليات ثلاث : احداها لاصول الدين ، والثانية للشريعة ، والثالثة للغة العربية وادخلت العلوم الحديثة فى كل مرحلة منها .

اصطبغ التعليم فى مصر بالصبغة الفرنسية ، ويرجع ذلك الى التأثير الذى تركته حملة نابليون والى اعتماد محمد على على مساعدة الفرنسيين فى نشر التعليم ، واخيرا الى طبيعة البلاد التى تميل الى نظام المركزية الذى هو من مميزات برامج التعليم الفرنسية (١) وقد شعر كرومر حوالى سنة ١٩٠٠ بقوة نفوذ الروح الفرنسية فى التعليم فعمد إلى وضع برنامج لنشر اللغة الانجليزية ومحو تأثير الثقافة الفرنسية ، فلم يستطع تحقيق رغبته وكذلك فعل من بعده جورج دنلوب المستشار بوزارة المعارف (١٩١٦ - ١٩١٩) فقد عمد الى تغيير مناهج التعليم وبدلا من صبغها بالروح السكسونية جعلها فرنسية أكثر مما كانت دون أن يقصد ذلك . اتخذ التعليم بعد ذلك فى تحوله اتجاهات معينة ، أهمها :

١ - محاربة الأمية ، وقد نص الدستور المصرى على جعل التعليم الأولى الزامياً وجعله بالمجان ، وقد انشأت وزارة المعارف تحقيقاً لهذه الغاية عدداً كبيراً من المدارس الأولية .

---

(١) تمتاز التربية الفرنسية على العموم بالمركزية ، واحتكار الحكومة للتعليم وترمى بذلك الى تقوية الرابطة الوطنية ، بينما تمتاز التربية الانجليزية بكراهيتها للمركزية ، فلكل مدرسة أو معهد نظام خاص به ، لا تقيده الحكومة ببرنامج أو تشريع ، وترمى بذلك الى ايجاد روح الاعتماد على النفس .

٢ ـ ترقية التعليم العالى بتعديل برامج المدارس الثانوية ، وتوسيع مناهج التعليم العالى ، ومما انجزته الحكومة نحو ترقية التعليم العالى ضم الجامعة المصرية اليها وانشاء كلية العلوم وضم مدرستى الطب والحقوق الى الجامعة ، وانشاء معهد التربية .

٣ ـ العناية بالتعليم الفنى وقد بلغت العناية به مدى بعيدا بقيام المدارس المتوسطة والعالية لكل من فنى الزراعة والتجارة ورفع شأن مدرسة الفنون والصناعات ، وانشئت المدارس لتعليم الفنون الجميلة من النحت والتصوير والزخرفة .

٤ ـ العناية بتعليم البنات ، وتمشياً مع هذا الروح جعلت مدارس التعليم الالزامى لتعليم البنين والبنات على السواء وزيد عدد مدارس البنات الابتدائية والثانوية ، والتحق كثير من الطالبات بكليات الجامعة المصرية جنباً إلى جنب مع زملائهن من الطلبة .

كان من أثر نهضة البلاد أن ترعرعت فيها هيئات وتكونت جمعيات تعنى بشؤون العلوم والآداب والفنون ، ومنها الجمعية الجغرافية الملكية ، والجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، والجمعية الملكية للحشرات ، والجمعية الطبية المصرية والجمعية الرمدية المصرية والمجمع العلمى المصرى للثقافة العلمية ورابطة الادب العربى والمعهد الملكى للموسيقى العربية وجمعية محبى الفنون الجميلة ومعهد الصحراء ، وأسس بجانب هذه الجمعيات والمعاهد بعض دور الآثار والمتاحف ، كان أولها دار الآثار العربية (١٩٠٣) ثم متحف الآثار القبطى

(١٩١٠م) وأخيراً المتحف الزراعى ومتحف التاريخ الطبيعى والمتحف الصحى ومتحف السكة الحديد وتوجت هذه النهضة بانشاء المجمع الملكى للغة العربية (١٩٣٢) ليحافظ على سلامة اللغة العربية ويجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ملائمة على العموم لحاجات الحيـاة فى العصر الحاضر ويضع معجما تاريخيا لها .

الحالة الاجتماعية

لم تختلف الحالة الاجتماعية فى العصر العثمانى كثيرا عما كانت عليه فى عصر المماليك .كانت الطبقات الاجتماعية مقسمة الى سبعة أقسام .

١ ـ الامراء المماليك ، وكانوا يسمون السناجق أى حكام المديريات فاصبحوا يؤلفون الادارة المحلية للبلاد ، فكانوا بطبيعة مراكزهم أكثر اتصالا من الوالى والديوان بأفراد الشعب ، ومن ثم سهل تسيطرهم على البلاد .

٢ ـ الجنود وقد بلغ عددهم نحو اثنى عشر ألفا وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة وامهات المدن ومنتظمين فى ست فرق تسمى كل فرقة (وجاق) ولكل فرقة ضباط يسمون (الوجاقلية) وكان الديوان يتألف من اجتماع اولئك الضباط ، كانت لهم شوكة عظيمة فى أول الأمر إلا أن مركزهم الادبى انحط عند ما ضعفت الدولة ، فضلا عن أن مزاياهم الحربية أخذت

تتلاشى لبعد عهدهم بالحروب المنظمة بل أخذوا يندمجون في المصريين ويصاهرونهم ويقتنون الاملاك في البلاد فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية .

٣ ـ عمال الديوان وكان المسلمون منهم يجبون الخراج ويسمون الروزنامجية وعندهم تقاويم الاراضي وسجلات الاملاك وكانوا محافظين على انسابهم لا يتزوجون الا من بنات اكفائهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم عقارات واسعة ، أما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف .

٤ ـ علماء الدين وكان نفوذهم عظيما عند الشعب والحكام على حد سواء فكان الحكام إذا لجأوا الى المظالم ، أظهر الشعب ألمه وشكواه الى جماعة العلماء ، فكان السلاطين اذا سمعوا شكوى الشعب يرددها العلماء لا يسعهم إلا الاجابة وازالة الشكوى في أكثر الاحوال .

٥ ـ التجار وكانوا من ثقات العرب وأصحاب الامانة لذلك قلت بينهم التفاليس ، وكانت بولاق فرضة القاهرة وفيها كانت ترسو مراكب التجار حاملة البضائع على اختلاف الانواع قادمة من أقطار شتى ، وتحمل من بولاق الى الخانات أو الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركماني ، أما أصحاب المصارف فكانوا من اليهود ، وكثيراً ما اضطهدهم المماليك .

٦ ـ الفلاحون وظلوا رجال نشاط ، قامت الثروة المصرية على ايديهم ، ومع ذلك فقد لازمتهم الفاقة ، واستخدموا بلا رحمة في أشق أعمال السخرة ، واقسى الحروب ، الا أن

أجسامهم وأرواحهم ارتبطت بممارسة الآلام فشددت عزائمهم بحيث اصبحوا ، اذا أصابتهم سهام تكسرت النصال على النصال .

٧ ـ العمال والصناع وكانوا منتظمين فى طوائف ، لكل طائفة منهم شيخ يسمى (شيخ الطائفة) وكان له مركز ممتاز بين أفرادها ، فهو المسئول أمام الحكومة عن شئونهم وعن جمع الضرائب والغرامات منهم وكان له حق الفصل فيما ينشأ بينهم من نزاع كما أنه كان يشرف على حالة السوق وتنفيذ قوانين الطائفة .

ولما انقضى عهد العثمانيين واستقل محمد على بالحكم أخذت الطبقات الاجتماعية تتغير تغيرا كليا ، ويمكن تقسيمها منذ ذلك العهد الى خمس طبقات ، الفلاحين والصناع والاعيان والموظفين والاجانب .

١ ـ لم تتحسن حالة الفلاح كثيرا فى عهد محمد على ، فقد أدى شغفه بسرعة تنفيذ الأعمال العمومية الى تحميل الفلاح اعباء ثقيلة من السخرة ، والى تقييد حريته أحيانا باجباره على زرع بعض الاصناف ، وارغامه على شراء مصنوعات الحكومة . وظل محمد على السيد المطلق على الارض ، وفى عهد عباس صدر الأمر العالى باحترام الملكية الفردية ، ومنع المصادرة والجلد والسخرة ، وتعيين مدة للخدمة العسكرية . ولكن لم يحصل فى الواقع تغيير ما فى الحال ، فقد بقيت السخرة بكل مظالمها فى عهد سعيد باشا دون أن يدخل عليها أى تلطيف قانونى وقد حل احتياطي الجيش حينا محل رجال السخرة ، فكانت

الحكومة تفرز للجيش عددا عظيما من الفلاحين الذين يتكون الاحتياطى منهم وبهذا يستخدمون فى الاعمال العمومية ، غير أن السخرة لم تلبث أن اعيدت فى سنة ١٨٧٩ وشملت جميع المموِّلين بنسبة ما لهم من الملك ، ولكن خففت اساءتها بمنح المسخرين حق تقديم بدلا عنهم .

ومنذ أن وجدت الملكية الفردية بمصر أصبح الفلاحون فريقين ، ملاك يعيشون من ريع أطيانهم ، ومستأجرين وعمال والسواد الاعظم انما هو من العمال ، وهم قسمان أصليان يقومون على الدوام فى أبعاديات الملاك يزرعونها بالمناب أو باليومية ، ومنقطعون يكدون كدهم اليومى بأجور تختلف باختلاف الجهات وضرورة العمال وكثرة عددهم أو قلته .

٢ ـ أخذ نظام الطوائف يزول شيئا فشيئا على أثر دخول الانظمة الحديثة أثناء الحملة الفرنسية وما تلاها من تركيز الانتاج الصناعى فى عهد محمد على باشا فلم يكن محتسبو الوالى أولئك الذين كانوا يمارسون منصبهم تبعا لقواعد الدين والاخلاق ، بل كانوا من الترك والكرد وقد عاملوا الصناع بكل ما أوتوا من ضروب القسوة وصنوف الوحشية وأوقعوا أقصى العقوبات على كل من حاول الغش فى الموازين أو منافسة ما احتكره الباشا أو أتى عملا مخالفاً لرغبتهم ، عفواً أو عن سبق اصرار .

وبالرغم مما كانت عليه الطوائف من الانحطاط كان يحتفظ المشايخ ببعض حقوقهم ، فكان لهم مثلا حق توقيع

بعض العقوبات البدنية والغرامات الى أن رفعها عنهم سعيد باشا .

وفى عصر اسماعيل باشا ظلت الصلة بين الحكومة ومشايخ الطوائف قائمة بالرغم من اختلافها عما كانت عليه فى الماضى فكانت الحكومة هى التى تعين المشايخ وتطلب منهم معلومات عن أفراد الطائفة فيسترشد بهم فى فرض ضرائب الحرف وكانت تجبى حينذاك بوسائل الاكراه .

٣ ـ كان الأعيان احسن حالا من الفلاحين والصناع ، فقد اقتنوا الأطيان والضياع واصلحوا أطيانهم القديمة وتاجروا فى المحاصيل وأخذت ثرواتهم فى الازدياد فى عهد اسماعيل بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران كشق الترع واقامة القناطر وتسهيل وسائل الرى ، وانشاء السكك الحديدية وتعبيد طرق المواصلات ، فزاد دخلهم من أطيانهم وأملاكهم ، واتسعت عليهم الدنيا ، وراعت الحكومة جانبهم ، وكانوا هم من ناحيتهم يخضعون لأوامر الحكومة ويتزلفون الى الحكام حتى ينالوا رضاهم ويأمنوا على مصالحهم ، وفى كثير من المواطن كانوا يكسبون رعايتهم إذ يصلونهم بالهدايا والرشاوى وما الى ذلك ، وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية ، فازدادت منزلتهم وعظم جاههم وراعى اسماعيل جانبهم وانعم على كثير منهم بالألقاب والرتب واسند المناصب الادارية والقضائية الى فئة منهم ، فكان منهم المديرون والمأمورون ورؤساء المجالس (المحاكم) الابتدائية والاستئنافية . وكاد يكون مجلس شورى الحكام

مقصورا على طبقهتم .

٤ - ارتقى مستوى الموظفين عما كانوا عليه من قبل ، لأن كثيراً من الوظائف شغلها خريجو المدارس فى عهد محمد على وخلفائه ، إلا أن كثيراً منهم اتخذ الوظائف وسيلة للاستغلال والإثراء ، ومن هنا جاء سوء الادارة وانتشار الرشوة ومظالم الحكام ، وقلما كان الرؤساء من الموظفين والحكام ينظرون إلى مصالح البلاد والاهلين ، بل أهملت هذه الناحية اهمالا جسيما ، حتى لم يكن للأهلين حقوق محترمة ولا كرامة مصونة أمام الموظفين . كانت قاعدة الحكام فى معاملة الفلاحين هى القهر والارهاق ، وكان الضرب بالكرباج عادة مألوفة فى جباية الضرائب أو الاقتصاص ممن يخالفون الأوامر أو يستهدفون لغضب الحكام لأى سبب ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل يحميان الضعيف وينصفان المظلوم ، ولا رقابة على الحكام من حكومة عادلة أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام .

٥ - لما استقر الأمر فى الديار المصرية وتحسنت الادارة أخذت وفود الجاليات الأوربية ترد مصر أفواجاً ، وبدأت المصالح الأجنبية تتكاثر فى مصر وتتعدد نواحيها فى أيام سعيد وشجعهم على ذلك الامتيازات الأجنبية التى كانت منحاً من تركيا لترقية الحالة الاقتصادية فى بداية الأمر ثم اتخذت صورة معاهدات بين فرنسا وتركيا (١٨٠٢) فلما أخذت تركيا فى الضعف بدأ يظهر تغطرس الدول واستغلال قناصلها الظروف

لتفسير نصوص الامتيازات بطريقة تكسبهم سلطة واسعة وتضعف بالتالى من السلطة المحلية ، فبعد أن كانت الامتيازات دفاعية محضة أصبحت هجومية تعمل لمصالح الأجانب البحتة فى معظم الاحيان دون اكتراث لما يصيب البلاد وأهلها من جراء ذلك .

كان أكثر الأجانب من المرابين ، وقد وجدوا من الامتيازات الأجنبية ورعاية الحكومة ما جعلهم يستغلون الفلاحين والأهلين عامة إلى أقصى درجات الاستغلال ، حتى انتزعوا منهم الأملاك والأموال وكبلوهم بالديون الباهظة ولم يجد الفلاح من الحكومة حماية لحقوقه ومرافقه ، بل كانت تشترك مع الأجانب فى ارهاقه واستغلاله .

ظلت الحالة الاجتماعية تسير على هذا النظام طوال العصر الحديث إلا أنها تغيرت بعض التغير منذ سنة ١٨٨٢ وسنبين فيما يلى مقدار التغير الذى طرأ على أهم النواحى .

تعاقبت منذ سنة ١٨٨٠ سلسلة من الأوامر العالية لتخفيف مشقات السخرة وصدر آخر هذه الأوامر سنة ١٨٨٩ وقضى بالغاء السخرة فى القطر كله ، والاعتياض عنها برسم اضافى على الأطيان ثم ألغى هذا الرسم سنة ١٨٩٢ فزاد عدد المزارعين إلا أن عدد صغار ملاك الأطيان كان كبيراً بالنسبة الى كبار الملاك . ومع ذلك فقد وجد المالك الصغير الأمن بعد فقده وصار يعامل بالانصاف ويلقى من الادارة رأفة وعدم استبداد وإذا تقاضى فتحت سبل العدل فى وجه مطالبه ولكن داء

دوياً كان ينخر دائماً عظم الملكية الصغيرة ، وبذلك دام الربا فالفلاح كسائر الملاك يفتقر الى المال لادارة حــركة أرضه فى خلال السنة ، ولذلك فهو فى حاجة أبداً إلى الاقتراض وهو مضطر الى الالتجاء إلى المرابين .

جربت الحكومة فى سنة ١٨٩٦ تسليف الفلاح ما يحتاج اليه من أموالها الأميرية فنجحت التجــربة ، ولكن الحكومة لأمر ما لم تحاول إعادة هذه التجربة ولم تفكر فى تجربة أخرى بل تركت نظام التسليف الزراعى فى يد البنوك الأجنبيــة ، فأنشىء فى سنة ١٩٠١ البنــك الزراعى المصرى ، وفى السنوات الأولى كانت أعمال البنك مقرونة بالنجاح ولكنها بعـــد ذلك صادفت مصاعب عظيمه .

دفع هذا الفساد فى نظام التسليف عمر بك لطفى الى نشر دعوة التعاون ، وأسس أول شركة للتعاون المـــالى فى القاهرة (١٩٠٩) لتسليف الأعضاء بواسطة التعاون فى التوفــير . ثم تم على يده تأسيس عدة نقابات زراعية ، واستمرت حركة تأسيس النقابات وشركات التعــاون حتى انتشرت الأفـــكار والمبادىء التعاونية فى البلاد .

استمرت الحركة التعاونية فى اعتمادها على جهود الشعب وحده ، حتى وضعت الحكومة سنة ١٩٢٧ قانوناً عاماً للتعاون قرر تضامن الحكومة والشعب فى تسيير التعاون ، ثم فتــح بنــك التسليف الزراعى ســنة ١٩٣١ وتولى أقـــراض الجمعيات التعاونية .

ألغيت طوائف العمال الغـــاء تاماً سنة ١٨٨٢ ولم يبق لها أثر منذ ذلك الوقت إلا الموكب السنوى الذى يسير فيـــه أرباب الحرف يوم رؤية هلال رمضان .

أخذ أصحاب رؤوس الأموال من الأجانب يشيدون المصانع فى مصر ، ويستوردون كثيراً من المصنوعات الأجنبية فزاحموا أرباب الصناعات من الأهالى ، فاضطر كثير منهم إلى ترك صناعته والعمل بأجر زهيد .

أخذ عدد العمال فى الازدياد ، وأخذت حالتهم الاجتماعية تتطور ، فتعلم فريق كبير منهم القـــراءة والكتابة واطلع على الصحف وسمع الخطباء وشاهد السينما ، واطلع على أحـــوال العمال فى الأمم الأخرى والانقلابات التى أحدثوها بقـــوة اتحادهم ، وكانت نتيجة هـــذا التطور الاجتماعى أن العمال المصريين كيفوا مركزهم فى جسم الأمـــة وبدأوا فى تأليف النقابات لاصلاح أحوالهم .

يرجع تاريخ أول نقابة للعمال الى سنة ١٨٩٩ حين أنشئت نقابة عمال السجاير المختلطة وكانت مؤلفة من عمـال مصريين وأجانب ، ثم ظهرت سنة ١٩٠٨ نقابة عمـــال الترام المختلطة وفى سنة ١٩٠٩ ألف عمر لطفى بك نقابة عمـــال الصناعات اليدوية ثم خمدت الحركـة وبقيت فى خمودهـا الى سنة ١٩١٩ وأخذت الحكومة تكافح هذه الحركة .

كانت الهيئة الاجتماعية على العموم منـــذ عصر اسماعيل تسير نحو حالات جديدة ، وتقتبس من أساليب المجتمع الأوربى

وعاداته ، ومال الناس الى محاكاة الاوربيين فى المسكن والملبس وسائر انماط الحيـــاة ، وكان انتشار التعليم من العوامل التى ساعدت على هـــذا التطور ، فان الطبقة المتعلمة بحكم دراستها علوم أوربا ولغاتها صارت طليعة الطبقات الأخرى فى تقليد الاوربيين واقتباس عوائدهم وأساليبهم ، فاخذ الناس من كل ذلك مزيجاً من النافع والضار .

استتبع انتشار التعليم ارتقاء الحياة العائلية ، وأخذ النـاس يفهمون الروابط الزوجية على نحـــو أرقى من الفهم القديم ، وينظرون الى الزوجة كشريكة للمرء فى حياته وقسيمته فى سرائه وضرائه ، وقل تعدد الازواج فى الاوســـاط المثقفة ، كما قل الطلاق والتسرى ، وبدأت العائلات تعنى بتعليم البنين والبنات .

وبدأت النهضـــة النسائية منذ عصر اسماعيل ، اذ انشئت المدارس لتعليم البنات ، وكان لرفاعة بك رافع الطهطاوى فضل كبير فى ترقية المرأة المصرية ، فهو أول من دعا الى نهضتها والى تعليم البنات وتثقيفهن اسوة بالبنين .

ثم جاء قاسم امين ونشر كتاب (تحرير المـــرأة) وقال قولته المشهورة (اصلاح المرأة هو أساس كل اصلاح فى الشرق) فدعا الى السفور وتعليم الفتيات اسوة بالفتيان فهب الرجعيون ليوقفوه عند حده ، ولكنه ظل يدافع عن مبادئه بقوة وايمان .

مات قاسم ولكن فكرته لم تمت بل ظلت كامنة فى انتظار الفرصة الملائمة للظهور الى أن ثارت الأمة ثورتها الكبرى (١٩١٩) وخرجت النســـاء يسرن فى مواكب المظاهرات

ويهتفن بحياة مصر ، ومنذ هذه الثورة ، خطت الحركة النسائية فى مصر خطوات واسعة .

وفى عام ۱۹۲۳ اسست السيدة هدى هانم شعراوى الاتحاد النسائى المصرى وبدأت حملة نشيطة باهرة لحمل الحكومة على تحسين حالة المرأة وموقفها من الزوج ، فنالت من أول عام قانونا يقضى بتحديد سن السادسة عشرة كحد أدنى لزواج الفتاة .

لم يكن لعلماء الأزهر شأن كبير فى تطور الاحوال العامة سياسية كانت أو اجتماعية فضعفت مكانتهم عما كانوا عليه فى عهد الحملة الفرنسية وأوائل عصر محمد على ، إلا أن علماء الأزهر وطلبته استردوا فى عصر اسماعيل شيئا من المكانة التي كانت لاسلافهم من قبل ، فقد نال بعضهم مكانة عالية ومنزلة سامية فى الهيئة الاجتماعية ، وكذلك ظل الازهر كما كان المعين الذى استمدت منه النهضة العلمية والأدبية عناصر الحياة .

ولما جاء السيد جمال الدين الافغانى مصر (۱۸۷۱) وجد تلاميذ الازهر وطائفة من المنقسمين اليه البيئة الصالحة التى بث فيها تعاليمه وافكاره ، فنفخ فى الأزهر روح النهضة وغرس فيه مبادىء التقدم الفكرى والعلمي . أخذ جمال الدين الافغانى يبث فيمن حوله الأفكار الدستورية الصحيحة والمبادىء الوطنية الحقة ، فصادفت البذور أرضا خصبة نمت فيها وأثمرت ونضج الثمر .

كانت اكبر العوامل التى ساعدت جمال الدين على غرس

آرائه ، كما ساعدت على قيام النهضـــة الفكرية فى البلاد ظهور الصحافة الحرة فى تلك الفترة ، فقد كان لهـــا نصيب وافر فى تكوين الرأى العـــام الذى أصبح قوة يعتد بها فى حوادث البلاد السياسية والمالية .

أخذت نهضة الحرية الفكرية تسير فى طريقها الطبيعى ، فظهرت المدرسة الفكرية التى حمل لواءها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ثم تبعه كثير من أئمة النهضة القومية أمثال المرحوم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول فلم تبتدىء سنة ١٩١٩ حتى بدت ثمـار النهضة القومية فى الثورة المصرية التى لم تنته حتى اصبحت الأمة كتـــلة واحدة تناضل فى سبيل حريتها والدفاع عن حقوقها .

مراجع الكتاب

العصر القديم

Breasted: A History of Ancient Egyptians.
Budge, E. Wallis: A History of the Egyptian People.
Eliot Smith: In the Beginning.
Flinders Petrie: Social Life in Ancient Egypt.
Gustave le Bon: Les premières civilisations.
Maret & Davy: Des Clans aux Empires.
Steindorff, G.: The Religion of Ancient Egypt.

العصر الاغريقى الرومانى

المنارة التاريخية فى مصر الوثنية والمسيحية : اسكندر صيفى
المنحة الدهرية فى تخطيط مدينه الاسكندرية : محمد مسعود

Breccia: Alexandrea ad Egyptum.
Butcher, E. L.: Story of the Church of Egypt.
Forster: Alexandria.
George Finlay: History of the Byzantine Empire.
Liddell, Henry G.: A History of Rome.
Louis Ménard: Histoire des Grecs.
Mahaffy: History of Egypt Under the Ptolemaic Dynasty.

Milne: History of Egypt Under the Roman Rule.
Paul Guiraud: Lectures Historique de la vie privée et la vie Publique des Grecs.

العصر الاسلامى

تاريخ عمرو بن العاص : حسن ابراهيم حسن
تاريخ مصر الاسلامية : الياس الأيوبى
فجر الاسلام : احمــــد امين
ضحى الاسلام : احمــــد امين
محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية : الشيخ محمد الخضرى بك
معالم تاريخ العصور الوسطى : محمد رفعت ومحمد احمد حسونه
المماليك فى مصر : انور زقلمة

Butler, Alfred J.: The Arab Conquest of Egypt.
Muir, Sir William Temple: History of the Mamluk's Dynasty in Egypt.
Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages.

العصر الحديث

تاريخ مصر الحديث : جورجى زيدان
تاريخ الحركة القومية : عبد الرحمن الرافعى
تاريخ مصر الحديث : عبد الرحيم مصطفى
تاريخ مصر من الفتح العثمانى : عمر الاسكندرى وسليم حسن
حضارة مصر الحديثة : لنخبة من زعماء الرأى فيها

Lane, E. W.: The Manners & Customs of the Modern Egyptians.

تاريخ عام

تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى : عمر الاسكندرى وسليم حسن
كتاب التاريخ القديم: ج، ادجار ومحمد شفيق غربال

Arthur Rhoné: Résumé Chronologique de l'Histoire d'Egypte.

Harmsworth History of the world.

Seignobos: Histoire de la Civilisation.

Wells: A Short History of the World.

Karl Baedeker: Egypt.

Macmillan's Egypt.

فهرس

اقرأوا للمؤلف

فجر التاريخ

وانتظروا

تاريخ التطور الدينى

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية